﴿سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ﴾

سورة الرحمن سورةٌ مكيةٌ(١) عند الجمهور، وهو الراجح، وذهب بعض الصحابة إلى أنها مدنيةٌ، وقيل كلُّها مكيةٌ إلا آيةً، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

وآيُها ثمانٍ وسبعين آيةً، نزلت بعد سورة الرعد.

مناسبتها لما قبلها:

١ - أن فيها تفصيل أحوال المجرمين والمتقين التي أشير إليها في السورة السابقة إجمالاً في قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾

٢ - أنه عَدَّدَ في السورة السابقة ما نزل بالأمم التي قد خلت من ضروب النقم وبين عقب كل ضرب منها أن القرآن قد يسّر لتذكر الناس وإيقاظهم، ثم نعى عليهم

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الدر المنثور" (١٤/ ١٠٠) أَخرَج النحاس عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة الرحمن بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أنزل بمكة سورة الرحمن.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: نزلت سورة الرحمن بمكة.

وأخرج ابن الضريس، وَابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة الرحمن بالمدينة.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٢٣) وهي مكية فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين.

إعراضهم-وهنا عدد ما أفاض الله على عباده من ضروب النعم الدينية والدنيوية في الأنفس والآفاق، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب شكرها.(١)

٣ - إن قوله: ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢**﴾ كأنه جواب سائل يقول: ماذا صنع المليك المقتدر، وما أفاد برحمته أهل الأرض؟

يقول الله تعالى:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾

هذه السورة العظيمة ابتدأها الله جل جلاله بقوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾ والرحمن هو اسم يختص الله به جل جلاله وتباركت أسماؤه، فهو اسم من أسماء الله عز وجل، وصفة من صفاته الجليلة.(٢)

(**١**) ينظر "تفسيره" (٢٧/ ١٠٤).

(**٢**) قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ في "معاني القرآن وإعرابه" (٥/ ٩٥) (الرحمن) اسم من أسماء الله تعالى، لا يقال لغيره، وهو في الكتب المتقدمة، ومعناه الكثير الرحمة. وينظر "العين" للخليل بن أحمد (٣/ ٢٢٤)، و"تهذيب اللغة" للأزهري (٥/ ٣٣)، و"الصحاح" للجوهري (٥/ ١٩٢٩).

وهي من الرحمة وهي الرقة والتعطف بالنسبة لمعناها اللغوي، أما الرحمة بالنسبة لله فهي صفة تليق بجلاله سبحانه، وليست كصفات المخلوقين، لأن الكلام في الصفات كالكلام في الذات، فربنا تعالى ليس كمثله شيء.(١)

وفي الجاهلية منهم من كان يُقِرُّ هذا الاسم العظيم، ومنهم من كان لا يُقِرُّ(٢)، **فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: «اكْتُبْ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ اللهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهُمَّ**(٣)، والراجح أنهم أنكروا ذلك على سبيل المكابرة، ولكن منهم من كان يقر باسم الرحمن، كما قال الله تعالى حاكياً عن بعض المشركين أنهم قالوا ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٠]، وابن جرير رَحِمَهُ اللهُ أنكر بشدة على من قال

---

(١) قال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ في "اشتقاق أسماء الله" (٣٨) الرحمن الرحيم، صفتان لله عز وجل مشتقتان من الرحمة، فالرحمن فعلان، والرحيم فعيل.

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (١/ ١٦٠) وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في "أضواء البيان" (٣/ ١٨٩) وقد بين جل وعلا في غير هذا الموضع: أنهم تجاهلوا اسم الرحمن في قوله: "﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ**﴾ [الفرقان: ٦٠]، وبين لهم بعض أفعال الرحمن جل وعلا في قوله: ﴿**ٱلرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ② خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ③ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ④**﴾.

(٣) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٣١)، ومسلم في "صحيحه" (١٧٨٤).

إن العرب كانت لا تعرف اسم الرحمن، قال " وقد زعم بعضُ أهل الغَباء أنَّ العرب كانت لا تعرف "الرحمن"، ولم يكن ذلك في لغتها ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿**وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا**﴾ [الفرقان: ٦٠]، إنكارًا منهم لهذا الاسم، كأنه كان محالا عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته، أوْ: لا وكأنه لم يتْلُ من كتاب الله قول الله ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ**﴾ يعني محمدًا ﴿**كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٦] وهم مع ذلك به مكذِّبون، ولنبوته جاحدون فيَعلمَ بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقةَ ما قد ثبت عندهم صحتُه، واستحكمتْ لديهم معرفتُه".[١]

وربنا تعالى وصف نفسه بالرحمن في أكثر من آية فقال تعالى: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿ **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ [مريم: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥]، وقال جل ذكره ﴿**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا**﴾ [الفرقان: ٢٦].

فالرحمن معناها ذو الرحمة الشاملة الواسعة، كما قال تعالى ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فالرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، إنسهم وجنهم،

---

(١) أورده الطبري في "جامع البيان" (١/ ١٣٠).

المسلم والكافر، وللمؤمنين في الآخرة خاصة.(١)

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " إِنَّ اللهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي.(٢)

وفي الصحيح **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاكِ لَكِ" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ، أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.**(٣)

قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة للفظ الجلالة؛ و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صفة أخرى؛ و ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو ذو الرحمة الواسعة؛ و

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١/ ١٢٦) عن العرزمي، قال: " ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: الرحمن بجميع الخلق، الرحيم قال: بالمؤمنين.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (١/ ١٢٤) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١/ ١٦٢)، و"أضواء البيان" للشنقيطي (١/ ٥).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٤٢٢)، ومسلم في "صحيحه" (٢٧٥١).

(٣) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٩٨٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٥٥٤).

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو ذو الرحمة الواصلة؛ فهو ذو الرحمة الواسعة، لأن فعلان في اللغة العربية تدل على السعة والامتلاء، كما يقال: رجل غضبان: إذا امتلأ غضباً.

"الرحيم": اسم يدل على الفعل، لأنه فعيل بمعنى فاعل فهو دال على الفعل.

فيجتمع من "الرحمن الرحيم": أن رحمة الله واسعة وأنها واصلة إلى الخلق، وهذا هو ما أومأ إليه بعضهم بقوله: الرحمن رحمة عامة، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط فكأنها لا رحمة لهم.(١)

وبعض أهل العلم قال الرحمن صفة ذات، والرحيم صفة أفعال.(٢)

وقال بعضهم أن الرحيم خاصٌّ بالمؤمنين كما قال تعالى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، وأما الرحمن فالله شمل برحمته المسلم والكافر، والإنس والجن، وجميع الكائنات، ولذلك قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥](٣)

---

(١) أورده العثيمين في "تفسيره" (١/ ١١)، وانظر "شرح الواسطية" (١/ ٣٨).

(٢) قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "البسيط" (١/ ٤٥٥) معنى الرحمة في صفة الله تعالى: إرادته الخير والنعمة بأهله، وهي صفة ذات، وفي صفة أحدنا تكون رقة قلب وشفقة.

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "معالم التنزيل" (١/ ٥١) فالرحمن من تصل رحمته إلى الخلق على العموم، والرحيم من تصل رحمته إليهم على الخصوص، ولذلك يدعى غير الله رحيما ولا يدعى غير الله رحمن.

. وينظر "اللباب في علوم الكتاب" (١/ ١٤٧).

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (١/ ١٢٥) قال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: " الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دالٌّ أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة:١١٧] ولم يجيء قط رحمن بهم فعُلِم أن الرحمن: هو الموصوف بالرحمة، ورحيم: هو الراحم برحمته".[1]

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه "الرَّحْمَنُ" الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره ﴿**الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾.[2]

ولنا هذا الحديث العظيم، **فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟»**

=عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿**وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٣] وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١/ ١٦٢).

(١) ذكره ابن القيم في "بدائع الفوائد" (١/ ٢٤).

(٢) ينظر "تيسير الكريم الرحمن " (٨٢٨).

قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا». (١)

وآثار رحمة الله في الكون عظيمة، أنت لو تأملت نفسك وتأملت الكون لرأيت رحمة الله في كل شيءٍ، ومن عظيمِ رحمة الله أن بعث الله لنا نبينا محمد ﷺ، ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤]. (٢)

ومن عظيم رحمة الله أن اصطفاك وهداك للإسلام، هذا والله من عظيم رحمة الله عز وجل. (٣)

ومن عظيم رحمة الله تعالى أن الله يرزق المسلم والكافر، والبر والفاجر، سبحانه عز وجل، لم يقتصر الرزق على المؤمنين فقط، بل سبحانه عز وجل يرزق المؤمنين والكافرين، المطيعين والعاصين. (٤)

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٩٩٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢٧٥٤).

(٢) قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ في "التحرير والتنوير" (٢٧/ ٢٣٠) وأوثر استحضار الجلالة باسم الرحمن دون غيره من الأسماء لأن المشركين يأبون ذكره فجمع في هذه الجملة بين ردين عليهم مع ما للجملة الاسمية من الدلالة على ثبات الخبر، ولأن معظم هذه السورة تعداد للنعم والآلاء فافتتاحها باسم الرحمن براعة استهلال.

(٣) ينظر "الكشاف" للزمخشري (٤/ ٤٤٣).

(٤) قال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ في "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" (١٩/ ١٤١) ومن مقتضى اسمه

ولذلك لما قال نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، أراد إبراهيم أن يقتصر الرزق على أهل الإيمان والصلاح، ولكن ربنا تعالى قال أيضاً ومن كفر فأمتعه، أي أرزقه، فالله يرحم في الدنيا المسلمين والكافرين، فيرحم الكافر لا يعجل له العقوبة، هذه رحمة عظيمة من الله سبحانه، وفي الحديث **عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»**.(١)

فلذلك أيها الكرام ربنا هو الرحمن الرحيم، ومن عظيم رحمته وعظيم فضله ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وهذه من أجل نعم الله تعالى على عباده، أي أنزل على عباده القرآن ويسر حفظه وفهمه حتى يتعلمه العباد، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، جعله الله ميسراً، فعلى العباد أن يقبلوا على كلام الله، ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ولذلك أخي هذه من نعم الله الجليلة علينا، فإذا أردت أن تعرف نعم الله عليك أقبل على كتاب الله سبحانه، فما من عبد يقبل على كتاب الله إلا ويفتح الله له أبواب الرحمات، وأبواب الخيرات في الدنيا والآخرة، وصدق الرسول

={الرحمن} انبثت جميع النعم، ولذا ذكر في هذه السورة أمهات النعم في الدارين.
ينظر "جامع البيان" (٢٢/ ١٦٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٢٤).

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٠٩٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٠٤).

ﷺ حيث قال: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**».(١)

فضل القرآن وأهله:

﴿**الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾ الله هو الذي علم، ولذلك في فضل القرآن الكريم وفضل تعلمه وتعليمه الشئ الكثير جداً الذي يبهر عقلَ الإنسان، ويعلم مدى تقصيره في كتاب ربه عز وجل، كفى بذلك فضلاً وفخراً قول مولانا عز وجل ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٩]، وقوله تبارك وتعالى ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله جل ذكره ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٥]، الله جعله مباركـًا، فما مِن عبدٍ يقبل على كتاب الله إلا وتناله البركات حتمـاً ولا بد، والله يا إخواني لن يصلح حال الأمة إلا إذا أقبلت على كتاب الله، وتركت هذا الهُراء الذي عمَّ وطمَّ على المسلمين، وشغلوا أنفسهم بتفاهات ويظنون أنها أمورٌ عِظَامٌ، ولعل الواحد منهم يرى أنه يجاهد في

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨١٧)، وابن ماجه في "سننه" (٢١٨)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٧٢) **عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».**

سبيل الله، وإذا به يشغل نفسه بفلانٍ قال وفلانٍ فعل، اشغل نفسك بكتاب ربك[١]، ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ هذه أعظم نعمة، والله جل جلاله في هذه السورة العظيمة يذكر بعض نعمه وآلاءه ثم يقول ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وكررتُ كثيراً جداً في هذه السورة، وما تكررت آية بمثل ما تكررت هذه الآية في سورة واحدة، ليدلك على أنه يجب أن تنتبه لشكر نعمة الله[٢]، ومن عظيم شكر نعمة الله أن تقبل على كتاب الله عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٣] من تَعلَّم القرآن وعلَّم القرآن، قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه، الخطاب للأمة عامة، فخير الناس من جمع بين هذين الوصفين، من تعلَّمَ القرآنَ، وعَلَّمَ القرآن، تعلمه من غيرِه ،وعلَّمه غيرَه، والتعلُّم والتعليمُ يشمل التعلم اللفظي والمعنوي، فمن حفظ القرآن، يعني صار يعلم الناس التلاوة ويحفظهم إياه فهو داخل في التعليم، وكذلك من تعلم القرآن على هذا الوجه فهو داخل في التعلم، وبه نعرف فضيلة الحلق الموجودة الآن في كثير من البلاد ولله الحمد، في المساجد حيث يتعلم الصبيان فيها كلام الله عز وجل،

---

(١) ينظر "تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٧/ ٤٨٨).

(٢) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في "زاد المسير" (٨/ ١١٠) فإن قيل ما الفائدة في تكرار قوله "فبأي آلاء ربكما تكذبان" الجواب أن ذلك التكرير لتقرير النعم وتأكيد التذكير بها قال ابن قتيبة من مذاهب العرب التكرار للتوكيد والإفهام كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠٢٧)، وأبو داود في "سننه" (١٤٥٢)، والترمذي في "سننه" (٢٩٠٧)، والنسائي في "الكبرى" (٧٩٨٢)، وابن ماجه في "سننه" (٢١١).

فمن ساهم فيها بشيء فله أجر، ومن أدخل أولاده فيها فله أجر، ومن تبرع وعلم فيها فله أجر، كلهم داخلون في قوله "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". (١)

ومن فضل القرآن وبركاته هذا الحديث العظيم، **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»**(٢)

وقول الحبيب ﷺ في صحيح مسلم **«اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»**. قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ.(٣) في هذا اليوم الذي لا ينفع المرء فيه مال ولا بنون ولا أخ ولا شيء، ينفعك القرآن الكريم.

وما أعظم هذا الحديث الجليل **فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ**

---

(١) ذكره العثيمين في "شرح رياض الصالحين" (٤/ ٦٣٩).

(٢) **(صحيح)** أخرجه النسائي في " الكبرى" (٧٩٧٧)، وابن ماجه في "سننه" (٢١٥)، وأحمد في "مسنده" (١٢٢٧٩)، والحاكم في "المستدرك" (٢٠٤٦)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٤٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨٠٤)، وابن حبان في "صحيحه" (١١٦)، وأحمد في "مسنده" (٢٢١٤٦)، والحاكم في "المستدرك" (٢٠٧١) عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ رضي الله عنه، به.

ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا».[١] فكم قرأت من القرآن اليوم؟ والله مقصرون نسأل الله أن يغفر لنا، عندما نقرأ عن السلف الصالح نقول سبحان الله أهؤلاء كانوا ملائكة؟ هؤلاء ليس لهم أهل وأبناء؟ بالعكس تجد الواحد منهم له زوجة واثنتين وثلاث، وهذا كان طبيعي جداً في المجتمعات المتقدمة، وعنده من الأولاد الكثير جداً، وتراه يقوم بجميع الحقوق، وتراه تالياً للقرآن صائماً بالنهار قائماً بالليل، عثمان رضي الله عنه يقول "والله لو صحت قلوبنا ما شبعت من كلام ربنا"[٢] نعم والله يغفر الله لنا تقصيرنا.

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»[٣]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (١٤٦٤)، والترمذي في "سننه" (٢٩١٤)، والنسائي في "الكبرى" (٨٠٠٢)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٢٤٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٧/ ٢٧٢) قال عثمان له: «لو أن قلوبنا طهرت ما شبعت من كلام الله»

(٣) **(حسن)** أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٣٥٧)، وأبو داود في "سننه" (٤٨٤٣)، وابن المبارك في "الزهد" (٣٨٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢٤٣١)، وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٩٨).

فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلاَءِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ.(١)

وكفى بالقرآن فخراً وشرفـًا قول الحبيب ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».**(٢)

هذا الحديث يشمل قراءة القرآن في أي وقت وفي أي مكان، إلا الأماكن المحرم تلاوة القرآن فيها، كالخلاء وغير ذلك، في أي مكان وأنت ماشي يبارك لك، ويجعل لك بكل حرف عشر حسنات، أجر عظيم لا يخطر على بال المرء، حتى نعلم تقصيرنا ونسأل الله أن يغفر لنا ويرحمنا.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " يَجِيءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ، وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً".(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٤٣)، وأبو داود في "سننه" (٣١٣٨)، والترمذي في "سننه" (١٠٣٦)، والنسائي في "المجتبى" (١٩٥٥)، وابن ماجه في "سننه" (١٥١٤).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٩١٠)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٦/ ٢٣٦)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٨٣٠)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٤١٦) عن عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

(٣) **(حسن)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٩١٥)، والحاكم في "المستدرك" (٢٠٢٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٨٤١)، وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٤٢٥).

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١)

هل تتخيل أنت تصريف الأقلام وهي تكتب اسمك يا عبد الله في الملأ الأعلى أن الله جل جلاله يذكرك، عندما تذكره وتقرأ القرآن الله يذكرك فيمن عنده، **وعن طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْصَى؟ فَقَالَ: «لاَ»، فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الوَصِيَّةُ أَوْ أُمِرُوا بِالوَصِيَّةِ؟ قَالَ: «أَوْصَى بِكِتَابِ اللهِ»**(٢)

و عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٩٩)، والترمذي في "سننه" (٢٩٤٥)، وابن ماجه في "سننه" (٢٢٥)، وأحمد في "مسنده" (٧٤٢٧)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٦٨).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٤٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٣٤).

الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. (١)

وإذا قرأت القرآن وحدث لك أخطاء في التلاوة وتحاول تصحح وتضبط التشكيل وتخطئ أحيانـاً في أحكام التجويد فلك أيضـاً أجر، **فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ».** (٢)

وربك يستمع لك وأنت تقرأ القرآن، **فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ».**

بالله عليك لو قيل لك أن رئيسك الذي تحبه مثلاً، أو مسؤول كبير جداً أنت توقره، أنت تقرأ القرآن وهو يحب أن يسمع لتلاوتك، لو جاء إليك وقال أنا أحب أن أسمع تلاوتك، ولله المثل الأعلى ربك يستمع لتلاوتك، **«مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ».** (٣)

وكان الرسول يستمع إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **فقد ورد أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي مُوسَى: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠٢٠)، ومسلم في "صحيحه" (٧٩٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٩٣٧)، ومسلم في "صحيحه" (٧٩٨).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠٢٤)، ومسلم في "صحيحه" (٧٩٢).

آلِ دَاوُدَ».(١)

واسمعوا لهذا الحديث وأسأل الله أن يرزقني وإياكم العمل به على أكمل وجه، **عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﵁، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ».**(٢)

فنحن الآن نسأل الله القبول عندما نأتي ونجتمع والله يمن علينا ونفسر آية أو اثنتين فقد رجعت إلى بيتك ومعك بكلِّ آيةٍ نفسرها ناقة، وليست أيَّ ناقةٍ، نُوقٌ مِن أنفس نوق العرب، الواحدة منها في زمنك هذا تتجاوز المليون بكثير جداً، أو تقرأ أو تتعلم أو غير ذلك من مدارسة القرآن الكريم، فترجع بهذا الأجر العظيم.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁، قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «مَا

---

(١) **(متفق عليه)؛** أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠٤٨)، ومسلم في "صحيحه" (٧٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨٠٣)، وأبو داود في "سننه" (١٤٥٦)، وأحمد في "مسنده" (١٧٤٠٨)، وابن حبان في "صحيحه" (١١٥).

أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ».(١)

وكفى فخراً وشرفـًا بأهل القرآن قول الرسول ﷺ **«يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»**.(٢)

والذي ليس في جوفه شيءٌ من القرآن قال عنه ﷺ مثل البيت الخرب، **فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالبَيْتِ الخَرِبِ»**(٣)، وإن كان الحديث فيه ضعف، فمعناه صحيح، يعني ينبغي علينا أن نحفظ القرآن، فالله تعالى شَرَّفَ هذه الأمة بحفظ كتابه، وما عَلَّمَ أُمَّةً مِن الأمم تحفظ كتابها بمثل أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، فسائرُ الأمم حَرَّفَتْ كتبَها، أما نحن بفضل الله فالكُلُّ يحفظ كتاب الله،

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٧٠١)، والترمذي في "سننه" (٣٣٧٩)، والنسائي في "المجتبى" (٥٤٢٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٨١٣).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨٠٥)، والترمذي في "سننه" (٢٨٨٣)، وأحمد في "مسنده" (١٧٦٣٧)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢١٥٧) عن النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رضي الله عنه، به.

(٣) **(ضعيف)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٩١٣)، وأحمد في "مسنده" (١٩٤٧)، والحاكم في "المستدرك" (٢٠٣٧)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٩/ ٢٣٢)، وضعفه الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب" (٨٧١).

الصغيرُ والكبيرُ، وهذا مصداق قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وأول من جهر بالقرآن هو عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما روى ذلك الإمام أحمد في مسنده مرسلاً **فعن يَحْيَى بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: اجْتَمَعَ يَوْمًا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: وَاللهِ مَا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجْهَرُ لَهَا بِهِ قَطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمُوهُ؟ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «أَنَا»، قَالُوا: إِنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الْقَوْمِ إِنْ أَرَادُوهُ، قَالَ: «دَعُونِي فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَمْنَعُنِي» قَالَ: فَغَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضُّحَى، وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهَا فَقَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ، ثُمَّ قَالَ: " بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَافِعًا صَوْتَهُ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قَالَ: ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَأُ فِيهَا " قَالَ: وَتَأَمَّلُوا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: مَا يَقُولُ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ؟ قَالَ: ثُمَّ قَالُوا: إِنَّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ فِي وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَبْلُغَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثَّرُوا فِي وَجْهِهِ، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي خَشِينَا عَلَيْكَ قَالَ: «مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللهِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمُ الْآنَ، وَلَئِنْ شِئْتُمْ لَأُغَادِيَنَّهُمْ بِمِثْلِهَا»، قَالُوا: حَسْبُكَ فَقَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ**(١)

وصح أن النبي ﷺ قام يصلي الصبح بنخلة، فقرأ سورة **الرحمن** ومر النفر من

(١) أخرجه أحمد في "فضائل الصحابة" (١٥٣٥)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١١١).

الجن فآمنوا به.(١)

مولانا يقول: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ بعض السادة العلماء التمس لطيفةً فقال "جاء بالعلم قبل الخلق، قالوا لأن الله تعالى علم القرآن وهذا القرآن هو الدستور الذي فيه صلاح الإنسان، فلذلك علمه الله تبارك وتعالى وأخبر أن العلم قبل الخلق، ولا شك أن الله تعالى خلق آدم أولاً، ثم عَلَّمَه أسماءَ كُلِّ شَيءٍ، ولكن ربنا تعالى في هذه الآية يدلك على فضيلة العلم، وخاصةً العلم بالقرآن الكريم، الذي هو

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٩٢١)، ومسلم في "صحيحه" (٤٤٩) **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالَ: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَدَثَ، فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، «وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ»، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}" وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ} وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ** وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١١١).

السبب العظيم الذي يوصل العباد إلى ربهم جل جلاله.(١)

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ بعض السادة الكرام من العلماء قالوا: الإنسان المراد به هنا آدم(٢)، وبعضهم قال هو عام يعني أن الله تعالى خلق جنس الإنسان.(٣)

---

(١) قال المراغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره" (٢٧/ ١٠٦) ولما كانت هذه السورة لتعديد نعمه التي أنعم بها على عباده–قدّم النعمة التي هي أجلّها قدرا وأكثرها نفعا، وأتمها فائدة، وهي نعمة تعليم القرآن الكريم، فباتباعه تكون سعادة الدارين، وبالسير على نهجه تنال الرغائب فيهما وهو سنام الكتب السماوية، وقد نزل على خير البرية.

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٦٨) عن قتادة. وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢١/ ١٣٤) و"معالم التنزيل" للبغوي (٧/ ٤٣٨).

وقال الثعلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الكشف والبيان" (٢٥/ ٢٨٨) قال ابن عباس – رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا –وقتادة: يعني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ١٦٨) وقال آخرون: بل عنى بذلك الناس جميعا، وإنما وحد في اللفظ لأدائه عن جنسه، كما قيل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ٢] والقولان كلاهما غير بعيدين من الصواب لاحتمال ظاهر الكلام إياهما.

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "النكت والعيون" (٥/ ٤٢٣) فيه قولان: **أحدهما:** يعني آدم، قاله الحسن وقتادة. **الثاني:** أنه أراد جميع الناس وإن كان بلفظ واحد، وهو قول الأكثرين.

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٣٨): "وقال الآخرون: "الإنسان" اسم جنس، وأراد به جميع الناس "علمه البيان" النطق والكتابة والفهم والإفهام، حتى عرف ما يقول وما يقال له، هذا قول أبي العالية وابن زيد والحسن."

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في"المحرر الوجيز"(٥/ ٢٢٣)«الإنسان»اسم الجنس، حكاه الزهراوي وغيره.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي: التبيين عما في ضمير المرء[١]، وهذا شاملٌ للتعليم بالكتابة، والتعليم بالكلام، والتعليم بالإشارة، ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١٠ - ١١]، فالإشارة المفهومة كلام، كما جاء بالحديث عَنْ أَبِي الرِّجَالِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أُمَّهُ عَمْرَةَ بِنْتَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَتْ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَقُولُ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ، عَالِيَةٍ أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ: «أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» قَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبَّ.[٢]

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ جَارًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَارِسِيًّا كَانَ طَيِّبَ الْمَرَقِ - يعني جزار يصنع طعاماً طيباً[٣]، فَصَنَعَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ: «وَهَذِهِ؟» لِعَائِشَةَ،

---

(١) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في "المحرر الوجيز" (٤/ ٤٤٣) وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير.

وقال عطية سالم رَحِمَهُ اللَّهُ في "تتمة أضواء البيان" (٧/ ٤٩٠) وقوله -جل وعلا -في هذه الآية الكريمة علمه البيان التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما في الضمير. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أنه علم الإنسان البيان قد جاء موضحا في قوله تعالى: فإذا هو خصيم مبين.

وينظر "تيسير الكريم الرحمن" (٨٢٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٠٥)، ومسلم في "صحيحه" (١٥٥٧).

(٣) قال المباركفورى رَحِمَهُ اللَّهُ في " تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي " (٥/ ٤٥٦) قال في

فَقَالَ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا»، فَعَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَهَذِهِ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا»، ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَهَذِهِ؟»، قَالَ: نَعَمْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَامَا يَتَدَافَعَانِ حَتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ(١)

فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعم الله تعالى على عباده، والحمد لله الكريم، وكذلك ممكن تكتب رسالة تبين عنك وترسلها إلى أقصى البلاد، وهذا من فضل الله على العباد أيضـًا.

ومن البيان الإشارة المفهومة، ومن أهل العلم من قال الإشارة المفهومة في الطلاق تعتبر طلاقـًا.(٢)

قال الله ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾ تبارك الله الذي جعل الكون كله بحساب، مقنن مقدر لا يسبق شيء شيئا، ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝٣٧ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا**

=القاموس المرق بالتحريك هو من الطعام معروف والمرقة أخص انتهى ويقال لها بالفارسية شوربا.

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٠٣٧)، وأحمد في "مسنده " (١٣٨٦٩)، وابن حبان في "صحيحه" (٥٣٠١)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٢٩٠).

(٢) قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في "فتح الباري" (٩/ ٤٣٨) قال ابن بطال ذهب الجمهور إلى أن الإشارة إذا كانت مفهمة تتنزل منزلة النطق وخالفه الحنفية في بعض ذلك.

و ينظر "نهاية المطلب" للجويني (١٤/ ٧٢)، و"العزيز شرح الوجيز" للرافعي (٨/ ٥٣٥).

أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠]، وقال الله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، أي الشمس والقمر بحسابٍ مُقَدَّرٍ مُقَنَّنٍ، وما في شيء بالكون كله إلا جعله الله بحساب.(١)

سبحان الله أنت عندما ترى ملايين المجرات تدور ولا يتصادم بعضها ببعض، والطائرات التي يصنعها الآدميون والسيارات تتصادم، أما صنع الله جل جلاله فأتقن الله صنعه عز وجل.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ بعض أهل العلم قالوا النجم الذي نراه، يسجد لله تعالى، لقوله جل ذكره ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

إذاً المراد بالنجم هنا النجم الذي في السماء، يسجد لله عز وجل، أما لو سألت كيف يسجد؟ الله أعلم به، لم يخبرنا الله بها إلا في قوله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، كما قال ابن جرير

---

(١) ينظر "الوسيط" (٤/ ٢١٧) للواحدي، و "التفسير الكبير" للرازي (٢٩/ ٧٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١١٤)، "معاني القرآن" (٣/ ١١٢) للفراء.

الطبري أن ظلال هذه الأشياء تسجد لله رب العالمين.(١)

الإمام ابن كثير وغيره من أهل العلم قالوا: النجمُ هو ما نَجَمَ مِن الأرض، يعني ما ليس له ساق، قال الله والشجر يعني ما له ساق، والنجم ما ليس له ساق، مثل البرسيم والفول وما شابه ذلك، ما نجم أي ما ظهر من الأرض، وهذا تعبير صحيح وتأويله صحيح.(٢)

ولا مانع من شمول المعنيين أي أن النجم في السماء يسجد لله رب العالمين،

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في " جامع البيان" (٢٢/ ١٧٤) وقال آخرون: عنى بالنجم في هذا الموضع: نجم السماء وأخرجه عن مجاهد وقتادة. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٢٤)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ١٠٧).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في " جامع البيان" (٢٢/ ١٧٣) قال بعضهم: عنى بالنجم في هذا الموضع من النبات: ما نجم من الأرض، مما ينبسط عليها، ولم يكن على ساق مثل البقل ونحوه وأخرجه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وسعيد والسدي وسفيان.

وقال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ في "البسيط" (٢١/ ١٣٥) قال عامة أهل اللغة والمفسرين: النجم: النبت على الأرض ليس له ساق، والشجر: ما كان على ساق، يبقى شتاء والنجم لا يبقى على الشتاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٨٩) وقوله: {والنجم والشجر يسجدان} قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: {والنجم} بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض - يعني من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدي، وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكذلك ما نجم من الأرض مِنَ الزروع تسجد لله رب العالمين.[(١)]

والعجب العجاب من هذا الإنسان الذي علَّمه ربُّ العزة البيان وبصَّره وفضَّله وشرَّفه، لا يسجد لله تعالى، لذلك قال ربنا تعالى ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ: ١٣].

﴿**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾ فهذه المخلوقات العظيمة تسجد لله تعالى وتعرف ربها وتوحده ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ [النور: ٤١].

قال الله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**﴾ الله تعالى رفع السماء رِفْعَةً عظيمة، وفي بعض الأحاديث وفيها ضعف أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، سبحان الله، **فعَنْ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْبَطْحَاءِ، فَمَرَّتْ سَحَابَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: السَّحَابُ، قَالَ: «وَالْمُزْنُ» قُلْنَا: وَالْمُزْنُ، قَالَ: «وَالْعَنَانُ»، قَالَ: فَسَكَتْنَا، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قَالَ: قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ**

---

(١) قال الثعلبي في "الكشف والبيان" (٢٥/ ٢٩٥) ويجوز أن يريد بهما الأمرين.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في " تيسير الكريم الرحمن" (٨٢٨) ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ أي: نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخشع وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

سَنَةٍ، وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ رُكَبِهِنَّ وَأَظْلافِهِنَّ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ».[١]

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ الميزان يعني العدل[٢]،وقيل أنه هو الميزان الذي يوزن به الناس نزل من السماء[٣]، وأيضاً هو الميزان الذي في الآخرة وتوزن به أعمال العباد، أنزله الله جل جلاله.[٤]

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٢٠)، وأحمد في "مسنده" (١٧٧٠)، وأبو يعلى في "مسنده" (٦٧١٣)، والحاكم في "المستدرك" (٣١٣٧)، والعقيلي في "الضعفاء" (٢/ ٢٨٤)، وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع " (٦٠٩٣).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ١٧٧) يقول: ووضع العدل بين خلقه في الأرض وأخرجه عن مجاهد.

وقال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ في "النكت والعيون" (٥/ ٤٢٤) الثالث: قاله قتادة، ومجاهد، والسدي: أنه العدل.، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١١٦)

(٣) وقال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ في "النكت والعيون" (٥/ ٤٢٤) فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه الميزان ذو اللسان ليتناصف به الناس في الحقوق، قاله الضحاك. الثاني: أن الميزان الحكم.

وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي(٨/ ١٠٧).

(٤) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١١٧) وقيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال وينظر "اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٨/ ٣٠١).

وجوب العدل وتحريم الظلم:

الله عز وجل أمر بالعدل، وبعض الناس يقول دين الإسلام دين المساواة، وهذا خطأ بل هو دين العدل، دينٌ يُعطي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ، ويُعطي كُلَّ ذي فَضْلٍ فَضْلَهُ، ولذلك ما مِن إنسانٍ يقيم العدل إلا ويثبت الله مُلْكَهُ وإن كان يسيراً، ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥]، الكتاب الحجج الباهرات، والدلائل القاطعات على وحدانية رب الأرض والسماوات، وأنزل أيضـاً مع هذه الحجج والعلم الميزان، وقال بعدها مباشرة ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحديد: ٢٥]، إذاً حتى يَستَتِبَّ المُلكُ للمَلِكِ العادل لا بدَّ له مِن عِلْمٍ قرآنٍ وسُنَّةٍ لا تستقيم الدنيا بجانب واحدٍ منهما.

ورسول الله ﷺ الذي هو أرحم عباد الله بعباد الله لمَّا سَرَقَتْ امرأةٌ شريفةٌ مِن أشراف قريشٍ مِن بني مخزوم كما ورد في الصحيح **عَنْ عَائِشَةَ،** رضي الله عنها**: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمُ المَرْأَةُ المَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا».**(١)

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٧٨٨)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٨٨).

هو ﷺ الذي كان أرحمَ بالأمة، حتى وصفه الله بقوله ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال لما زنا ماعز رضي الله عنه كما في حديث **ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ: «أَحَقٌّ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ؟» قَالَ: وَمَا بَلَغَكَ عَنِّي؟ قَالَ: «بَلَغَنِي أَنَّكَ وَقَعْتَ بِجَارِيَةِ آلِ فُلَانٍ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ.**(١)، والمجرمون الكفرة يتعلقون بهذا ويقولون الدين فيه قسوة، نقل لهم والله ما عرفت القسوة بمثل ما عرفت عندكم، هذا عدل أقيم في الأمة، ولو أقيم مثل هذا في الأمم لعاش الناس في أمن وأمان، **وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَهْطًا مِنْ عُكْلٍ، أَوْ قَالَ: عُرَيْنَةَ، وَلاَ أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ: مِنْ عُكْلٍ، قَدِمُوا المَدِينَةَ «فَأَمَرَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِلِقَاحٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا» فَشَرِبُوا حَتَّى إِذَا بَرِئُوا قَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَاسْتَاقُوا النَّعَمَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ غُدْوَةً، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي إِثْرِهِمْ، فَمَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ حَتَّى جِيءَ بِهِمْ «فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، فَأُلْقُوا بِالحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلاَ يُسْقَوْنَ» قَالَ أَبُو قِلاَبَةَ: «هَؤُلاَءِ قَوْمٌ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ».**(٢)

فربنا أمرنا يا إخواني بالعدل ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ [النحل: ٩٠]، فلا نجور، فالظلم حرامٌ في تعاملاتك سواء كنت والداً أو رئيساً أو مديراً، فلا شك أن الظلم

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٨٢٤)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٩٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٨٠٥)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٧١).

ظلماتٌ يوم القيامة، كما روى **عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ، وَعَلَى عِبَادِي، أَلَا فَلَا تَظَالَمُوا. كُلُّ بَنِي آدَمَ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ وَلَا أُبَالِي»**.(١)

وكفى بالعادلين شرفًا قول رسول الله ﷺ، **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»**.(٢)

وفي الحديث **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ "**.(٣)

وفي الصحيحين **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ، يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ، وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ، كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ، وَإِنْ**

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٥٧٧)، والبخاري في "الأدب المفرد" (٤٩٠)، وأحمد في "مسنده" (٢١٤٢٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٦١٩).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٥٧٧)، والنسائي في "المجتبى" (٥٣٧٩)، وفي "الكبرى" (٥٨٨٥)، وأحمد في "مسنده" (٦٤٩٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٤٨٤)

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٦٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٣١).

يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ»(١)

ولذلك الرسول ﷺ قال **" وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ "**.(٢)

وكذلك العدل في الأسرة الواحدة، **فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ أَنْحَلَنِي: أَبِي نُحْلًا، قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ سَالِمٍ: مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ نِحْلَةً غُلَامًا لَهُ، قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ: أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ ائْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَشْهِدْهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَشْهَدَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي النُّعْمَانَ نُحْلًا وَإِنَّ عَمْرَةَ سَأَلَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: فَقَالَ: «أَلَكَ وَلَدٌ سِوَاهُ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَكُلَّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَ النُّعْمَانَ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: فَقَالَ: بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمُحَدِّثِينَ،" هَذَا جَوْرٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «هَذَا تَلْجِئَةٌ فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي» قَالَ مُغِيرَةُ: فِي حَدِيثِهِ «أَلَيْسَ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا لَكَ فِي الْبِرِّ وَاللُّطْفِ سَوَاءٌ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي» وَذَكَرَ مُجَالِدٌ فِي حَدِيثِهِ «إِنَّ لَهُمْ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تَعْدِلَ بَيْنَهُمْ كَمَا أَنَّ لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يَبَرُّوكَ» قَالَ أَبُو**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٩٥٧)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٤١).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٦٥)، والنسائي في "الكبرى" (٨٠١٦)، وأحمد في "مسنده" (١٨٣٤٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٥٣) **عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: " أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا... وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، ...الحديث.**

دَاوُدَ: فِي حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ بَعْضُهُمْ: «أَكُلَّ بَنِيكَ»، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «وَلَدِكَ» وَقَالَ ابْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، فِيهِ: «أَلَكَ بَنُونَ سِوَاهُ»، وَقَالَ أَبُو الضُّحَى، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: «أَلَكَ وَلَدٌ غَيْرُهُ»(١)

وهذا الحديث له فِقْهٌ، هل المعنى أني أسوي بين أولادي في النفقة، فمثلاً من كان في المرحلة في الابتدائية من التعليم كمن كان في المرحلة الإعدادية، كمن كان في الجامعة؟

الجواب: لا، ليس هذا مقصود الحديث، إنما الواجب أن تعطي كل واحد منهم ما يكفيه، هذا عدل.

وقد فَصَّلَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة تفصيلاً جيداً حيث قال: وإذا سوى بين أولاده في العطاء ليس له أن يرجع في عطية بعضهم، والحديث والآثار تدل على وجوب التعديل بينهم في غير التمليك أيضاً وهو في ماله ومنفعته التي ملكهم والذي أباحهم كالمسكن والطعام ، ثم هنا نوعان: نوعٌ يحتاجون إليه من النفقة في الصحة والمرض ونحو ذلك فتعديله فيه أن يعطي كل واحد ما يحتاج إليه.

ولا فرق بين محتاج قليل أو كثير.

ونوعٌ تشترك حاجتهم إليه مِن عطيةٍ أو نفقةٍ أو تزويجٍ؛ فهذا لا ريب في تحريم

---

(١) **(صحيح إلا زيادة مجالد: " إن لهم ... ")** أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٥٤٢)، وأحمد في "مسنده" (١٨٣٧٨)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٢٠٠٢)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٣٥٤٢).

التفاضل فيه. وينشأ من بينهما نوعٌ ثالثٌ، وهو أن ينفرد أحدُهما بحاجةٍ غيرِ معتادةٍ، مثل أن يقضي عن أحدهما ديناً وجب عليه مِن أرشِ جنايةٍ أو يعطي عنه المهر، أو يعطيه نفقة الزوجة ونحو ذلك، ففي وجوب إعطاء الآخر مثل ذلك نَظَرٌ، وتجهيز البنات بالنِحَلِ أشبه، وقد يُلحق بهذا، والأشبه أن يقال في هذا أنه يكون بالمعروف، فإن زاد على المعروف فهو مِنْ بابِ النِحَلِ، ولو كان أحدهما محتاجاً دون الآخر أنفق عليه قَدْرَ كفايته.

وأما الزيادة فمن النِحَلِ، فلو كان أحد الأولاد فاسقاً، فقال والده: لا أعطيك نظير إخوتك حتى تتوب، فهذا حَسَنٌ يتعين استثناؤه، وإذا امتنع من التوبة فهو الظالم، فإن تاب وجب عليه أن يعطيه [1] فذلك هو العدل، **وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ».**[2]

لذلك ربنا تعالى يقول: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**﴾ يعني لا تجور ولا تظلم، وكم مِن ظالمٍ له الويلُ عند الله عز وجل، والله لا يحب الظالمين، وقال ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**﴾ [إبراهيم: ٤٢].

---

(١) ذكره ابن تيمية في " الفتاوى الكبرى " (٥/ ٤٣٤).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٦٨٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٧١٣).

وصدقت هذه المقالة الجليلة " إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة".[١]

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ يعني أقيموا الوزن بالعدل ولا تبخسوا الميزان، ولا تغشوا في الميزان.[٢]

قال الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي أن الله جلَّ جلالُه وتباركت أسماؤه كما رفع السماء فهو سبحانه وضع الأرض للأنام، أي وضعها للخلق كي يستقروا عليها، وجعلها مُمَهَّدةً، وجعلها قَارَّةً لهم يستطيعون الذهاب والإياب، والحرث والزراعة وغير ذلك من المنافع التي ينتفع بها الخلق على هذه الأرض بفضل الله عز وجل.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ وهذه من نعم الله تعالى، فأول ما خلق الله الأرض جعلت تميد بأهلها وتضطرب، فخلق الله الجبال فأرساها، قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ

---

(١) ينظر "مجموع الفتاوى" (٢٨/ ١٤٦).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٠) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: خلق السماوات والأرض بالحق والعدل، لتكون (الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال [تعالى] ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء: ١٨٢]

وانظر "التسهيل لعلوم التنزيل" (٢/ ٣٢٧)، و"معالم التنزيل" (٧/ ٤٤٢).

أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، سبحانه وبحمده.[١]

﴿**فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ**﴾ أي أن هذه الأرض جعل الله فيها الأمور النافعة والعظيمة للعباد من الفاكهة اللذيذة من رمان وموز وبرتقال وتفاح، أصناف وفاكهة شتى ينتفع بها العباد بفضل الله تبارك وتعالى، وخصَّ النخل لشرفه ﴿**فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ**﴾ والنخل ثمره الرطب، هذا من الفاكهة؛ ولكن ربنا تعالى خص النخل لعظيم نفعه، ففي الصحيح **عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ** رضي الله عنهما، **يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **«إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَقَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النَّخْلَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا.**[٢]

﴿**فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ**﴾ ذات الأكمام يعني ذات الطلع، والكمامة

---

(١) قال الخطيب الشربيني رحمه الله في " السراج المنير " (٤/ ١٦٠) ﴿وضعها﴾ أي: دحاها وبسطها على الماء ﴿للأنام﴾ أي: كل من فيه قابلية النوم أو قابلية الونيم وهو الصوت.

وقال ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٢٥) واختلف الناس في: «الأنام» فقال ابن عباس فيما روي عنه هم بنو آدم فقط. وقال الحسن بن أبي الحسن: هم الثقلان: الجن والإنس. وقال ابن عباس أيضا وقتادة وابن زيد والشعبي: هم الحيوان كله.

وانظر "التفسير الكبير"للرازي (٢٩/ ٨٢).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣١)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨١١).

أيضا ما يكم به فم البعير لئلا يعض.[١]

وذكر أهل السير عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: كَتَبَ قَيْصَرُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أُخْبِرُكَ أَنَّ رُسُلِي أَتَتْنِي مِنْ قَبْلِكَ، فَزَعَمَتْ أَنَّ قِبَلَكُمْ شَجَرَةً لَيْسَتْ بِخَلِيقَةٍ لِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ، تخرج مثل آذَانِ الْحَمِيرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ، ثُمَّ تَخْضَرُّ فَتَكُونُ مِثْلَ الزُّمُرُّدِ الْأَخْضَرِ، ثُمَّ تَحْمَرُّ فَتَكُونَ كَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ، ثُمَّ تَنِعُ وَتَنْضُجُ فَتَكُونُ كَأَطْيَبِ فَالَوْذَجٍ أُكُلَ، ثُمَّ تَيْبَسُ فَتَكُونُ عِصْمَةً لِلْمُقِيمِ وَزَادًا لِلْمُسَافِرِ، فَإِنْ تَكُنْ رُسُلِي صَدَقَتْنِي فَلا أَرَى هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلا مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مِنْ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّوْمِ، إِنَّ رُسُلَكَ قَدْ صَدَقُوكَ، هَذِهِ الشَّجَرَةُ عِنْدَنَا، وَهِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي أَنْبَتَهَا اللهُ عَلَى مَرْيَمَ حِينَ نَفَسَتْ بِعِيسَى ابْنِهَا، فَاتَّقِ اللهَ وَلا تَتَّخِذْ عِيسَى إِلَهًا مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٥٩ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠].[٢]

فالمقصود أن الأكمام هو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بُسْراً

---

(١) قال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ في "معاني القرآن وإعرابه" (٥/ ٩٧).

معنى (الأكمام) ما غطى وكل شجرة تخرج ما هو مكمم فهي ذات أكمام.

وقال الواحدي رَحِمَهُ اللهُ في "البسيط" (٢١/ ١٤٢) والمفسرون على أن الأكمام أوعية الثمر كما ذكرنا، قال الليث: ولكل شجرة مثمرة كم، وهو برعومه. وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (٩/ ٣٤٣).

(٢) أخرجه أبن أبي حاتم في "تفسيره" (١٨٧٢٢)، وابن الأعرابي في "معجمه" (١١٤٠)، وابن المقري في "معجمه" (٨٧٦)، وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٧/ ٤٩٠).

ثم رطبًا، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُهُ واستواؤه.(١)

قال ربنا تعالى: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ الحب معروف مثل الحنطة والذرة والشعير وغير ذلك من الحبوب(٢)، ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني التبن، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس.(٣)

والريحان هو من النباتات التي يخرجها الله من الأرض ولها رائحة كريمة، طيبة، لأن الناس يتروحون هذه الرائحة الطيبة.(٤)

وبعض العلماء قال ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٠) وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسرا ثم رطبا، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه.

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ١٨٣) الحب، وهو حب البر والشعير ذو الورق. وينظر "التفسير الكبير" (٢٩/ ٨٤).

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ١٨٣) والتبن: هو العصف وأخرجه عن ابن عباس العصف: ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه فهو يسمى العصف إذا يبس. وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ١٠٨)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٧/ ٤٤٣).

(٤) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ١٨٦) وقال آخرون: هو الريحان الذي يشم وأخرجه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والضحاك والحسن وابن زيد وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ١٠٩)، و"النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٢٦).

يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتن على عباده بالقوت والرزق، عموما وخصوصا.(١)

فربنا تعالى يُعَدِّدُ آلاءه على عباده، ونبينا ﷺ قال في الريحان كما روى **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ»**.(٢)

وقال عن الحسن والحسين: **"هما ريحانتاي من الدنيا"**.(٣)

وقال عن المنافق الذي يقرأ القرآن **"مثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر"**.(٤)

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ١٨٥) فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: هو الرزق وأخرجه عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، وقال البغوي في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٤٣) ﴿والريحان﴾، هو الرزق في قول الأكثرين. وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ١٠٨)، و"النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٢٥٣)، وأبو داود في "سننه" (٤١٧٢)، والنسائي في "المجتبى" (٥٢٥٩)، وفي "الكبرى" (٩٣٥١)، وأحمد في "مسنده" (٨٢٦٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٥١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٧٥٣)، والترمذي في "سننه" (٣٧٧٠)، والنسائي في "الكبرى" (٨٤٧٧)، وأحمد في "مسنده" (٥٥٦٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٩٦٩) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نُعْمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

(٤) **(صحيح)** وتقدم تخريجه.

قال تعالى: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ هذا تبكيت لهم، يعني يا معشر الجن والإنس بأي نعم الله تكذبون؟[١] جعل لكم الأرض تستقرون عليها، وجعل لكم فيها فواكه لذيذة شهية، وشتى صنوف الفواكه فيها، فبأي نعم ربكم تكذبون؟[٢]

وهناك حديث فيه خلافٌ، حَسَّنَهُ بعضُ العلماء، وضعفه بعضهم، وقد حسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ، **عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا، فَقَالَ: " لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ لَيْلَةَ الجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الحَمْدُ.**[٣]

وأخرج ابن جرير الطبري -رَحِمَهُ اللهُ- **عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قال: إن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن، أو قُرئت عنده، فقال " ما لِيَ أَسْمَعُ الجنّ أَحْسَنَ جَوَابا لِرَبِّها مِنْكُمْ؟ " قالوا: ماذا يا رسول الله؟ قال: " ما أَتَيْتُ على قَوْلِ اللهِ: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟ إلا**

---

(١) قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ في "التحرير والتنوير" (٢٧/ ٢٤٦) هذا توبيخ على عدم الاعتراف بنعم الله تعالى، جيء فيه بمثل ما جيء به في نظيره الذي سبقه ليكون التوبيخ بكلام مثل سابقه، وذلك تكرير من أسلوب التوبيخ ونحوه أن يكون بمثل الكلام السابق، فحق هذا أن يسمى بالتعداد لا بالتكرار، لأنه ليس تكريرا لمجرد التأكيد.

(٢) ينظر "معالم التنزيل" (٧/ ٤٤٣)، و"تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩١).

(٣) **(حسن)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٢٩١)، والحاكم في "المستدرك" (٣٧٦٦)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢٢٦٤)، وحسنه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٨٦١).

قالت الجنّ: لا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّنا نُكَذِّبُ".[١]

ولا شك أن العبد مُطَالَبٌ أن يتفاعل مع كتاب الله وأن يتأثر، وابن كثير قال "فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: " اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد ".[٢]

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ باتفاق أهل التفسير أن

(١) **(ضعيف)** أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٩٠)، وابن أبي الدنيا في "الشكر" (٦٨) وضعفه الشيخ مصطفى العدوي في "التسهيل لتأويل التنزيل" جزء الذاريات ـ (٢٩٣) عن نافع، **عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن، أو قرئت عنده، فقال: «ما لي أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم؟» قالوا: ماذا يا رسول الله؟ قال: " ما أتيت على قول الله: فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ إلا قالت الجن: لا بشيء من نعمة ربنا نكذب.**

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩١) فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: "اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد". وكان ابن عباس يقول: "لا بأيها يا رب". أي: لا نكذب بشيء منها.

المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام(١)، والله تعالى ذكر آدم وذكر خلقه في غير ما آية، يعني ذكر أن الله تعالى خلقه من تراب، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وكذلك قوله جل ذكره ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وكذلك قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

فهنا بدء الخلق كان من تراب، ثم بعد ذلك هذا التراب خلط بالماء فصار طينـًا، ولذلك ربنا جل جلاله يقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

وقال ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، لازب يعني منتن متغير الرائحة أسود.(٢)

---

(١) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٢٥) باتفاق من أهل التأويل - يعني آدم -. وينظر "الكشف والبيان" للثعلبي (٢٥/ ٣٠٨)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ١١٠)، و"النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٢٨).

(٢) قال البغوي رحمه الله في "معالم التنزيل" (٧/ ٣٥) ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] يعني: جيد حر لاصق يعلق باليد، ومعناه اللازم، أبدل الميم باء كأنه يلزم اليد. وقال مجاهد والضحاك: منتن. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٨/ ١٨).

ثم تُرِك الطين حتى تحجَّر فصار حمأً مسنون، والصِلصال هو الذي أوقد عليه النار، يعني طين طبخ بالنار فيصير له صوت إذا نقر عليه.(١)

كذلك يقول الله تعالى ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ** ﴾ مارج يعني من طرف النار، والمارج هو المختلط، ولذلك بعض أهل العلم قالوا طرف النار فيها أخضر وأحمر وأبيض.(٢)

---

(١) قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ في "معاني القرآن وإعرابه" (٥/ ٩٨) قوله عز وجل: ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾** ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾** ﴾، وقال: ﴿ **مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾** ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ** ﴾ [آل عمران: ٥٩].، وهذه الألفاظ التي قال الله عز وجل إنه خلق الإنسان منها مختلفة اللفظ وهي في المعنى راجعة إلى أصل واحد، فأصل الطين التراب، فأعلم الله – عز وجل – أنه خلق آدم من تراب جُعِل طيناً ثم انتقل فصار كالحمأ ثم انتقل فصار صلصالا كالفخار، والصلصال اليابس، فهذا كله أصله التراب وليس فيه شيء ينقض بعضه بعضا، وإنما شرحنا هذا لأن قوما من الملحدين يسألون عن مثل هذا ليلبسوا على الضعفة، فأعلم الله – عز وجل – من أي شيء خلق أبا الإنس جميعا آدم. ونحوه قال القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٢٦).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ١٩٤) يقول تعالى ذكره: وخلق الجان من مارج من نار، وهو ما اختلط بعضه ببعض، من بين أحمر وأصفر وأخضر، من قولهم: مرج أمر القوم: إذا اختلط، ومن **قول النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو: «كيف بك إذا كنت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم»** وذلك هو لهب النار ولسانه. أخرجه عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد.

وهنا الاتباع لكتاب الله، وتعظيم أمر الله، هو الأصل، و اتباع العقل في مقابلة النقل ومعارضته، يؤدي للضلال والانحراف والكفر عياذاً بالله، فإبليس ـ لعنه الله ـ قال لرب العزة: ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾ [الإسراء: ٦١] وقال: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ [ص: ٧٦]، يظن أن النار أفضل وأنه أحسن من آدم، وأنه هو الذي يستحق أن يسجد له، ولكن رب العزة جل جلاله شرف آدم وفضله، ولذلك أمر الله تعالى إبليس أن يسجد لآدم، ولذلك أهل العلم قالوا الطين فيه صفات جليلة من الرزانة، ونحوها، وقد جمعها الله تعالى في آدم بصفات الخير كلها، وأما النار ففيها صفات الطيش، والإحراق، والعذاب وغير ذلك.(١)

رب العزة جل جلاله يقول: ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ يعني فبأي نعمة من نعم الله تكذبون؟ فهو الذي خلق الجن وخلق الإنس سبحانه جل جلاله، ونحن نقول اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، كما صح عن ابن عباس.(٢)

ولا زال مولانا يعدد آلاءه وإحسانه فقال: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾

=وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (١١/ ٥١)، و"لسان العرب" لابن منظور (٢/ ٣٦٦)، و"تاج العروس" للزبيدي (٦/ ٢٠٩).

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " (٢٨٤).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩١) وكان ابن عباس يقول: "لا بأيها يا رب". أي: لا نكذب بشيء منها.

عندنا مثل هذه الآية ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ قال أهل العلم يعني جنس المشرق والمغرب، هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه.(١)

وبعضهم قال يعني مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء.

إذاً الجمع بين الآيات يكون على اختلاف مشرق الشمس كل يوم، ومغربها كل يوم، أو على جمع هذه الكواكب العظيمة التي هي في السماء الشمس والقمر والنجوم لها مشارق ولها مغارب.(٢)

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ وعندما يدرك الإنسان عظمة هذه الآيات والله تزيده هدى وإيمانـًا، فربك الذي خلق بدأ السورة باسمه الرحمن الذي علم القرآن، ثم ذكر خلق الإنسان، ثم يقول لك الكون كله بحساب، ثم يخبرك أن الكون كله يسجد له، ويخبرك أنه أنزل الميزان يعني العدل، ثم يخبرك أنه وضع الأرض ومهَّدها لكم، ثم يقول لكم جعلت لكم من المنافع فيها الشيء العظيم، ومن هذه المنافع الفواكه التي يتفكه بها العباد، ثم يذكرك ببدء خلقك، خلقك من صلصال، وخلق الجن من النار،

---

(١) أورده ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٢)، والسعدي في " تيسير الكريم الرحمن" (٨٣٠).

(٢) قاله الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٩٧) وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٢٩).

ورغم ذلك فضلك يا ابن آدم، ثم يقول لك: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ جل جلاله، فحري على العبد أن يلجأ إلى ربه ويستغيث به، وأن يفرده وحده بالعبادة.

ثم قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ يعني أرسل البحرين يلتقيان، لكن ربنا تعالى قال ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ وهذه من الآيات الباهرة العظيمة، ونحن بحمد لله نعلم هذا جيداً لأننا في مكان يلتقي فيه البحر المالح مع النيل في رأس البر، في مدينة دمياط، بمصر، هذا موطن التقاء النيل بالبحر المتوسط.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ "عُني به بحر السماء، وبحر الأرض، وذلك أن الله قال ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطرْ ماء السماء، فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء".[١]

واعترض عليه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: " وهذا وإن كان هكذا، ليس المراد ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ، والمراد بقوله: البحرين المالح والحلو.

ولله سبحانه حكم عظيمة في جعل مياه البحار مالحة ومياه الأنهار عذبة لعدم فساد الهواء، وانتفاع الناس وغير ذلك.[٢]

---

(١) ذكره الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٠٠ وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٢٩).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٢) والمراد بقوله: {البحرين} الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة "الفرقان" عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [الفرقان: ٥٣] وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد

فربنا جل ذكره يقول ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ بعض السادة العلماء قال: البرزخ هو الحجارة التي بين البحر المالح والنهر العذب(١)، وأطلق على النهر بحر على سبيل التغليب، كما تقول: العمران أبو بكر وعمر، والقمران الشمس والقمر، والأسودان التمر والماء.(٢)

=بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية وابن أبزى.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا."، وينظر "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٢٧)، "التفسير الكبير" (٢٩/ ٨٨).

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٠١) يقول تعالى ذكره: بينهما حاجز وبعد، لا يفسد أحدهما صاحبه فيبغي بذلك عليه، وكل شيء كان بين شيئين فهو برزخ عند العرب، وما بين الدنيا والآخرة برزخ

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٢٧) والبرزخ: الحاجز في كل شيء، فهو في بعض هذه الأقوال أجرام الأرض، قاله قتادة.

(٢) قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ في " المفردات في غريب القرآن " (١٠٩) وقال بعضهم: البَحْرُ يقال في الأصل للماء الملح دون العذب، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ إنما سمي العذب بحرا لكونه مع الملح، كما يقال

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ وعدد من أهل العلم قال بأن البرزخ هو قدرة الله جل جلاله، ونحن نرى هذا حقيقي لأنه ليس هناك حاجز لا شك إنما هي قدرة الله تعالى، التي بها كل شيء يسير، وبها كل شيء يتحرك ويسكن، لا يبغيان يعني لا يبغي هذا على هذا فتفسد الدنيا.

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أكثر أهل التفسير منهما يعني البحر المالح، وإنما قال منهما على سبيل التغليب[1]، ولكن الإمام الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره في "أضواء البيان" قال: اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية يخرج منهما أي من مجموعها الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب".

والحافظ ابن كثير ذكر آثاراً صحيحةً عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "ما سقطت قط قطرة

=للشمس والقمر: قمران، وقيل السحاب الذي كثر ماؤه: بنات بحر.

(١) قال القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٢٩) وقال: (منهما) وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: "يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم" وإنما الرسل من الانس دون الجن، قاله الكلبي وغيره. قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما، وهو كقوله تعالى: "ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن"

وينظر "زاد المسير" (٨/ ١١٣)، "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٢٨)، و "معالم التنزيل" (٧/ ٤٤٥)، "التفسير الكبير" (٢٩/ ٩٠).

من السماء في البحر ، فوقعت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة". (١)

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه، لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَ﴾ فالتنوين في قوله: ﴿مِن كُلٍّ﴾ تنوين عوض أي من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها، وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه".

وهذا القول واضح ظاهر. (٢)

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فعندما تذهب مثلاً إلى رأس البر في مصر، تشاهد هذه الآية بعينك، فالنيل ماءه عذب هاديء، والبحر ماؤه ملحٌ، و أمواجه عاتية، ولا يوجد حاجز حسي نراه، وإنما هي قدرة الله

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٣) قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر، فوقعت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة.

(٢) ذكره الشنقيطي في "أضواء البيان" (٧/ ٥٠٠).

وقال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "التفسير البسيط" (٢١/ ١٥٥) وقال مقاتل: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي من الماءين جميعًا العذب والملح وهذا القول ذكره الأخفش فقال: زعم قوم أنه يخرج من العذب أيضًا.

تعالى الذي يمنع البحر أن يبغي على النهر وهكذا، وكذلك استخراج اللؤلؤ والمرجان، فهذه الآيات يا عبد الله تزيدك إيمانا وتعرفك بربك، الذي خلق فسوى، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى.[١]

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ الجوار يعني السفن العظام التي ترفع قلاعها هذه منشأة،[٢] ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ يعني كالجبال[٣]، وأنت ترى الآن سبحان الله السفن في البحار تمشي سفينة عظيمة محملة بصنوف البضائع والتجارات، وتحمل الناس من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى إقليم، وفي ذلك منافع عظيمة للعباد، وقال غيره : المنشآت - بكسر الشين - يعني البادئات.[٤]

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم الله تكذب أيها العبد الغافل، الذي لا

---

(١) قال الواحدي في "التفسير البسيط" (٢١/ ١٥٥) وأما تفسير اللؤلؤ والمرجان فقال الفراء: اللؤلؤ: العظام، والمرجان: ما صغر وهو قول جميع أهل اللغة في المرجان أنه الصغار من اللؤلؤ. وينظر "زاد المسير" (٨/ ١٣٣).

(٢) قال الرازي في "التفسير الكبير" (٢٩/ ٩١) وَلَهُ الْجَوَارِ أي السفن الجاريات.

وقال الزبيدي في "تاج العروس" (١٠/ ٤٨٤) (و) الجَوَار: السُّفُنُ.

(٣) قال الزمخشري في "الكشاف" (٤/ ٤٤٦) والأعلام: جمع علم، وهو الجبل الطويل.

ونحوه قال الفراء في "معاني القرآن" (٣/ ١١٥).

(٤) قاله ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٣)، ونحوه الفراء في "معاني القرآن" (٣/ ١١٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢١٠).

يذكر لله نعمة، ويكفر بالله تعالى، ما أشد غفلته والله، وصدق من قال:

فوا عجبا كيف يعصى الإله ❁ أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ❁ تَدُلُّ على أنه واحدُ(١)

كُلُّ شيءٍ يدلك على الله.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

قال ربنا تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ هذه الحقيقة التي نحن في غفلة عنها، يا أخي والله لو دامت الدنيا لأحد لدامت لأحب خلق الله ﷺ، إن الله قال له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ما في مخلوق يبقى على وجه الأرض لا إنس ولا جن ولا ملك ولا طير ولا دواب ولا شيء، كل الخلق يفنيهم رب العزة جل جلاله.

وما المستفاد عندما تعلم يقيناً أن كلَّ مَن على وجه الأرض فانٍ؟ لا تتعلق بالدنيا، لماذا الواحد فينا يحزن أشد الحزن إن فاته شيءٌ من الدنيا، مَرَّ معنا في سورة

---

(١) ينظر "ديوان أبي العتاهية" (٥٦)

فيَا عَجَبَا كيفَ يَعصِي الإلهَ ❁❁ أمْ كيفَ يجحدهُ الجاحِدُ

وللهِ فِي كلِّ تحريكَةٍ ❁❁ وفي كلّ تَسكينَةٍ شاهِدُ

وفِي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ ❁❁ تَدُلّ على أنّهُ الواحِدُ

الحديد قوله تعالى﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، ومَنْ أصدقُ مِن الله قيلاً، لكنها الغفلة، ولكنها الذنوب تجعل على قلب العبد الرَّان، حتى لا يعقل كلام ربه عز وجل.

قال الله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، كل إنسان يزين له هذه الأمور، قال الله تعالى ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]، اللهم اجعلنا منهم يا رب.

إذاً يا أخي لا تتشبث بالدنيا، ولا تهلك نفسك من أجلها، بل اجعل لنفسك ورداً يومياً لا تتهاون فيه من الطاعة، مِن صلاةٍ، ومِن قراءة قرآنٍ، ومِن فعلٍ للمعروف، اجعل لنفسك نصيباً تدخره يوم القيامة، والله يا إخواني الغفلة تهلك العبد وتجعله في غفلة ويظن أنه على خير.

بعض السلف يقولون "والله ما ندمت على شيء بمثل ندمي على يوم غربت فيه الشمس نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي".(١)

---

(١) انظر كتاب " قيمة الزمن عند العلماء" لعبد الفتاح أبو غدة (ص: ٢٧) أورده وعزاه لابن مسعود ولم يخرجه.

هذا الذي يحزنهم، لا يحزنهم أنهم فاتتهم التجارة الفلانية، ولا الوظيفة الفلانية، إنما يحزنهم عملٌ فاتهم من أعمال الآخرة، نسأل الله التوفيق والسداد يا رب العالمين.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرؤساء والمرؤوسون، لذلك تعجب غاية العجب من هؤلاء الذين يقاتلون وكأنهم مخلدون في الدنيا، ربك سبحانه ينزع الملك ممن يشاء ويعطيه من يشاء سبحانه، الموت يهدم كل اللذات، لذلك ورد في الحديث **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ»**[(١)] وفي رواية **«أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ»**.[(٢)]

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وهذه الآية يجب علينا أن نعتقد ثبوت صفة الوجه فيها، كما نعتقد ثبوت صفات الله جل جلاله، فنؤمن بصفات الله كما جاءت في القرآن الكريم، وكما جاءت في سنة النبي ﷺ، من غير تكييف ولا تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل.

وأهل البدع أولوا هذه الصفة وقالوا المراد بها الذات[(٣)]، لا شك أن ذات الله

---

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن ماجه في "سننه"(٤٢٥٨)، وابن الأعرابي في "معجمه" (٣٧١)، والبيهقي في "الزهد الكبير" (٦٩٠)، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٦٨٢).

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (١٤٥)، وأحمد في "مسنده" (٧٩٢٥)، والنسائي في "المجتبى"(١٨٢٤)، والترمذي في "سننه" (٢٣٠٧)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٩٢)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٣٣٣).

(٣) قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في "التفسير الكبير"(٢٩/ ٩٣)"الوجه يطلق على الذات...إطلاق لفظ الوجه على الذات نقول إنه مأخوذ من عرف الناس فإن الوجه يستعمل في العرف لحقيقة الإنسان

تبقى، ولكن ربنا وصف نفسه بالوجه في غير ما آية وفي غير ما حديث، مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨]، وقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠]وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩].(١)

=وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ في "الكشاف" (٤/ ٤٤٦) والوجه يعبر به عن الجملة والذات.

ونحوه قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٢٩)، والنسفي في " مدارك التنزيل وحقائق التأويل" (٣/ ٤١٢)، والخازن في " لباب التأويل في معاني التنزيل " (٧/ ٥)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٣٢).

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢١١) ويبقى وجه ربك يا محمد ذو الجلال والإكرام؛ وذو الجلال والإكرام من نعت الوجه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٤) وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه {ذو الجلال والإكرام} أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، وقال الشنقيطي في "أضواء البيان" (٧/ ٥٠١) ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه -جل وعلا -المتصف بالجلال والإكرام -جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: كل شيء هالك إلا وجهه، وقوله تعالى: وتوكل على الحي الذي لا يموت وقوله تعالى: كل نفس ذائقة الموت، إلى غير ذلك من الآيات.

والوجه صفة من صفات الله العلي وصف بها نفسه، فعلينا أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﵁ ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[١] وفي رواية " **حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»**".[٢]

وفي الحديث " **وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**".[٣]

فنؤمن بصفة وجه الله، ونقول: نعم، ربُّنا له وجه، لكن ليس كوجوه المخلوقين، كما جاء في القرآن الكريم، وجاء في سنة النبي ﷺ.[٤]

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٧٨)، والترمذي في "سننه" (٣٢٨٢)، وأحمد في "مسنده" (٢١٣٩٢)، وابن خزيمة في "التوحيد" (٢/ ٥٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٧٩)، وابن ماجه في "سننه" (١٩٥)، وأحمد في "مسنده" (١٩٥٨٧)، وابن حبان في "صحيحه" (٢٦٦).

(٣) **(متفق عليه)**؛أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨٧٩)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٠) **عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، به.**

(٤) قال قوام السنة في " الحجة في بيان المحجة " (١/ ٢١٨) إيقاع اسم الوجه للخالق ليس بموجب تشبيه وجه الخالق بوجوه بني آدم.

وقال ابن خزيمة ﵀ في "التوحيد" (١/ ٢٦) فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن، والعراق والشام ومصر، مذهبنا: أنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا، ونصدق ذلك بقلوبنا، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عز ربنا عن أن يشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقالة المعطلين، وعز أن يكون عدما كما قاله المبطلون، لأن

قال الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ هذه آية جليلة تدلك على سعة علم الله، وعظيم قدرته، وعظيم غناه، وإجابته الداعين، وأنه سبحانه لا تختلف عليه الأصوات، ولا تلتبس عليه الحاجات.

واسمع لهذا الكلام النفيس الذي ذكره السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره قال "أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين.

فسبحان الكريم الوهاب، الذي عَمَّتْ مواهبُه أهلَ الأرض والسماوات، وعَمَّ لُطْفُه جميعَ الخلق في كُلِّ الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالى كلُّ يومٍ هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالى وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من

=ما لا صفة له عدم، تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه.

عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان، وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله: ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا (١)

يعني يا عبد الله وجب عليك أن تعظم ربك، رب عظيم وهذه بعض صفاته ﴿**يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ أتدري كم عدد أهل السماء؟ لا يمكن لك أن تحيط بعددها، **فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ"**.(٢)

البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، أعدادهم الله بها عليم(٣)، أكثر

---

(١) ذكره السعدي في " تيسير الكريم الرحمن" (٨٣٠).

(٢) **(حسن)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣١٢)، وابن ماجه في "سننه" (٤١٩٠)، وأحمد في "مسنده" (٢١٥١٦)، والحاكم في "المستدرك" (٣٨٨٣)، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٨٥٢).

(٣) فكما في الحديث **(المتفق عليه)** الذي أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٠٧)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٢) **عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " بَيْنَا أَنَا عِنْدَ البَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ، وَاليَقْظَانِ** وفيه: **ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ**

بكثيرٍ جداً مِن أهل الأرض، مِن إنس الأرض وما فيها من خلق، سبحانه.

ولو سألت ما الذي يسأله أهل السماوات؟ فقد فسرها وبينها ربنا في كتابه، فقال جل ذكره في سورة غافر ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [غافر: ٧-٩].

وهذه بعض مسائل أهل السماوات؛ من الملائكة الكرام، يدعون لك، ويصلون عليك، وإذا صليت على رسول الله ﷺ صلوا كذلك عليك، **فعن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا صَلَّى عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ»**.(١)

فيا عبد الله عظِّم ربك جل جلاله، إذا أيقنت بقوله تعالى ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ ما استصعبت شيئاً أبداً، ولهان عليك حالك، وتعلم أن أمرك بيد ربك، فإذا عسر

=الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ.

(١) (حسن) أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٩٠٧)، وأحمد في "مسنده" (١٥٦٨٠)، والطيالسي في "مسنده" (١٢٣٨)، وابن المبارك في "مسنده" (٤٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٤٥٧)، وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٦٦٩).

أمرك، وطالت المدة، اعلم أن كل يوم هو في شأن، اعلم أن الله قادر أن يبدل حالك في طرفة عين أو أقل أو أكثر، والله هذه حقيقة.

فنحن إذا نظرنا إلى الأسباب المادية عافانا الله، كثير من المسلمين يكاد يدخل اليأس إلى قلبه، وترى أنت هذا فيمن حولك؛ من تسلط الكافرين المجرمين على أمة محمد ﷺ، وتواطئ المنافقين من المسلمين مع أعداء الإسلام، الله قادر أن يبدل حال المسلمين، إذا كان الناس أهلاً لكرامة الله هيأ لهم الأسباب، وإن كان الناس ليسوا بأهل فمن حكمة الله ألا يعطيهم هذا الخير، ووالله هذا حق.

وبعض ملوك بني أمية، وهو عبد الملك بن مروان، قال: «أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر! ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كلًّا على كل».(١)

وقالوا ذلك لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه، قال عبيدة السلماني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ما بال أبي بكر وعمر انطاع الناس لهما، والدنيا عليهما أضيق من شبر فاتسعت عليهما ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم ينطاعوا لكما، وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر؟ فقال: لأن رعية أبي بكر وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان، ورعيتي أنا اليوم مثلك وشبهك.(٢)

صح هذه حقيقة، فلو أن الناس رب العزة اطلع على قلوبهم فعلم فيهم خيرا بدل

---

(١) أورده ابن قتيبة في "عيون الأخبار" (١/ ٦٢).

(٢) ذكره الطرطوشي في " سراج الملوك " (١١٦).

الأحوال، والناس وجب عليم أن يلجؤا إلى الله، فالأمور كلها بيده والله.

فلذلك يا إخواني وجب علينا الثقة في ربنا القدير، ووجب علينا ألا نستعظم حالاً أبداً، بل الله قادر أن يبدل حالنا في طرفة عين، مولانا أخبر عن الرسل فقال ﴿**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [يوسف: ١١٠]، ما بالك بالضعفاء أمثالنا، ورغم ذلك عندما ينظر الإنسان إلى هذا الواقع الأليم يقول حاشا لله أن النصر بعيد، لا والله، قادر ربنا أن يصلح الظالم أو يأخذه سبحانه، فهو كل يوم في شأن جل جلاله.(١)

وإذا نظرت إلى ابنٍ لك عاصٍ وتقل له افعل ذلك من الصالحات ولا يفعل، لا تستبعد هدايته أبدا، إنما عليك الصبر والبلاغ والبيان والدعاء، وثق أن الله تعالى يهدي من يشاء، وربك أعلم بالمهتدين جل جلاله.

﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ أتكذبون يا معشر الجن والإنس وأنتم ترون تصريف الله للأيام؟ وتقليبه للأمور وأنه يعز ويذل ويغني ويفقر ويعطي ويمنع، وترون

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٤) وقوله: ﴿**يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾**﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢١٢) يقول تعالى ذكره من كل يوم في شأن خلقه، فيفرج كرب ذي كرب، ويرفع قوما ويخفض آخرين، وغير ذلك من شئون خلقه.

ونحوه قال الواحدي في "الوسيط" (٤/ ٢٢١).

هذا أمامكم فبأي آلاء من آلاء الله تكذبون، فنحن نقول لا بشئ من آلاءك ربنا نكذب، نعم والله.(١)

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

قال الله تعالى بعدها: ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ**﴾ سبحان الله، لو أن حاكماً قال ذلك لإنسانٍ مِن رعيته لأرعب هذا الإنسان ليلَه ونهارَه، وما ذاق النوم، سأتفرغ لك يا فلان، ويسميه باسمه، فما بالك بالرب الجليل الذي ليس به شغل، يعني ليس معناه أن الله مشغول لما قال ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ**﴾ حاشا لله، هذا تهديد ووعيد للثقلين(٢)، والثقلان الجن والإنس، كما في الحديث **" وَأَمَّا الكَافِرُ - أَوِ المُنَافِقُ - فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ**

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢١٥) يقول تعالى ذكره: فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعم عليكم من صرفه إياكم في مصالحكم، وما هو أعلم به منكم من تقليبه إياكم فيما هو أنفع لكم تكذبان

(٢) أخرج الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢١٦) عن ابن عباس، قوله: ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ**﴾ قال: «وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل، وهو فارغ». وينظر "التسهيل لعلوم التنزيل " لابن جزي الكلبي (٢/ ٣٢٩)، "التفسير الكبير" (٢٩/ ٩٨).

بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ ".[(١)]

وسموا بالثقلين كما قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: " سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف، وقيل : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا ، وقال جعفر الصادق: سميا ثقلين ، لأنهما مثقلان بالذنوب".[(٢)]

﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ**﴾ يعني سنحصي أقوالك وأعمالك وسرك وعلانيتك وسنجازيك به أتم الجزاء، انتبه لنفسك، ينبغي عليك أن تأخذ الحيطة والحذر، ربك جل جلاله مطلع عليك، يحصي أنفاسك، مطلع على ما في الضمير، يعلم السر وأخفى، والناس في غفلة، وكأنهم أخذوا صَكَّ أمانٍ أنهم من أهل الجنة، وكأنه ليس هناك نار ولا بعث ولا حساب، سبحان الله، لا تدري أي غفلة هذه الغفلة، ويصاحبها انتهاك للحرمات، والوقوع فيما حرم الله ليل نهار، نسأل الله العافية والسلامة.[(٣)]

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٧٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٧٠) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

(٢) ذكره القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٣٨)، وينظر "التفسير الكبير" للرازي (٢٩/ ٩٩).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ في "الكشاف" (٤/ ٤٤٨) والثقلان: الإنس والجن، سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض. وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٧/ ٤٤٧).

(٣) قال السمرقندي رَحِمَهُ اللهُ في "بحر العلوم" (٣/ ٣٨٣) قوله عز وجل: ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ**﴾ أي: سنحفظ عليكم أعمالكم أيها الجن والإنس. فنجازيكم بذلك. وينظر "النكت

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ جاءت الآية العظيمة قول مولانا جل جلاله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وهذه الآية ذكر جل أهل التفسير أنها في يوم القيامة، وفي أرض المحشر.(١)

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ "أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بأمر الله(٢)، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]، ولهذا قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ

=والعيون" (٥/ ٤٣٤).

(١) قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٤٨) {فانفذوا}وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السماوات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا. وينظر "التفسير البسيط" (٢١/ ١٦٩)، و"التسهيل لعلوم التنزيل" (٢/ ٣٢٩).

(٢) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٠) والسلطان هنا القوة على غرض الإنسان، ولا يستعمل إلا في الأعظم من الأمر والحجج أبدا من القوي في الأمور، ولذلك يعبر كثير من المفسرين عن السلطان بأنه الحجة.

وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾.(١)

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ " ذكر ابن المبارك : وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر الله السماء التي تليها كذلك فينزلون فيكونون صفا من خلف ذلك الصف ، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ، فينزل الملك الأعلى في بهائه وملكه ومجنبته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فذلك قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾(٢)

وعلى هذا فإن جل أهل التفسير على أن الآية المراد بها في أرض المحشر، أن الله يتحدى الخلق، ولا يستطيع أحد أن ينفذ من ملك الله، ويفرُّ من أمره تعالى الذي قضاه وقدَّره جل جلاله على العباد، وحكم الله نافذ فيهم.(٣)

---

(١) أورده ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٦).

(٢) ذكره القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٣٩)، وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢١٧)، وابن المبارك في "الزهد" (٢/ ١٠٣).

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢١٧) وإنما هذا قول يقال لهم يوم القيامة قالوا: ومعنى الكلام: سنفرغ لكم أيها الثقلان، فيقال لهم: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾وأخرجه عن الضحاك.

وبعض السادة العلماء مثل العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أضواء البيان ذكر كلاماً نفيساً بديعاً جداً في هذا الموطن وفي أشباهه من المواطن، في قوله تعالى ﴿**جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ**﴾ [ص: ١١]، فتكلم بكلام عظيم وكذّب من يزعمون أنهم وصلوا إلى القمر، وذكر أيضاً الآية التي في سورة الملك ﴿**وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ**﴾ [الملك: ٥]، قال "أي شيطان يحاول أن يخرج ويصل إلى السماء الله تعالى جعل النجوم ترجمهم، والشيطان معروف، وكل عات متمرد من الإنس والجن والدواب، فقال ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**﴾ تدل على كذب هؤلاء المتشدقين ويقولون بأنهم وصلوا إلى القمر، وهذا كذب وليس بحقيقة، والله أعلم بصحة ذلك.(١)

فالشاهد أن هذه الآية الكريمة فيها تهديد ووعيد للعباد ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**﴾ إذا استطعتم أن تهربوا من ملك الله إلى ملك غيره ولا يكن عليك حساب وتنجوا من عذابه فانفذوا، لا تنفذون إلا بملك عظيم أقوى من ملك الله جل جلاله، وليس هناك ملك أقوى من ملك الله العظيم جل جلاله.(٢)

---

(١) ذكره الشنقيطي في "أضواء البيان" (٢/ ٢٥٢).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢١٩) وقال آخرون: معنى قوله: ﴿**لا تنفذون**﴾ لا تخرجون من سلطاني وأخرجه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال الخازن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "لباب التأويل في معاني التنزيل" (٧/ ٧) وقيل: معناه إن استطعتم أن تهربوا من

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهذه الآية كررت أكثر من ثلاثين مرة في هذه السورة، يعني يا معشر الجن والإنس بأي آلاء من آلاء ربكما تكذبان ولا يستطيع أحد أن يهرب من ملك الله يوم القيامة وقضاء الله وحكم الله نافذ فيهم في الدنيا والآخرة.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ يعني إذا جاء هاربٌ يهرب يجد شواظ من نار منطلق عليه، ونحاس مذاب أشد درجات الذوبان يصبُّ عليه، وكذلك النحاس نار بها دخان عظيم.

ولذلك قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: " لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ; ولهذا قال : فلا تنتصران ".(١)

يعني لا ينصر أحدٌ أحداً، ولا ينجوا أحدٌ مِن أرض المحشر، ولا يمكن لأحدٍ أن يهرب مِن مُلك الله تبارك وتعالى إلى مُلك غيره.

=قضائي وتخرجوا من ملكي ومن سمائي وأرضي فافعلوا وقدم الجن على الإنس في هذه الآية لأنهم أقدر على النفوذ والهرب من الإنس وأقوى على ذلك.

ونحوه قاله الرازي في "التفسير الكبير" (٢٩/ ٩٩).

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٨) والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٣٦﴾، وينظر "محاسن التأويل" للقاسمي (٩/ ١٠٩).

والشواظ: هو لهب النار[١]، والنحاس هو الدخان الذي لا لهب له[٢]، نسأل الله العافية والسلامة.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ
ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾

---

(١) قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مجاز القرآن" (٢/ ٢٤٤) وشواظ واحد وهو النار التي تؤجج لا دخان فيها." وقال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "البسيط" (٢١/ ١٧١) قال ابن عباس: يريد اللهب الذي لا دخان فيه، وهو قول المفسرين"، وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٤٨) قرأ ابن كثير: بكسر الشين والآخرون بضمها، وهما لغتان، مثل صوار من البقر وصوار، وهو اللهيب الذي لا دخان فيه هذا قول أكثر المفسرين." وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (١١/ ٢٧٤).

(٢) قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "معاني القرآن" (٣/ ١١٧) والشواظ: النار المحضة. والنحاس: الدخان، وقال الزجاج في "معاني القرآن وإعرابه" (٥/ ٩٩) والنحاس الدخان، والشواظ اللهب الذي لا دخان معه."، قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مجاز القرآن" (٢/ ٢٤٤) والنحاس الدخان."،

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٢٤) اختلفوا في المعني به، فقال بعضهم: عني به الدخان وأخرجه عن ابن عباس وسعيد. ثم قال" وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عني بالنحاس الدخان، وذلك أنه جل ثناؤه ذكر أنه يرسل على هذين الحيين شواظ من نار، وهو النار المحضة التي لا يخلطها دخان والذي هو أولى بالكلام أنه توعدهم بنار هذه صفتها أن يتبع ذلك الوعد بما هو خلافها من نوعها من العذاب دون ما هو من غير جنسها، وذلك هو الدخان، والعرب تسمي الدخان نحاساً."، ونحوه الواحدي في "الوسيط" (٤/ ٢٢٣).

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾

﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، تتقطع السماء يوم القيامة، ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].(١)

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: تذوب كعكر الزيت وكما تذوب الفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم.(٢)

---

(١) قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في "أضواء البيان" (٧/ ٥٠٣) معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: "يوم تمور السماء مورا" الآية، ولكنه لا يخلو عندي من بُعد، وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة -جاء موضحا في آيات كثيرة كقوله تعالى: إذا السماء انشقت، وقوله تعالى: فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء وقوله: ويوم تشقق السماء بالغمام الآية، وقوله: إذا السماء انفطرت.

(٢) قال الفراء رَحِمَهُ اللهُ في "معاني القرآن" (٥/ ١٠١) ومعنى (كالدهان) تتلون من الفزع الأكبر تلون الدهان المختلفة، والدهان جمع دهن، ودليل ذلك قوله (يوم تكون السماء كالمهل) أي كالزيت الذي قد أغلي وقيل (فكانت وردة كالدهان) أي فكانت كلون فرس وردة.

والكميت الورد يتلون فيكون في الشتاء لونه خلاف لونه في الصيف، ويكون في الفصل لونه غير لونه

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾

هذه الآية فيها عدة أقوال:

القول الأول: لا يسأل أحد عن ذنب أحد، لا إنس يسأل عن ذنب إنس آخر، و لا جن يسأل عن ذنب جن آخر، وإنما كل امرئ بما كسب رهين.(١)

وأيضاً ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ**﴾ يعني لا نسألهم سؤال استعلام، الله أعلم بذنوب عباده، كما قال تعالى ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]، وقوله: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف: ٦].(٢)

=في الشتاء والصيف."وذكر نحوه ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣١)، الزمخشري في "الكشاف" (٤/ ٤٤٩)، وابن أبي زَمَنِين في " تفسير القرآن العزيز " (٤/ ٣٣١).

(١) قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في "التفسير الكبير" (٢٩/ ١٠٤) وفيه وجهان أحدهما لا يسأله أحد عن ذنبه فلا يقال له أنت المذنب أو غيرك ولا يقال من المذنب منكم بل يعرفونه بسواد وجوههم وغيره وعلى هذا فالضمير في ذنبه عائد إلى مضمر مفسر بما يعده وتقديره لا يسأل إنس عن ذنبه ولا جان يسأل أي عن ذنبه وثانيهما معناه قريب من المعنى قوله تعالى وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى كأنه يقول لا يسأل عن ذنبه مذنب إنس ولا جان."، وينظر "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٠).

(٢) قال الكرماني رَحِمَهُ اللَّهُ في " غرائب التفسير وعجائب التأويل " (٢/ ١١٧٢) أي: لا يسأل سؤال استعلام لما في الآية الأخرى وهو قوله: ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ**﴾ وحيث قال: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ**﴾ يريد سؤال توبيخ وتقريع، والمعنى لا يقال لهم ما فعلتم لأن الملائكة عرفوا ما فعل القوم بسيماهم، بل يقولون لهم لم فعلتم كذا وكذا.

أما سؤال الذين أرسل إليهم فيسألهم الله سؤال تبكيت وتوبيخ، نسأل الله العافية، كما ذكر الله في غير ما آية، كما ذكر عن الموءودة ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ [التكوير: ٨-٩] تسأل هي لتبكيت قاتلها، وزيادة في عذابه.[(١)]

ثم يقول الله جل ذكره ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**﴾ أهل الإجرام المتكبرون العتاة على الله، وعلى خلق الله، يعرفون يوم القيامة بسيماهم، ما هي سيماهم؟ سود الوجوه، زرق العيون، وعلى وجوههم قترة.[(٢)]

لذلك قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قوله: ﴿**بِسِيمَاهُمْ**﴾ أي: بعلامتهم المميزة

=وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "التفسير الكبير" (٢٩/ ٩٦) ماذا يسأله السائلون فنقول يحتمل وجوهاً أحدها أنه سؤال استعطاء فيسأله كل أحد الرحمة وما يحتاج إليه في دينه ودنياه ثانيها أنه سؤال استعلام أي عنده علم الغيب لا يعلمه إلا هو فكل أحد يسأله عن عاقبة أمره وعما فيه صلاحه وفساده.

(١) قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٠) وعن ابن عباس أيضا: لا يسألون سؤال شفقة ورحمة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ. ونحوه ابن جزي في "التسهيل لعلوم التنزيل" (٢/ ٣٣٠)، وابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٢)، والسعدي في " تيسير الكريم الرحمن " (٨٣١).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٣١) يقول تعالى ذكره تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم وسيماهم التي يسومهم الله بها من اسوداد الوجوه، وازرقاق العيون وأخرجه عن الحسن وقتادة. "، ونحوه قال الفراء في "معاني القرآن" (٣/ ١١٧)، وينظر "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٢).

لهم، وقد دلَّ القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ**﴾ [آل عمران:١٠٦] وقال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**﴾ [الزمر:٦٠]، وقال تعالى: ﴿**وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [يونس:٢٧]، وقال تعالى: ﴿**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ**﴾ [عبس:٤٠-٤٢].(١)

فيا عبد الله تذكر هذا الموقف، واحذر أن تكون من هؤلاء المجرمين، تب إلى الله، وارجع إليه، واستمسك بحبله، وقل اللهم أنت ربي وأنا عبدك، اغفر لي وارحمني.

وقوله ﴿**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**﴾ [طه:١٠٢] يعني: أن العين تكون زرقاء، والغبرة والقترة في وجوههم، وهذا كله تقبيح أيما تقبيح لهؤلاء المجرمين.

قال الله تعالى﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**﴾ تجمع رأسه مع رجليه ويرمى به في جهنم، ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾.

﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**﴾ المجرمون لهم سيمة وعلامة يعرفون بها يوم القيامة، فكما أن لكم سيمة وعلامة تعرفون بها يا أهل الجنة ويا أهل الإيمان وفي الحديث "**يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ فِيمَا بَيْنَ نُوحٍ**

(١) ذكره الشنقيطي في "أضواء البيان" (٧/ ٥٠٤).

إِلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: «هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، لَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرَهُمْ، وَأَعْرِفُهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ" (١).

وأما المتكبرون المجرمون العتاة على الله في الدنيا، قال الله عنهم: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، زرق العيون، سود الوجوه، تعلوها قترة، وقال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

فيا أيها العبد الكريم عليك بطاعة ربك يجعل لك سيمة مباركة يوم القيامة.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ كلام السلف في هذا الموطن شديد جداً، قال الأعمش عن ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدمه ، فيكسر كما

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده" (٢١٧٣٧)، وابن المبارك في "الزهد" (٢/ ١١٢)، والحاكم في "المستدرك" (٣٧٨٤)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢٤٩٠)، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٢٩٩) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِالسُّجُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ، فَأَنْظُرَ إِلَى بَيْنِ يَدَيَّ، فَأَعْرِفَ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ، وَمِنْ خَلْفِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ يَمِينِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ شِمَالِي مِثْلُ ذَلِكَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ فِيمَا بَيْنَ نُوحٍ إِلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: «هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، لَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرَهُمْ، وَأَعْرِفُهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ».

يكسر الحطب في التنور .(١)

وقال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره .(٢)

وقال السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره.(٣)

يعني عذاب ليس مثله عذاب نسأل الله العافية والسلامة، ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾.

ثم يقول الله: ﴿**هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ يعني أهذا حقٌّ أم هذا كَذِبٌ؟ ﴿**هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الطور]

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الدر المنثور" (١٤/ ١٣٠) وأخرج ابن أبي حاتم، وَابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿**فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**﴾ قال: تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب في التنور.

ونحوه عن ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٩).

(٢) أخرجه هناد بن السري في "الزهد" (٢٦٨) عَنِ الضَّحَّاكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**﴾ قَالَ: «يُجْمَعُ بَيْنَ نَاصِيَتِهِ وَقَدَمِهِ فِي سِلْسِلَةٍ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ» وينظر "الكشف والبيان" للثعلبي (٢٥/ ٣٤٧)، و"الكشاف" للزمخشري (٤/ ٤٥١).

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٤٩٩) وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره. وينظر " التخويف من النار " لابن رجب الحنبلي (٩٥).

أولاً: أمر الله المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب التي تنجيهم من النار، فقال تعالى﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، ليعلم كل واحد منا هذا العلم، علم يقيني، أنك يا عبد الله ستسأل عن نفسك، وعن من تعول، يعني نسأل الله اللطف لو أن الواحد منا جاء يوم القيامة وحسناته زائدة، الحمد لله إلى الجنة؟ لا، ليس هكذا ينجوا، قف، ستسأل عن زوجتك وأولادك وعمن أنت مسؤول عنهم، وممكن ولد من أولادك يذهب بك إلى نار جهنم، أو زوجتك، نسأل الله السلامة والعافية.

وحبيبنا ﷺ قال الله له: ﴿**فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى**﴾ [الليل: ١٤]، نار تتلهب وتشتعل(١).

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنبَرِ يَقُولُ: «أُنْذِرُكُمُ النَّارَ» حَتَّى سَقَطَ إِحْدَى عِطْفَي رِدَائِهِ عَنْ مَنْكِبِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «أُنْذِرُكُمُ النَّارَ،» وَلَوْ كَانَ مَكَانِي هَذَا لَأَسْمَعَ أَهْلَ السُّوقِ أَوْ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْهُمْ وَهُوَ عَلَى مِنبَرِ الْكُوفَةِ".(٢)

---

(١) قال الأزهري رحمه الله في "تهذيب اللغة" (١٤/ ٢٨٤) أي تتوهج وتتوقد. وينظر "تاج العروس" للزبيدي (٣٩/ ٤٥٩)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٣٣٦)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣١/ ١٨٤).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٣٩٩)، وفي "الزهد" (١١٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٤٤)، والحاكم في "المستدرك" (١٠٥٨)، وهناد بن السري في "الزهد" (٢٣٩)،

وأيضـًا **عن عَدِيِّ بْنَ حَاتِمٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».**(١)

وأمَره الله بقوله: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤] **فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ، سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».**(٢)

أسماء النار:

والنار أسماؤها كلها في القرآن الكريم مرعبة، سماها ربنا جل جلاله جهنم، فقال تعالي ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا**﴾ [النبأ: ٢١]، من الجهومة، وهي شدة الظلام(٣)، كما

=وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٦٥٩).

(١) قال المناوي رحمه الله في "فيض القدير" (١/ ١٣٨) (اتقوا النار) أي احترزوا منها بالتقوى التي هي تجنب المخالفات لئلا يصيبكم ويواقعكم عذابها.

وقال العثيمين رحمه الله في "شرح رياض الصالحين" (٤/ ٦٢) اتقوا النار ولو بشق تمرة يعني: اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ولو بشق تمرة يعني: ولو أن تصدقوا بنصف تمرة فإن ذلك يقيكم من النار إذا قلبها الله عز وجل.

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٥٣)، ومسلم في "صحيحه" (٢٠٦).

(٣) قال الواحدي رحمه الله في "التفسير البسيط" (٩/ ١٣٢) قال بعض أهل اللغة: (واشتقاقها من

صحَّ عن السلف أنهم قالوا كل ما في النار أسود.[١]

وكذلك سماها الجحيم، فقال تعالي ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾.

وسماها الله تعالى السعير، فقال تعالي حاكياً عن حال الكفار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

وسماها ربنا سقر، فقال تعالي ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٣].[٢]

وسماها الحطمة، فقال تعالي ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٤ – ٦].[٣]

=الجهومة، وهي الغلظ، يقال: رجل جهم الوجه، غليظه، فسميت بهذا لغلظ أمرها في العذاب، نعوذ بالله منها) وينظر "اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (٩/ ١١٥).

(١) قول الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥/ ٢٤٩) ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وشجرها أسود، وأهلها سود.

(٢) قال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "العين" (٥/ ٧٥) سقر: السقر لغة في الصقر. وسقر: اسم معرفة لجهنم نعوذ بالله منها. وينظر "تاج العروس" للزبيدي (١٢/ ٥١).

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٤/ ٦٢١) وأحسبها سميت بذلك لحطمها كل ما ألقي فيها، كما يقال للرجل الأكول: الحطمة.

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الكشاف" (٤/ ٧٩٦) الْحُطَمَةِ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها. ويقال للرجل الأكول: إنه الحطمة. وقرئ: الحاطمة، يعنى أنها تدخل في أجوافهم

وسماها تعالى سجين، فقال تعالي ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَرْقُومٌ**﴾ [المطففين: ٧ - ٩]. (١)

وسماها ربنا تعالى لظى، فقال تعالي ﴿**كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ۝١٥ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى**﴾ [المعارج: ١٥-١٦]. (٢)

فيا عباد الله اجتهدوا في البعد عن النار بكلِّ طريقٍ، نسأل الله العافية والسلامة.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ

=حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألما منه بأدنى أذى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه.

(١) قال أبو حيان رَحِمَهُ اللهُ في "البحر المحيط" (١٠/ ٤٢٧) سجين، قال الجمهور: فعيل من السجن، كسكير، أو في موضع ساجن، فجاء بناء مبالغة.

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ في "مجاز القرآن" (٢/ ٢٨٩) "لَفِي سِجِّينٍ" في حبس، فعّيل من السجن كما يقال: فسّيق من الفسق.

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٤/ ٢٢١) والحطمة: اسم من أسماء النار، كما قيل لها: جهنم وسقر ولظى وينظر "معاني القرآن" للفراء (٣/ ٢٩٠).

بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ.(١)

وفي صحيح الإمام مسلم **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه ، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».**(٢)

والنار لها أبواب، قال تعالى ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: ٧١]، هنا أهل النار فتحت الأبواب مباشرة، أما أهل الجنة ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: ٧٣]، أهل العلم قالوا الواو هنا يعني أن هناك أمر سيحدث ألا وهو الشفاعة، ثم تفتح أبواب الجنة(٣)، لأن الحبيب ﷺ هو أول من تفتح له الجنة، **فَعَنْ أَنَسِ بْنِ**

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٠٧)، وابن ماجه في "سننه" (٤٣٢١)، وأحمد في "مسنده" (١٣١١٢)، وأسد بن موسى في "الزهد" (٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٢٢)، والترمذي في "سننه" (٢٥٥٩)، وأحمد في "مسنده" (١٢٥٥٩)، وابن حبان في "صحيحه" (٧١٦).

(٣) قال السعدي رحمه الله في "تيسير الكريم الرحمن " (٧٣٠) وقال في النار ﴿**فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ وفي الجنة ﴿**وَفُتِحَتْ**﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ، حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى، وفي

مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ.(١)

وربنا تعالى قال: ﴿**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ**﴾ [الحجر: ٤٤]، نسأل الله أن يجيرنا من النار.

ولها خَزَنَةٌ وحُرَّاسٌ، كبارهم تسعة عشر من الملائكة، ومرَّ معنا في تفسير سورة المدثر أن هذا كان فيه فتنة للمشركين، قالوا محمد يخوفكم بتسعة عشر، يا معشر قريش أنتم اكفوني تسعة وأنا أكفيكم عشرة، أبو جهل هكذا قال، فربنا تعالى قال ﴿**عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].(٢)

ورئيسهم مالك، وهو ملك عظيم، ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٧].

والنبي ﷺ رأى مالكٌ، خازن النار، كريه المرآة - يعني كريه المنظر جداً -، كأكره

=الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان، اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٩٧)، وأحمد في "مسنده" (١٢٣٩٧)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٢٧١)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٤٨٠).

(٢) أخرج الطبري في "جامع البيان " (٢٣/ ٤٣٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر "الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٨٦)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٧٠).

ما أنت راءٍ رجلاً، يعني منظره مرعب، وناسب ذلك أن يكون هو الخازن لأهل النار، حتى يكون ذلك زيادة في عذابهم.

فسَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي انْطَلِقْ.... وفيه: وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ، الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ.[1]

دركات النار:

وكما أن أهل الجنة لهم درجاتٌ عالياتٌ على حسب أعمالهم يرتقون بها، كذلك أهل النار لهم دركات ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا**﴾ [النساء: ١٤٥]، نعوذ بالله من النار.

وأما لو سألت عن أهون أهل النار عذابـًا، بعض الناس يستهين، وكأن نار الآخرة مثل نار الدنيا، والله لو كانت كنار الدنيا لكانت كافية في العذاب، لكن حاشا لله، ربنا لا يعذِّبُ عذابَه أحدٌ، **فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ**

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٠٤٧)، والنسائي في "الكبرى" (٧٦١١)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٠٩٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٥٥).

قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا».[(١)]

أهون أهل النار عذابا:

فأهون أهل النار عذاباً كما ثبت في الصحيح **عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ، عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ وَالقُمْقُمُ»**[(٢)] نعوذ بالله من النار.

وفي الصحيح أيضاً **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ».**[(٣)]

هذا هو أهون أهل النار عذاباً، ما بالك بفرعون وقارون وهؤلاء الجبابرة، نسأل الله العافية والسلامة.

أبو طالب أهون أهل النار عذاباً:

وأبو طالب أهون أهل النار عذاباً، فقد ثبت الحديث **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ».**[(٤)]

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٦٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٤٣).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٦٢)، ومسلم في "صحيحه" (٢١٣).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢١١)، وأحمد في "مسنده" (١١١٠٠)، والحاكم في "المستدرك" (٨٧٣٤)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (٨٧٥).

(٤) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢١٢)، وأحمد في "مسنده" (٢٦٣٦)، والحاكم في "المستدرك"

سعة النار وعمقها:

وعن سعة النار شيء يرعب والله، روى الإمام أحمد بسند صحيح، **عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَتَدْرِي مَا سِعَةُ جَهَنَّمَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ مَا تَدْرِي، إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفًا، تَجْرِي فِيهَا أَوْدِيَةُ الْقَيْحِ وَالدَّمِ، قُلْتُ: أَنْهَارًا؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَوْدِيَةً، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا سِعَةُ جَهَنَّمَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ مَا نَدْرِي، حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] فَأَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «هُمْ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ»**(١)

فالصراط يسع الخلائق كلهم.

وأما عمقها: **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»**(٢) نعوذ بالله من النار.

= (٨٧٣٥)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٣٤٨).

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في "شرح صحيح مسلم" (٣/ ٢٩) الجسر بفتح الجيم وكسرها لغتان مشهورتان وهو الصراط

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٤)، وأحمد في "مسنده" (٨٨٣٩)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٤٦٩)، والآجري في "الشريعة" (٩٣٠).

ومولانا يقول في كتابه ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، لا تشبع وتكتفي حتى يضع رب العزة جل جلاله رجله فيها وتقول قط قط، يعني اكتفيت اكتفيت، وهذا حديث ثابت صحيح **عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، قَالَ: " لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، وَعِزَّتِكَ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ".**(١)

وقود النار:

أما عن وقود النار عافانا الله وإياكم، فربنا تعالى قال ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال في قوله عز وجل: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، قال: "حجارة من كبريت، خَلَقَها الله عنده كما شاء".(٢)

واسمع لهذا الحديث الجليل، رواه ابن ماجه بسند حسن، وهو يبين لك حال الصالح والطالح حتى تستعد، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " إِنَّ الْمَيِّتَ**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٦٦١)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٤٨).

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١/ ٣٨٢)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢٤٤)، وابن المبارك في "الزهد" (٢/ ٨٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٩/ ٢١٠)، والحاكم في "المستدرك" (٣٠٣٤).

يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ، غَيْرَ فَزِعٍ، وَلَا مَشْعُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللهَ، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا، وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، وَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فِي قَبْرِهِ، فَزِعًا مَشْعُوفًا، فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا، فَقُلْتُهُ، فَيُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى".(١)

ما منا من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، **فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]**.(٢)

---

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٤٢٦٨)، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٣٩).

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٤٣٤١)، والطبري في "جامع البيان" (١٧/ ١٥)،

أي مخلوق له منزلان، إن أطاع الله يدخل الجنة، وإن عصاه يدخل النار، وربك أعلم بما يكون من هذا العبد، وكتب ذلك في كتاب عنده قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، **فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: " كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.** [١]، وقد مر معنا الحديث الثابت في الصحيح **عَنْ ذِي اللِّحْيَةِ الْكِلَابِيِّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَعْمَلُ فِي أَمْرٍ مُسْتَأْنَفٍ، أَوْ أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ فِي أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ»، قَالَ: فَفِيمَ نَعْمَلُ إِذًا؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».**[٢]

وفي صحيح مسلم **عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، دَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، يَهُودِيًّا، أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ".**[٣]

=والبيهقي في "شعب الإيمان" (١/ ٥٨١)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٢٧٩).

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٥٣)، والترمذي في "سننه" (٢١٥٦)، وأحمد في "مسنده" (٦٥٧٩)، وابن حبان في "صحيحه" (٦١٣٨).

(٢) **(حسن)** أخرجه أحمد في "مسنده" (١٦٦٣٠)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٤/ ٢٣٧)، وابن قانع في "معجم الصحابة" (١/ ٣٤٧)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢٦٢٠)، وحسنه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في " الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (٣٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٧٦٧)، وأحمد في "مسنده" (١٩٦٠٠)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٣٧٠).

وبعض السفهاء وأهل البدع والضلال يشككون في مثل هذه الأحاديث، نقول لهم رغم أنفكم هذه الأحاديث صحَّت عن نبينا ﷺ، ورويت في الصحاح والمسانيد والسنن والمصنفات، وتلقاها علماء الحديث، وأئمة الإسلام؛ من أهل السنة والجماعة بالقبول، والحمد لله رب العالمين.

وأما عن أرض المحشر فأمرها عظيم، نداء عظيم من رب العالمين، والحديث ثابت في الصحيح **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ" قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ».**[(١)]

والنار لا يدخلها إلا المتكبرون، لذلك ما تواضع أحد لله إلا أعزه الله ورفعه، وبارك في قوله وعمله، أما المتكبرون فيضعهم الله تعالى، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ:**

---

(١) **(متفق عليه)؛** أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٣٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٢).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " احْتَجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتْ: هَذِهِ يَدْخُلُنِي الْجَبَّارُونَ، وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتْ: هَذِهِ يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ، وَالْمَسَاكِينُ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِهَذِهِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ - وَقَالَ لِهَذِهِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا".(١)

وفي صحيح الإمام مسلم " قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ.(٢) أي لا يخفي حاجة له(٣)، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ «وَذَكَرَ» الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».(٤)

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨٥٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٤٦).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٦٥)، والنسائي في "الكبرى" (٨٠١٦)، وأحمد في "مسنده" (١٧٤٨٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٥٣) عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه، به.

(٣) قال القاضي عياض في " مشارق الأنوار على صحاح الآثار " (١/ ٣٠٩) وقوله الضعيف الذي لا زبر له أي لا عقل له وقيل الذي ليس عنده ما يعتمد عليه وقيل الذي لا مال له وفسره في كتاب مسلم الذين فيكم تبعاء لا يبتغون أهلا ولا مالاً.

(٤) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢١٢٨)، وأحمد في "مسنده" (٨٦٦٥)، وابن حبان في

طبعـًا لو أن امرأة متبرجة، وهي مسلمة، ليس معنى ذلك أنها من أهل النار للأبد، حاشا لله، التبرج معصية، ولكن لأهل العلم تأويلان في هذا الكلام:

أولاً: لا يدخلن الجنة ابتداء، يعني أول الداخلين.

ثانيـًا: لا يدخلن جنة من الجنان.[١]

="صحيحه" (٧٤٦١)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٣٢٦٠).

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ في "شرح صحيح مسلم" (١٧/ ١٩١) قوله: (لا يدخلن الجنة) يتأول التأويلين السابقين في نظائره أحدهما: أنه محمول على من استحلت حرامـًا من ذلك مع علمها بتحريمه فتكون كافرة مخلدة في النار لا تدخل الجنة أبدا، والثاني: يحمل على أنها لا تدخلها أول الأمر مع الفائزين، والله تعالى أعلم.

وينظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (١١/ ٦٤٦) فسئل رَحِمَهُ اللهُ عن النساء اللاتي يتعممن بالعمائم الكبار لا يرين الجنة ولا يشممن رائحتها. وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ **"من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة"** فأجاب:

قد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ أن النبي ﷺ قال: **"صنفان من أهل النار من أمتي لم أرهما بعد: نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رءوسهن مثل أسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها. ورجال معهم سياط مثل أذناب البقر يضربون بها عباد الله"** ومن زعم أن هذا الحديث ليس بصحيح بما فيه من الوعيد الشديد فإنه جاهل ضال عن الشرع يستحق العقوبة التي تردعه وأمثاله من الجهال الذين يعترضون على الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ. والأحاديث الصحيحة في الوعيد كثيرة مثل قوله: **" من قتل نفسا معاهدة بغير حقها لم يجد رائحة الجنة وريحها يوجد من مسيرة أربعين خريفا"** ومثل قوله الذي في الصحيح: **"لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر. قيل: يا رسول الله الرجل يكون ثوبه حسنا**

وحتى نحقق الإخلاص فهناك حديث شديد، يبين قدر المخلصين والمرائين، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ**

=**ونعله حسنا أفمن الكبر ذاك؟ فقال: لا الكبر بطر الحق وغمط الناس"**. و " بطر الحق " جحده و " غمط الناس " احتقارهم وازدراؤهم. ومثل قوله في الحديث الصحيح: **"ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان وملك كذاب وفقير مختال"**.

وفي القرآن من آيات الوعيد ما شاء الله كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠] وكما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٣٠] وقوله في الفرائض: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١٣] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤].

لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ".(١)

والذي يبخل بماله ولا يخرج زكاة ماله، له عذاب شديد يوم القيامة، **فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلاَ: لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ "** الآيَةَ.(٢)

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ".(٣)

وهناك حديثٌ مشابهٌ أيضًا **فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٩٠٥)، والترمذي في "سننه" (٢٣٨٢)، والنسائي في "المجتبى" (٣١٣٧)، وفي "الكبرى" (٤٣٣٠)، وابن خزيمة في "صحيحه" (٢٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤٠٣)، والنسائي في "المجتبى" (٢٤٨٢)، وفي "الكبرى" (٢٢٧٣).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠٦)، وأبو داود في "سننه" (٤٠٨٧)، والترمذي في "سننه" (١٢١١)، والنسائي في "المجتبى" (٢٥٦٣)، وابن ماجه في "سننه" (٢٢٠٨).

ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ -قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ -وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ"(١) وهذه من عظيم الآثام التي توجب لصاحبها نار جهنم والعياذ بالله.

والحديث عن النار حديثٌ طويلٌ، وأهل النار يتكلمون، ولكن بكلامٍ لا خير فيه، كلام والعياذ بالله زيادة في عذابهم، ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**﴾ [فاطر: ٣٧].

وأيضا لما يزداد عليهم العذاب يقولون ﴿**قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].(٢)

﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ**

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠٧)، والنسائي في "المجتبى" (٢٥٧٥)، وفي "الكبرى" (٧١٠٠)، وأحمد في "مسنده" (١٠٢٢٧)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٤١٣).

(٢) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" -تفسير جزء الذاريات (٣٢١-٣٦٨) للشيخ مصطفى العدوي.

ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾

قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فيها تأويلان لأهل العلم:

التأويل الأول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي خاف القيام بين يدي ربه جل جلاله، وخاف الحساب يوم القيامة، وهذا الخوف دفعه إلى ترك المعاصي والذنوب والآثام، فهذا العبد له جنتان عند الله جل جلاله.(١)

والتأويل الثاني: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أي خاف قيام الله تعالى عليه، كما قال تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَايِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال جل جلاله ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].(٢)

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٣٥) ولمن اتقى الله من عباده، فخاف مقامه بين يديه، فأطاعه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه جنتان، يعني بستانين.

(٢) قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ في "النكت والعيون" (٥/ ٤٣٧) وفي مقام ربه قولان: **أحدهما:** هو مقام بين يدي العرض والحساب.

الثاني: هو قيام الله تعالى بإحصاء ما اكتسب من خير وشر.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في "زاد المسير" (٨/ ١١٩) قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان فيه قولان أحدهما قيامه بين يدي ربه عز وجل يوم الجزاء والثاني قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب.

فهذان التأويلان صحيحان[١]، وهما حادي للعبد في صلاح أعماله، ومن خاف مقام الله خاف القيام بين يدي الله أصلح الله عمله، وهذا العبد راقب ربه وترك الحرام، لأنه يخاف القيام بين يدي الله، **وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»**.[٢]

كما أن المسافر في طريق ويعلم أنه سيأتي على طريق منقطع موحش وربما خرج عليه اللصوص يقطعون طريقه، فإذا به يسير في أول الليل لا يسير فيه في وقت تنقطع فيه المارة، كذلك العبد منا يخاف النار، ويخاف عذاب الجبار.

فوجب علينا جميعـًا والله إذا خاف العبد ربه حق الخوف أن يدلج، يسير بسرعة، فيسرع إلى الله جل جلاله، ويكن ديدنه ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ [طه: ٨٤]، يسارع في طاعته، ويترك ما حرم الله عليه، يرجو وجهه ويخاف عذابه.[٣]

---

(١) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٤٨) وقيل: خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الرعد: ٣٣] وقيل: المقام الموضع، أي خاف مقامه بين يدي ربه للحساب كما تقدم. ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله، وهو كالأجل في قوله: ﴿**فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ**﴾ [الأعراف: ٣٤] وذكر نحوه الرازي في "التفسير الكبير" (٢٩/ ١٠٨)، الشنقيطي في "أضواء البيان" (٧/ ٥٠٦).

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٤٥٠)، والحاكم في "المستدرك" (٧٨٥١)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٨٥٥)، وأبو نعيم في "صفة الجنة" (٤٧)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب" (٣٣٧٧).

(٣) قال المناوي رحمه الله في "فيض القدير" (٦/ ١٢٣) (من خاف أدلج) بسكون الدال مخففا سار من

إن جلال الله عظيم، قال تعالى ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، يعني لو كنت مؤمنـًا يا عبد الله حقـًا تخاف الله، وتعلم أن الله أجل وأعظم من أن تعصيه، ولكنها الشهوات عافانا الله والمسلمين، ولكنه الشيطان نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ربنا جل جلاله لما يقول لعباده ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ثواب جليل أعده الله للعبد الخائف منه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ثوابـًا لا يخطر على بال أحد.

=أول الليل وأما بالتشديد فمعناه سار من آخره (ومن أدلج بلغ المنزل) يعني من خشي الله أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر كذا في الكشاف وقال في الرياض: المراد التشمير في الطاعة، وفي الترغيب معناه من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالعمل الصالح خوف القواطع والعوائق، وقيل هو حث على قيام الليل، جعل قيامه من علامات الخوف لأن الخائف يدلج أي منعه الخوف من نوم كل الليل والأظهر أنه ضرب مثلا لكل من خاف الردى أو فوت ما يتمنى أن يصل إلى السير بالسرى ولا يركن إلى الراحة والهوى حتى يبلغ المنى (ألا إن سلعة الله غالية) أي رفيعة القدر (ألا إن سلعة الله الجنة) قال الطيبي: هذا مثل ضربه لسالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه والنفس وأمانيه الكاذبة أعوانه فإن تيقظ في سيره وأخلص في عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق انتهى وثمن هذه السلعة العمل الصالح المشار إليه بقوله {والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا} وقال العلائي: أخبر أن الخوف من الله هو المقتضي للسير إليه بالعمل الصالح والمشار إليه بالإدلاج وعبر ببلوغ المنزلة عن النجاة المترتبة على العمل الصالح وأصل ذلك كله الخوف

لذلك أخي ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ الخوف من الله جل جلاله هو أن تعظم ربك، وتجله وتهابه، وتجعله دائماً على بالك، ولا تخالف أمره، ولا تتهاون في نهيه، وتقف عند حدوده جل جلاله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، الأب الذي أفنى حياته من أجل أولاده، والأم التي كان قلبها يحترق من أجل أبنائها وبناتها، يوم القيامة الكل يفر، لأن كل امرئ منهم له شأن يفكر فيه.

فيجب علينا أن نخاف الله، وكما قال السادة العلماء الخوف والرجاء جناحان للعبد لا بد له منهما، مثل الطائر لا يصلح طيرانه إلا بجناحين، كذلك أنت لا بد لك من جناحان خوف ورجاء، ولكن إذا كان العبد في حال الصحة والعافية ينبغي عليه أن يغلب الخوف كما قال السادة العلماء من السلف، حتى يكون دافعاً له إلى الله وإلى العمل وإلى ترك الحرام.(١)

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "مدارج السالكين" (١/ ٥١٣) القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

والخوف إذا غلب على العبد كان مذموماً، لأنه من الشيطان، وخير الأمور أوساطها.

يقول ربنا العظيم ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ [الحج: ١ ـ ٢]، اللهم أجرنا من عذابك يا رب.

يا أيها الأحبة الكرام فاز الخائفون ونجوا بفضل الله رب العالمين، **وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ.**(١)

لماذا لا يخاف العبد ربه؟ بل هو أوجب ما يجب على العبد أن يخاف، ألا يأمن العبد مكر الله، ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٩]، **و عن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ،**

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (١٦٣٩)، وابن أبي عاصم في "الجهاد" (١٤٦)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٥/ ٢٠٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٧٥)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٢٢٩).

حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ».[١]

يعني يا أخي إنما الأعمال بالخواتيم، وهذه الخواتيم ليست اعتباطـًا حاشا لله، أو ليست صدفة هكذا، لا والله، ربنا شكور، يشكر لك عملك الصالح، لكن هذا العبد الذي يحيا حياته في لهو وفي سهو وفي تضييع للأعمار، وفي تهاون لأمر الله، وفي عدم إجلال لربه، هذا يوشك عند الموت أن يخونه إيمانه، لأنه كلما عظم إيمان العبد كلما عظَّمَ ربه، كلما خافه، كلما هابه، سيد الأولين والآخرين ﷺ كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، **فعَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ ﷺ»**[٢]، عندما تضع قدر فيها ماء على نار شديدة جدا تغلي، تسمع مثل هذا الصوت من صدر الحبيب ﷺ، ونحن نسأل الله أن يسامحنا ويعافينا نصلي صلاة كلها سهو وكلها تفكير في أمور الدنيا، نسأل الله أن يغفر لنا.[٣]

---

(١) **(متفق عليه)؛** أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٣٣٢)، ومسلم في "صحيحه" (٢٦٤٣).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٩٠٤)، والنسائي في "المجتبى" (١٢١٤)، وفي "الكبرى" (٥٤٩)، وأحمد في "مسنده" (١٦٣١٢)، وابن خزيمة في "صحيحه" (٩٠٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٦٥) وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٥٤٤).

(٣) قال العيني رَحِمَهُ اللهُ في "شرح سنن أبي داود" (٤/ ١٢٦) والمِرجل -بكسر الميم-: القدْر، وأزيز المِرجل: صوت غليانه.

نبينا ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء والمعراج، الحِلْس البالي **فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى، وَجِبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"** (١)

ورأي مِيكَائِيلَ، فقال لِجِبْرِيلَ: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟» قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ". (٢)

النار التي قال الله عنها ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنعام: ٢٧]، لو ترى لرأيت منظراً عظيماً يخلع القلوب، ولرأيت أمراً تشيب له الولدان، وتتفطر له الأكباد، وفي الصحيح **عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا.** (٣)

---

(١) **(حسن)** أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٤٦٧٩)، وابن ابي عاصم في "السنة" (٦٢١)، وابن أبي الدنيا في "الرقة والبكاء" (٤١٤)، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٢٨٩).

(٢) **(حسن)** أخرجه أحمد في "مسنده" (١٣٣٤٣)، وابن أبي الدنيا في "الرقة والبكاء" (٤٠٨)، وأبو الشيخ في "العظمة" (٣٨٤) وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٦٦٤).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٥٣)، ومسلم في "صحيحه" (٢٠٤).

يا إخواني إن ربنا شأنه عظيم يجب على العباد أن يهابوا الله، فجل الناس إلا من رحم الله يتهاون الآن بأوامر الله، ويقولوا إن الله غفور رحيم، فحرمات الله ينتهكونها، وأعظم الحرام الشرك بالله، وقد عمَّ وطمَّ منذ زمن في الأمة، قبور الأولياء تزار ويطاف بها، ويعبدون من دون الله، وينذر لهم، ويُسألون قضاء الحاجات، فإن لم يكن هذا شركًا أكبر فأين الشرك، هذا ذنب عظيم لا يغفره الله لمن مات عليه، نسأل الله العافية والسلامة.

إن الله تعالى أخبر العباد أنهم لا بد لهم من الوقوف بين يديه، و **عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»**.(١)

فلماذا هذه الغفلة الشديدة، ففي السنن **عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»**.(٢)

يَسأل العبد عن هذا كله، هذا لو كنت وحدك لعلك تنجو، ما بالك ولك زوجة،

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٣٩)، ومسلم في "صحيحه" (١٠١٦).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٤١٧)، والدارمي في "سننه" (٥٥٤)، وأبو يعلى في "مسنده" (٧٤٣٤)، والطبراني في "الأوسط" (٢١٩١)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب " (١٢٦).

ولك أولاد، ولك أمٌّ، ولك أب، ولعل عندك إخوة وأخوات أنت مسؤول عنهم، وبعض الناس عنده أيتام في رقبته، كل هؤلاء لا بد أن تسأل عنهم، فكيف النجاة؟ لا إله إلا الله.

لذلك ورد **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ فَخَطَبَ فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَ: غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ، قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا. قَالَ: فَقَامَ ذَاكَ الرَّجُلُ فَقَالَ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «أَبُوكَ فُلَانٌ». فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾**.(١)

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أي خاف القيام بين يدي ربه جل جلاله، وخاف الحساب يوم القيامة، وخاف هذا المقام الجليل، فإنه مقام عسير، لكن نسأل الله التيسير.

فقد روى الإمام البخاري في صحيحه **عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُّونِي فِي البَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَفَعَلُوا بِهِ، فَجَمَعَهُ اللهُ ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟**

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٣٥٩)، وابن ماجه في "سننه" (٤١٩١)، وابن خزيمة في "صحيحه" (١٦٠٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٥٧٩٢).

قَالَ: مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ".(١)

لذلك إذا خاف العبد من الله هذا الخوف ينجيك من عذاب الله، لأنه يحملك على ترك المعاصي وفعل الطاعات، **و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**.(٢)

لذلك كان سلفنا الصالح أعظم الناس خوفـًا، ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان أعظم الناس خوفـًا، وقال عن نفسه **" فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً"**.(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٨٠)، والنسائي في "المجتبى" (٢٠٨٠)، وفي "الكبرى" (٢٢١٨)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٢٥٣)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٥١) **عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُّونِي فِي البَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَفَعَلُوا بِهِ، فَجَمَعَهُ اللهُ ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟ قَالَ: مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ**

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٦٤٠)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٥٩)، وفي "الآداب" (٨٢٦)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٣٧٦).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦١٠١)، ومسلم في "صحيحه " (٢٣٥٦) **عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرًا فَتَرَخَّصَ فِيهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَكَأَنَّهُمْ كَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ: «مَا بَالُ رِجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَمْرٌ تَرَخَّصْتُ فِيهِ، فَكَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ، فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»**

الخشية والخوف من الله ثمرة من ثمرات العلم بالله جل جلاله، فحينما تتعلم أسماء الله وصفاته وتعلم أن الله تعالى لا يخفى عليه ذرة في الأرض ولا في السماء، تجله وتهابه، ولذلك كان سلفنا الصالح أعظم خشية لله لمعرفتهم بالله تعالى، أبو بكر يقول "لو نادى مناد من السماء أن جميع الناس يدخلون الجنة إلا واحد والله لخشيت أن أكون هذا الواحد".(١)

وعمر ﵁ يقول "والله لو إحدى رجلي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله".(٢)

وكانوا يصفون عمر، وهو الذي تهابه الشياطين(٣)، يقولون كما ورد عن عَبْد اللهِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٥٣)، وذكره ابن رجب الحنبلي في " التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار " (٢٣) عن عمر بن الخطاب، قال: " لو نادى مناد من السماء: أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلا واحدا، لخفت أن أكون هو، ولو نادى مناد: أيها الناس، إنكم داخلون النار إلا رجلا واحدا، لرجوت أن أكون هو.

(٢) ذكره السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى" (٤/ ١٣٥) قال عمر ﵁ لو أن رجلي الواحدة داخل الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله.

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٩٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٣٩٦) **عن مُحَمَّدَ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ سَعْدًا قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ**

بْنِ عِيسَى، قَالَ: «كَانَ فِي وَجْهِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ»(١)، بالله عليك كيف الدموع تحفر في اللحم خطوطـًا إلا لكثرتها وغزارتها، وهذا القلب بعد أن كان أشدَّ من الحجارة، صار رقيقـًا قريبـًا من ربه، إذا ذكر الله فاضت عيناه بالدمع.

وعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَوْمًا وَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا، فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ وَهُوَ فِي جَوْفِ الْحَائِطِ: «عُمَرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَخٍ بَخٍ وَاللهِ بَنِي الْخَطَّابِ لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ».(٢)

وعن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يَعُسُّ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلي، فوقف، فسمع قراءته يقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ١﴾ [الطور: ١] حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ٨﴾ [الطور: ٧-٨]، فقال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره، واستند إلى حائط، فلبث مليـًّا، ثم رجع إلى منزله، فلبث شهرا يعوده الناس، لا يدرون ما مرضه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.(٣) ومرضه بسبب خوفه

=ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ» قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ، يَارَسُولَ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَيْ عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنَنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قُلْنَ: نَعَمْ، أَنْتَ أَغْلَظُ وَأَفَظُّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ».

(١) أخرجه أحمد في "الزهد" (٦٣٨)، وفي "فضائل الصحابة" (٣١٨)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٥١)، وابن أبي الدنيا في "الرقة والبكاء" (٢١٢).

(٢) أخرجه مالك في "الموطأ" (٢/ ٩٩٢)، وأحمد في "الزهد" (٦٠٠)، وأبو داود في "الزهد" (٥٣)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (١/ ٥٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الرقة والبكاء" (٩٩)، وذكره ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم"

وإجلاله من رب العالمين.

عن مالك بن مغول، عن رجل، من جعفي، عن السدي، عن أبي أراكة، قال: " صلي علي الغداة ثم لبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح، كأن عليه كآبة، ثم قال: لقد رأيت أثرا من أصحاب رسول الله ﷺ، فما أرى أحدا يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثا غبراً صفراً، بين أعينهم مثل ركب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين ".(١)

لذلك عندما تقرأ هذه الآيات التي يطير القلب فرحا وطربا من جمالها وبهائها وكرامة الله التي أعدها لأوليائه لابد من ثمن ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ وفيها تأويلان كما ذكرنا.

الوجه الأول: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ**﴾ أي خاف القيام بين يدي ربه جل جلاله، ولذلك قال ربنا جل جلاله ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]، فهذا لازم من لوازم الخوف، أن تنهي نفسك، وأثر من آثار خوف العبد من الله أن ينهي نفسه عن الهوى، ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ**

= (٧/ ٤٣٠)، وفي "مسند الفاروق" (٨٦٨)، وابن القيم في "الجواب الكافي" (٤٠).

(١) **(ضعيف)** أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٧٦)، وابن قدامة في "الرقة والبكاء" (٥١)، وذكره الغزالي في "إحياء علوم الدين" (٤/ ١٨٤)، وضعفه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٣/ ٣٠٧).

مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠ـ٤١]، اللهم اجعلنا منهم.

الوجه الثاني: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ أي خاف قيام الله تعالى عليه، وأن الله لا يخفى عليه شيء، فهو مطلع على كل نفس، سرها وعلانيتها، كما قال ربنا تعالى ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الرعد: ٣٣]، بالله عليك لو أيقنت بهذا كيف تعصي الله؟ وقال جل جلاله ﴿**وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾ [يونس: ٦١]، وقال ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩]، لو أيقن العبد أن الله قائم عليه، ومطلع عليه جل جلاله يحصي عليه أعماله، وكما قال الله تعالى ﴿**أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ**﴾ [المجادلة: ٦]، فإذا أيقن العبد بذلك سيجمل عمله، وسيحسن أقواله، وسيحسن أعماله، إذا أيقن أن الله مطلع عليه لا يخون الله ولا يخون عباده، ويؤدي حق الله وحق العباد.

لذلك قول الحبيب ﷺ **"سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، منهم: "وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ"**.[1]

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٦٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٣١) **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ**

كم من المسلمين الآن الذين يبحثون عن الزنا بكل سبيل ويبذلون من أجله أموالاً هائلةً نعوذ بالله من الخذلان، ولكن إذا أيقن هذا العبد أن الله مطلع عليه وقادر ربنا أن يسلب منه الإيمان على حال معصيته، لخاف ربه، وهذا من أعظم الخوف، الخوف من مكر الله تعالى.

فهذه الآية الكريمة اجعلها دائماً نصب عينيك ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١] اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

من عظيم صفاتهم بل هي رأسها مع التوحيد أنهم يخافون الله ويعظمونه، شأن الله جليل، أعظم من أن يعصى، ووجب عليك أن تغير حياتك، سرعة الغضب، التهاون في المحرمات، السلف الصالح كانوا يمتثلون أمر الله سواء كان واجب أو مستحب، ويعظمون نهيه فيتركونه سواء كان حرام أو مكروه، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، لذلك فازوا ورب الكعبة.

﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ كما في الحديث المتفق عليه **عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ**

=وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». (١)

أسماء الجنة:

قال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أفنان يعني ذات أغصان طويلة ناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة(٢)، أو ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم، فهذه الجنة التي أعدها الله لكم يا عباد الله، طيَّبها الله لكم، وطيَّب أهلها واسمها، فهي دار السلام قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧]. (٣)

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨٧٨)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٠).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٤٠) وقال آخرون: ذواتا أغصان وأخرجه عن مجاهد.

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٣٩) يقول: ذواتا ألوان، وأحدها فن، وهو من قولهم: افتن فلان في حديثه: إذا أخذ في فنون منه وضروب وأخرجه عن ابن عباس وعكرمة.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في "زاد المسير" (٨/ ١٢٠) ذواتا أفنان فيه قولان:

أحدهما: أنها الأغصان وهي جمع فنن وهو الغصن المستقيم طولا وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطية والفراء والزجاج

والثاني: أنها الألوان والضروب من كل شيء وهي جمع فنن وهذا قول سعيد بن جبير وقال الضحاك ذواتا ألوان من الفاكهة

وجمع عطاء بين القولين فال في كل غصن فنون من الفاكهة. ونحوه قال البغوي في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٢)

وهي دار المُقامة، قال تعالى: ﴿الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥].

وسماها ربنا الحسنى، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: ٢٦].

وسماها ربنا جنات عدن، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

وسماها ربنا جنات النعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس:٩].

وسماها ربنا دار المتقين، قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣٠].

وسماها ربنا جنات الفردوس، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف:١٠٧].

وسماها ربنا جنة الخلد، قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾ [الفرقان:١٥].

وسماها ربنا الغرفة، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾ [الفرقان:٧٥].

=وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٢) وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم.

وسماها ربنا دار القرار، قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩].(١)

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ذواتا أغصان عظيمة محملة بشتى صنوف الفواكه، وكذلك ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي ذواتا ألوان من النعيم لهم فيها ما لذ وطاب، وأصناف مختلفة من النعيم.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الذي أعد لكم من كرامته هذه الأفنان.(٢)

---

(١) ينظر "التسهيل لتأويل التنزيل" ـ تفسير جزء الذاريات (٣٧٥ـ٣٧٧) للشيخ مصطفى العدوي
وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "التفسير القيم" (٥١١ـ ٥١٧) وللجنة عدة أسماء، باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات، فهي متباينة من هذا الوجه. وهكذا أسماء الرب سبحانه وتعالى، وأسماء الرب سبحانه وتعالى، وأسماء كتابه، وأسماء رسله، وأسماء اليوم الآخر، وأسماء النار.
فالاسم الأول: «الجنة» وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة، والبهجة والسرور، وقرة الأعين، وأصل اشتقاق هذه اللفظة: من التستر والتغطية، ومنه الجنين، لاستتاره في البطن، والجان لاستتاره عن العيون، والمجنّ لستره ووقايته الوجه، والمجنون لاستتار عقله وتواريه عنه. والجان، وهي الحية الصغيرة الرقيقة. أهـ وذكر اثني عشر اسما لها.

(٢) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح القدير" (٥/ ١٩٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٥﴾ فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب ولا بموضع للإنكار."، وقال الطبري في "جامع البيان"

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ تجريان بلا أخاديد(١)، وهاتان العينان غير الأنهار الأربع التي قال الله عنها: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وهنا في هاتين الجنتين عينان تجريان، تجريان حيث شاء ولي الله، تسرح في جنانك يا عبد الله حيث شئت، وهذا من تمام النعيم وعلوه.(٢)

ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ يعني من كل صنوف الفاكهة، التي تعرفونها والتي لا تعرفونها(٣)، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

= (٢٢/ ٢٤٢) يقول تعالى ذكره: فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم عليكما بإثابته هذا الثواب أهل طاعته تكذبان.

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٣) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝﴾ أي: تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان.

(٢) قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٢) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝﴾، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بالكرامة والزيادة على أهل الجنة. قال الحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل. وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١٥٢).

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٣) ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝﴾ أي: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو.(١)

حتى قال ربنا جل جلاله ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، يعني يأتيك الولدان المخلدون بالموز وبعده يأتوك بموز آخر، شبهه وشكله لكن طعمه مختلف، هذا فيه غاية من المتعة، وهذا فيه غاية من المتعة، أصناف مختلفة ولكن قد بلغت الغاية في اللذة والجمال.(٢)

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع، ويقال: الجلوس على صفة التربع(٣)، ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ بطائنها الداخلية التي لا يراها الناس من إستبرق؛ غليظ الحرير، ما بالك بالظواهر، المرتبة تُحْشَى قطن، تُحشى أسفنج، ما في إشكال، في آخر الأمر تجد شيئاً جميلاً تضعه فوق المرتبة حتى تنام عليها ويكن شكلها جميل.(٤)

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الدر المنثور" (١٤/ ١٤١) وأخرج عَبد بن حُمَيد، وَابن المنذر، وَابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ قال: فيهما من كل الثمرات قال: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل. وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٧/ ٤٥٣)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٧/ ٥٠٣).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٣) وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، يعني: أن بين ذلك بونا عظيماً، وفرقاً بيناً في التفاضل.

(٣) أورده ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٣).

(٤) قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ في "معاني القرآن" (٣/ ١١٨) الإستبرق: ما غلظ من الديباج، وَقَدْ تكون

مولاك يخبرك عن النعيم المقيم لأهل الجنة، ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا﴾ كيف لو رأيتم الظواهر؟ وهذا إخبار بالأدنى عن الأعلى، إذا كان هذا الأدنى وهو البطائن التي لا قيمة لها ولا ينظر الناس إليها، وتجعل من أي شيء، فما بالك بالأعلى الظاهر الذي يراه الناس، وقال سفيان الثوري -أو شريك -: بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد.(١)

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي ثمار الجنتين داني لولي الله، قائم يتناوله وهو قائم، جلس يتناوله وهو جالس، والله لو هو نائم ويشتهي الفاكهة يتدلى له وهو نائم، هذه الدار هي دار العمل، الآخرة لا عمل فيها، الآخرة دار الجزاء والنعيم، أو دار العذاب نسأل الله العافية والسلامة.

=البطانة: ظهارة، والظهارة بطانة فِي كلام العرب، وذلك أن كل واحد منهما قَدْ يكون وجهًا، وَقَدْ تَقُولُ العرب: هَذَا ظهر السماء، وهذا بطن السماء لظاهرها الَّذِي تراه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٥٣) (بطائنها) جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة. والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن، أي إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة.

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٤/ ٢٨٥)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٧/ ٤٥٣)، وينظر "الكشف والبيان" للثعلبي (٢٥/ ٣٥٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٥٣) عن سالم، عن سعيد، في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ قال: «ظواهرها من نور جامد».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٤) وقال سفيان الثوري -أو شريك-: بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد.

لذلك ربنا تعالى يخبرك بنعيم هؤلاء الأخيار ﴿**مُتَّكِيِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ**﴾.(١)

قال ربنا تبارك وتعالى ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ يعني الله الذي أعدَّ لكم هذه البطائن العظيمة من إستبرق وكذلك جعل جنى الجنتين دانٍ لكم، ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾.

ثم قال الكريم جل جلاله: ﴿**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**﴾ وهنَّ الحور العين، ﴿**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهن لهم، وقصرن أيضـاً طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصالهن، من حسن المرأة وجمالها زوجها لا ينظر إلى غيرها أبدا.(٢)

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٤٤) يقول: وثمر الجنتين الذي يجتنى قريب منهم، لأنهم لا يتعبون بصعود نخلها وشجرها، لاجتناء ثمرها، ولكنهم يجتنونها من قعود بغير عناء.

وقال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ في "التفسير البسيط" (٢١/ ١٨٨) وقال أبو إسحاق: تدنو منهم حتى يتناولوه بأفواههم أو بأيديهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٤) ﴿**وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ**﴿٥٤﴾﴾ أي: ثمرها قريب إليهم، متى شاءوا تناولوه على أي صفة كانوا، كما قال: ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة:٢٣]، وقال: ﴿**وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا**﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤] أي: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴿٥٥﴾﴾.

(٢) قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٣) ﴿**فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ**﴾ غاضات الأعين،

وفي قاصرات الطرف، قال النبي ﷺ، كما في الصحيح **عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ غَدْوَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ، أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطَهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».**(١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ

=قصرن طرفهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، ولا يردن غيرهم.

وقال ابن عطية رحمه الله في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٣) و: قاصِراتُ الطَّرْفِ هي الحور العين، قصرن ألحاظهن على أزواجهن.

وقال الطبري رحمه الله في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٤٥) وهن النساء اللاتي قد قصر طرفهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال وأخرجه عن مجاهد وقتادة وابن زيد قال: ال: " لا ينظرن إلا إلى أزواجهن، تقول: وعزة ربي وجلاله وجماله، إن أرى في الجنة شيئا أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي، وجعلني زوجك "

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٩٦)، وأحمد في "مسنده" (١٢٤٣٦)، وابن حبان في "صحيحه".

وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». [(١)]

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ والطمث هو الجماع [(٢)]، وقال الفراء: والطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية [(٣)]، يعني هن أبكار، الله تعالى يكرم أولياءه من أهل الجنة بالحور العين، قال تعالى عنهن ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٦-٣٨]، بفضل الله تعالى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٤٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٣٤).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٤٦) يقول: لم يمسهن إنس قبل هؤلاء الذين وصف جل ثناؤه صفتهم.

وأخرج في (٢٢/ ٢٤٧) عن عكرمة قال: " لا تقل للمرأة طامث، فإن الطمث هو الجماع، إن الله يقول: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦﴾

وقال ابن جزي الكلبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "التسهيل لعلوم التنزيل" (٢/ ٣٣١) وقيل: الطمث الجماع سواء كان لبكر أو غيرها

وقال السمين الحلبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الدر المصون" (١٠/ ١٨٢) وأصلُ الطَّمْثِ: الجماعُ المؤدِّي إلى خروجِ دمِ البِكْرِ، ثم أُطْلِقَ على كلِّ جِماع: طَمْثٌ، وإنْ لم يَكُنْ معه دمٌ.

(٣) ينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢١/ ١٨٩)، و"الوسيط" (٤/ ٢٢٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١٥٥) وروى سلمة عن الفراء قال: الطمث الافتضاض، وهو النكاح بالتدمية، والطمث هو الدم.

فائدة: وفي هذه الآية دليل قاطع على أن الجن يدخلون الجنة(١)، وكذلك أجمع السادة العلماء على أن كافر الجن يدخل النار، ومؤمن الجن يدخل الجنة، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾.(٢)

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٤) ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦**﴾ أي: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن. وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة.

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٤٧) فإن قال قائل: وهل يجامع النساء الجن، فيقال: ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦**﴾ فإن مجاهدا روي عنه «إذا جامع ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه، فذلك قوله»: ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦**﴾ وكان بعض أهل العلم ينتزع بهذه الآية في أن الجن يدخلون الجنة وأخرج عن أرطاة بن المنذر قال: سألت ضمرة بن حبيب: هل للجن من ثواب؟ قال: «نعم، ثم نزع بهذه الآية» ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦**﴾ [الرحمن: ٥٦] «فالإنسيات للإنس، والجنيات للجن».

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٥٦) في هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنيات.

وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الأشباه والنظائر" (٢٦١) لا خلاف في أن كفار الجن في النار. واختلف: هل يدخل مؤمنهم الجنة، ويثابون على الطاعة؟ على أقوال، أحسنها: نعم، وينسب للجمهور.

وقال ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٤/ ٢٣٣) لا ريب أنهم مأمورون بأعمال زائدة على التصديق ومنهيون عن أعمال غير التكذيب فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم فإنهم ليسوا مماثلي الإنس في الحد والحقيقة فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساويا لما على الإنس في الحد لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم. وهذا ما لم

ثم قال الله تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ في صفاء الياقوت والمرجان من الاحمرار، يعني طيب الوجه، أو بياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه، يعني شيء عظيم.[١]

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾

الإحسان الأول هو إحسان العمل، والإحسان الثاني هو إحسان الجزاء، يعني ربنا تعالى يقول ما جزاء من أحسن في عبادته إلا الإحسان إليهم[٢]، ويدلك هذا على أن

=أعلم فيه نزاعا بين المسلمين. وكذلك لم يتنازعوا أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار كما يدخلها من الآدميين؛ لكن تنازعوا في أهل الإيمان منهم؛ فذهب الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد: إلى أنهم يدخلون الجنة. وروي في حديث رواه الطبراني **"أنهم يكونون في ربض الجنة. يراهم الإنس من حيث لا يرونهم"**. ونحو قال ابن القيم في "التفسير القيم" (٥٠٦).

(١) ذكره ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٤). وأخرج الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٤٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٨٧٤٨)، والترمذي في "سننه" (٢٥٣٣)، وضعفه الألباني في " ضعيف الترغيب والترهيب " (٢٢٢٠) **عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ومخها، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول»: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ «أما الياقوت فإنه لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه».**

(٢) قال ابن عطية رحمه الله في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٤) والمعنى أن جزاء من أحسن بالطاعة أن

هاتين الجنتين العظيمتين أعدت للمحسنين، وهؤلاء هم المقربون، والجنتان اللتان تأتيان بعد ذلك لمنزلة أقل، جعلهما الله لأهل اليمين،

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدۡهَآمَّتَانِ ۝٦٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾

ولذلك نص الله تعالى بقوله: ﴿**وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾[1] لأن بعض أهل العلم قال ومن دونهما يعني الأقرب إلى العرش، يعني جعلوا الجنتين الأخريين أعلى من الجنتين الأوليين؛ لكن هذا خطأ من وجوه كثيرة في الآيات، والقرآن وضح أن الجنتين الأوليين أعلى أولاً، لأن الله بدأ بهما، فدل ذلك على عظيم مكانتهما، وكذلك اختلاف

=يحسن إليه بالتنعيم.

ونحوه قال البغوي في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٥)، ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٤).

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٤) هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢**﴾

وقال البغوي رَحِمَهُ اللهُ في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٦) أي من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان.

صفاتهما.[١]

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ والدون لا شك أنه أقل[١]، ثم قال جل

---

(١) قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في " تيسير الكريم الرحمن " (٨٣١) وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ وفي الأخريين: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة.

وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ ولم يقل ذلك في الأخريين. وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ وفي الأخريين ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين، بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾

وقال في الأوليين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ وقال في الأخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأوليين ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخريين، ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين، يدل على فضلهما.

فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كلا منهم لا يرى أحدا أحسن حالا منه، ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه.

جلاله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُدْهَامَّتَانِ﴾ يعني سوداوان من شدة الرِّي وشدة الاخضرار، فيراها الرائي كأنها سوداء عظيمة[٢]، أما هناك فقال الله تعالى ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وهنا في الجنتين الأخريين قال الله تعالى ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ يعني فوارتان[٣]، وأما هناك فقال الله ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ولا شك أن العينان اللتان تجريان أحسن وأجمل من اللتان في مكانهما ثابتة تنضخ.

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٥٣) قول تعالى ذكره: ومن دون هاتين الجنتين اللتين وصف الله جل ثناؤه صفتهما التي ذكر أنهما لمن خاف مقام ربه جنتان ثم اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ في هذا الموضع، فقال بعضهم: معنى ذلك: ومن دونهما في الدرج وأخرجه عن ابن عباس وابن زيد."، وقال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ في "البسيط" (٢١/ ١٩٣) وهو قول أكثر المفسرين أن هاتين دون الأوليين في الفضل، ذكر ذلك ابن زيد والكلبي وغيرهما.

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٥٤) يقول تعالى ذكره مسودتان من شدة خضرتهما. "، وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ في "معاني القرآن" (٣/ ١١٩) وقوله: مُدْهامَّتانِ يَقُولُ: خضراوان إلى السواد من الري." وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (٦/ ١٢٤)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١٦٠)، "التفسير الكبير" (٢٩/ ١١٧) للرازي.

(٣) قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٧) فوارتان بالماء لا تنقطعان "والنضخ": فوران الماء من العين، قال ابن عباس: تنضخان بالخير والبركة على أهل الجنة"، وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ في "الكشاف" (٤/ ٤٥٣) فوّارتان بالماء، والنضخ أكثر من النضح، لأنّ النضح غير معجمة مثل الرش."، وقال السمرقندي رَحِمَهُ اللَّهُ في "بحر العلوم" (٣/ ٣٨٨) يعني: ممتلئتان فوارتان. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١٦١).

ولكن أهل العلم الذين قالوا بأن الجنتين الأخريين أعلى من الأوليين قالوا نضاختان يعني تنضخ بالطيب، وتنضخ بالحور العين، وبما لذ وطاب من خيرات الجنة، قالوا ولهذا هن أكمل.

ولكن ليس على هذا دليل، وإنما نضاختان نعم تنضخ بالطيب وبما شاء الله سبحانه لكن الجنتين الأوليين أعلى بكثير من الجنتين الأخريين.(١)

كذلك هنا في هاتين الجنتين قال الله تعالى ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾ أما في الأولى قال الله ﴿**فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**﴾ هنا فيهما فاكهة لكن ليس نص على أن من كل فاكهة زوجان(٢)، قال أهل العلم وذكر الله النخل والرمان لعظيم فائدتهما،

---

(١) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٤) وقوله تعالى: وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ اختلف الناس في معنى: مِنْ دُونِهِما، فقال ابن زيد وغيره معناه: أن هذين دون تينك في المنزلة والقدرة، والأوليان جنتا السابقين، والأخريان جنتا أصحاب اليمين. قال الرماني قال ابن عباس: الجنات الأربع للخائف مَقامَ رَبِّهِ ، وقال الحسن الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين. وقال ابن عباس، المعنى: هما دونهما في القرب إلى المنعمين وهاتان المؤخرتان في الذكر أفضل من الأوليين، يدل على ذلك أنه وصف عيني هذه بالنضخ والأخريين بالجري فقط، وجعل هاتين مدهامتين من شدة النعمة، والأوليين ذواتي أفنان، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مدهامة.

قال القاضي أبو محمد: وأكثر الناس على التأويل الأول، وهذه استدلالات ليست بقواطع.

ونحوه قال الرازي في "التفسير الكبير" (٢٩/ ١١٧).

(٢) وانظر "الجامع لأحكام القرآن" (١٧/ ١٨٣) للقرطبي.

فالنخل ثمرته فاكهة وطعام، والرمان ثمره فاكهة ودواء[١]، وهناك قول لأبي حنيفة "من نذر ألا يطعم فاكهة فأكل رمان أو تمر لا يحنث في يمينه، وليس هذا بصحيح.[٢]

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٧) وقال هناك: ﴿**فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ۝٥٢**﴾، وقال هاهنا: ﴿**فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ۝٦٨**﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿**وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ۝٦٨**﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٦٢) وقال الجمهور: هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة، كقوله تعالى: ﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ**﴾ وقوله: ﴿**مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ**﴾.

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ في "الكشاف" (٤/ ٤٥٣) فإن قلت: لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها؟ قلت: اختصاصاً لهما وبياناً لفضلهما، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران، كقوله تعالى "وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ" أو لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه.

(٢) ينظر "الكشاف" للزمخشري (٤/ ٤٥٣)، و "روح المعاني" للألوسي (٢٦/ ٢٨٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ١٦٢).

وقال الكاساني رَحِمَهُ اللَّهُ في "بدائع الصنائع" (٣/ ٦٠) ولو حلف لا يأكل فاكهة فأكل تفاحا أو سفرجلاً أو كمثرى أو خوخاً أو تيناً أو إجاصاً أو مشمشاً أو بطيخا حنث وإن أكل قثاء أو خيارا أو جزرا لا يحنث وإن أكل عنبا أو رمانا أو رطبا لا يحنث في قول أبي حنيفة وعند أبي يوسف

=ومحمد يحنث ولو أكل زبيبا أو حب الرمان أو تمراً لا يحنث بالإجماع وجه قولهما أن كل واحدة من هذه الأشياء تسمى فاكهة في العرف بل تعد من رءوس الفواكه ولأن الفاكهة اسم لما يتفكه به وتفكه الناس بهذه الأشياء ظاهر فكانت فواكه ولأبي حنيفة قوله تعالى: ﴿**فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١**﴾ [عبس: ٢٧-٣١] عطف الفاكهة على العنب وقوله عز وجل: ﴿**فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۝٦٨**﴾[الرحمن: ٦٨] عطف الرمان على الفاكهة والمعطوف غير المعطوف عليه هو الأصل لأن الفاكهة اسم لما يقصد بأكله التفكه وهو التنعم والتلذذ دون الشبع والطعام ما يقصد بأكله التغذي والشبع والتمر عندهم يؤكل بطريق التغذي والشبع.

وقال ابن نجيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "البحر الرائق" (٤/ ٥٤٤) وفي البدائع: لو حلف لا يأكل فاكهة فأكل زبيبا أو تمرا أو حب الرمان لا يحنث بالإجماع والجوز رطبه فاكهة ويابسه إدام اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ في" تحفة المحتاج" (١٠/ ٤١) (قوله: وعطف الرمان) ليس في الآية ذكر العنب، عبارة الأسنى والمغني: وإنما ذكر المصنف الرطب والعنب والرمان لأجل خلاف أبي حنيفة فإنه قال: لا يحنث بها لقوله تعالى: ﴿**فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۝٦٨**﴾ [الرحمن: ٦٨] وميز العنب عن الفاكهة في سورة عبس. والعطف يقتضي المغايرة قال الواحدي والأزهري: وهو خلاف إجماع أهل اللغة فإن من عادة العرب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿**وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ**﴾ [البقرة: ٩٨] فمن قال: ليسا من الملائكة فهو كافر اهـ

وقال الخطيب الشربيني رَحِمَهُ اللَّهُ في "مغني المحتاج" (٦/ ٢١١) وإنما ذكر المصنف الرطب والعنب والرمان لأجل خلاف أبي حنيفة فيه فإنه قال: لا يحنث بها لقوله تعالى: ﴿**فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۝٦٨**﴾ [الرحمن: ٦٨] وميز العنب عن الفاكهة في سورة عبس، والعطف يقتضي المغايرة.

=قال الواحدي والأزهري: وهو خلاف إجماع أهل اللغة، فإن من عادة العرب عطف الخاص على العام كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] فمن قال: ليسا من الملائكة فهو كافر. وقال المصنف في تهذيبه: لا تعلق فيها لمن أخرج النخل والرمان من الفاكهة؛ لأنها نكرة في سياق الإثبات تصلح للقليل والكثير، فلما عطف عليها أشعر بأنه ربما لم يدخلا في قوله فاكهة ولا يلزم من هذا خروجهما من جنس الفاكهة كلها وجرى عليه ابن الرفعة في المطلب، واعترض بأنها وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإنها في سياق الامتنان، وهي تعم كما قاله القاضي أبو الطيب وغيره في الأصول فالصواب أنه من عطف الخاص على العام.

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الشرح الكبير" (١١/ ٢٣٥): (مسألة) وإن حلف على الفاكهة فأكل من ثمر الشجر كالجوز واللوز والتمر والرمان حنث وإن أكل البطيخ حنث ويحتمل أن لا يحنث) إذا حلف لا يأكل فاكهة حنث بأكل ما يسمى فاكهة وذلك كل ثمرة تخرج من الشجر يتفكه بها من العنب والرطب والرمان والسفرجل والتفاح والكمثرى والخوخ والمشمش والأترج والتوت والنبق واللوز والجميز وبهذا قال الشافعي وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وقال أبو حنيفة وأبو ثور لا يحنث بأكل ثمرة النخل والرمان لقول الله تعالى (فيهما فاكهة ونخل ورمان) والمعطوف يغاير المعطوف عليه ولنا أنها ثمرة شجرة يتفكه بها فكانا من الفاكهة كسائر الأثمار ولأنهما فاكهة في عرف الناس ويسمى بائعهما فاكهانياً وموضع بيعهما دار الفاكهة والأصل في العرف الحقيقة والعطف لتشريفها وتخصيصهما كقوله تعالى ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وهما من الملائكة، فأما يابس هذه الفواكه كالزبيب والتمر والتين والمشمش اليابس والاجاص ونحوها فهو من الفاكهة لأنه ثمر شجرة يتفكه به ويحتمل أنه ليس منها لأنه يدخر ومنه ما يقتات فأشبه الحبوب، والزيتون ليس بفاكهة لأنه لا يتفكه بأكله

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق، لأن الله رباهن سبحانه جل جلاله كرامة لأولياءه وهن الحور العين.(١)

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ وهناك ماذا قال الله؟ قال ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ قال أهل العلم قاصرات الطرف لا شك أنهن أعلى من المقصورات في الخيام،(٢) مقصورة يعني

=وإنما المقصود منه الأدم لا التفكه والبطم في معناه.

وقال الرعيني رَحِمَهُ اللَّهُ في " مواهب الجليل في شرح مختصر خليل " (٣/ ٢٩٦) (فرع) قال في القوانين من حلف أن لا يأكل فاكهة يحنث بالعنب والرمان والتفاح وغير ذلك حتى بالفول الأخضر خلافا لأبي حنيفة، ولو حلف لا يأكل تمرا حنث بالرطب، انتهى. وفي تفسير سورة قد أفلح للقرطبي: من حلف لا يأكل فاكهة ففي الرواية عندنا يحنث بالباقلاء الأخضر، انتهى.

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٨) قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه، قاله الجمهور.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في " تيسير الكريم الرحمن " (٨٣١) ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق.

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٨) ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۞﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت، وإن كان الجميع مخدرات.

محبوسة، في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن.(١)

والحوراء هي شديدة سواد العين مع شدة بياضها، بلغت الغاية في الحسن والجمال.(٢)

﴿**حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ**﴾(٣)، وكما صح **عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ،**

---

(١) قال الفراء رَحِمَهُ اللهُ في "معاني القرآن" (٣/ ١٢٠) قُصرن عَن أزواجهن، أي حُبِسنَ، فلا يُرِدْنَ غيرهم، ولا يطمحن إلى سواهم، والعرب تسمي الحَجَلة المقصورة، والقصورة، ويسمون المقصورة من النساء: قصورة:

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٥) وقوله: مَقْصُوراتٌ أي محجوبات. وكانت العرب تمدح النساء بملازمة البيوت.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ في "تيسير الكريم الرحمن" (٨٣١) ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ**﴾ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن [المخدرات] الخفرات.

وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (٨/ ٢٧٩)، و"مقاييس اللغة" لابن فارس (٥/ ٩٧).

(٢) قال الواحدي رَحِمَهُ اللهُ في "البسيط" (٢٠/ ١٢٥) وقال أبو عبيد: الحوراء: الشديدة بياض العين الشديدة سوادها"، وقال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ في "النهاية في غريب الحديث والأثر" (١/ ٤٥٨) وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها."، وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٦٦) جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها."، وقال الأزهري رَحِمَهُ اللهُ في "تهذيب اللغة" (٥/ ١٤٧) يقال لها الحوراء، سميت بذلك لأن موضعها يبيض وينظر "روح المعاني" للألوسي (٢٦/ ٢٩٢).

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٦٧) وقوله: ﴿**فِى ٱلْخِيَامِ**﴾ يعني بالخيام: البيوت،

عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا».(١)

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ۝٧٤﴾ وهنا في الجنتين الأخريين لما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**﴾، قال بعض أهل التفسير بأن هذا يرجع إلى الجنان الأربع،(٢) وأبى ذلك بعض أهل العلم.(٣)

=وقد تسمي العرب هوادج النساء خياما.

(١) **(متفق عليه)**؛أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨٧٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٣٨).

(٢) قال الواحدي رَحِمَهُ اللهُ في "الوسيط" (٤/ ٢٢٨) قوله: فيهن يعني: في الجنان الأربع، خيرات جمع خيرة، قال المفسرون: خيرات الأخلاق حسان الوجوه.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٦٢) يقول تعالى ذكره: في هذه الجنان الأربع اللواتي اثنتان منهن لمن يخاف مقام ربه، والأخريان منهن من دونهما المدهامتان خيرات الأخلاق، حسان الوجوه.

(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٦٠) إن قيل: كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين؟ قيل: الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى. ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليين من ذهب وفضة، والأخريين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأوليين

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي أن هذه الحور العين لم يطمثها أي لم يجامعها لا إنس قبل هذا العبد الصالح ولا جان.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴿٧٦﴾﴾ الرفرف قال بعض السلف كابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره قالوا هي رياض الجنة[1] وقيل هي المحابس، والمحابس هي المجالس أي البسط وهي المعروفة اليوم بالسجاجيد العظيمة الفاخرة[2] وقيل هي

=وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح القدير" (٥/ ٢٠٢) قيل وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع ولا وجه لهذا فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴿٥٨﴾﴾ وبين الصفتين بون بعيد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥١٠) وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى، وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴿٦٠﴾﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخيريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٧٣) واختلف أهل التأويل في معنى الرفرف، فقال بعضهم: هي رياض الجنة، واحدتها: رفرفة وأخرجه عن سعيد بن جبير.

(٢) ذكره الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٧٣).

المرافق، ترتفق عن يمينك وعن شمالك.[١]

وقيل الرفرف هي المحابس التي تبسط على الفراش للنوم عليها[٢]، وكل ذلك صحيح[٣] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، وأما العبقري قالوا أيضا هي السجاجيد الحسان[٤]، وقيل هي قرية ينسب إليها كل ما هو فاخر عظيم[٥]، ومنه

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٧٣) وقال آخرون: بل هي المرافق وأخرجه عن الحسن وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد.

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "معاني القرآن وإعرابه" (٥/ ١٠٥) وأما تفسير ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾ فقالوا: الرفرف ههنا رياض الجنة، وقالوا: الرفرف الوسائد، وقالوا المحابس، وقالوا أيضا فضول المحابس للفرش.

ونحوه قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٦)، والبغوي في "معالم التنزيل" (٧/ ٤٥٨)، وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ١٢٧)، و"النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٤٣).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٠٩) وقال العلاء بن بدر الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلي.

(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ١٦٩) وهذه أقوال متقاربة.

(٤) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٧٦) وأما العبقري، فإنه الطنافس الثخان، وهي جماع واحدها: عبقرية وقد ذكر أن العرب تسمي كل شيء من البسط عبقريا وأخرجه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد.

(٥) قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "التفسير الكبير" (٢٩/ ١١٩) العبقري منسوب إلى عبقر وهو عند العرب موضع من مواضع الجن فالثياب المعمولة عملاً جيداً يسمونها عبقريات مبالغة في حسنها كأنها

قول النبي - ﷺ - في عمر **"فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرْيَهُ"**.(١)

=ليست من عمل الإنس ويستعمل في غير الثياب أيضًا حتى يقال للرجل الذي يعمل عملاً عجيبًا هو عبقري أي من ذلك البلد قال (ﷺ) في المنام الذي رآه **" فلم أر عبقريًا من الناس يفري فريه "** واكتفى بذكر اسم الجنس عن الجمع ووصفه بما توصف به الجموع فقال حسان وذلك لما بينا أن جمع الرباعي يستثقل بعض الاستثقال وأما من قرأ عباقري فقد جعل اسم ذلك الموضع عباقر فإن زعم أنه جمعه فقد وهم وإن جمع العبقري ثم نسب فقد التزم تكلفًا خلاف ما كلف.

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ في "معاني القرآن وإعرابه" (٥/ ١٠٥) فأما العبقري، فقالوا: البسط، وقالوا: الطنافس المبسوطة والذي يدل على هذا من القرآن قوله: (ونمارق مصفوفة (١٥) وزرابي مبثوثة (١٦). فالنمارق الوسائد، والزرابى البسط. فمعنى " رفرف " ههنا، و " عبقري " أنه الوسائد والبسط. ويدل - والله أعلم - على أن الوسائد ذوات رفرف، وأصل العبقري في اللغة صفة لكل ما بولغ في وصفه، وأصله أن عبقر اسم بلد كان يوشى فيه البسط وغيرها، فنسب كل شيء جيد، وكل ما بولغ في وصفه إلى عبقر. قال زهير:

بخيل عليها جنة عبقرية. . . جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

ونحوه قال ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٦)، وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ١٢٨)، و"النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٤٣)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٧/ ٥١٠).

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٦٨٢)، ومسلم في "صحيحه" (٢٣٩٣) **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أُرِيتُ كَأَنِّي أَنْزِعُ بِدَلْوِ بَكْرَةٍ عَلَى قَلِيبٍ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، فَنَزَعَ نَزْعًا ضَعِيفًا وَاللهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ،**

حسان يعني غاية في الحسن.

قال ربنا تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٧٧﴾ يعني الله الذي أعد لكم هذا الثواب والنعيم العظيم فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس.[١]

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ۝٧٨﴾ اسم الله مبارك، إذا ذكر اسم الله على قليل كثَّره، وإذا ذكر لخائف أمَّنه، وإذا ذكر على مستوحش آنسه، وإذا ذكر على الذبيحة طيَّبها وأحلها، وإذا لم يذكر اسم الله عليها صارت ميتة، اسم الله إذا ذكر عند جماع الرجل لأهله بارك الله في الذرية، كما في قول الله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ۝٥٦﴾ يذكر أهل العلم[٢] حديث النبي ﷺ في الصحيحين

=فَاسْتَقَى فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرْيَهُ، حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ وَضَرَبُوا الْعَطَنَ».

(١) قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في "التحرير والتنوير" (٢٧/ ٢٧٦) هذه الجملة آخر الجمل المكررة وبها انتهى الكلام المسوق للاستدلال على تفرد الله بالإنعام والتصرف.

(٢) قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره" (٣٢٤) ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ۝٧٨﴾ ختم الله تبارك وتعالى هذه السورة بهذه الجملة العظيمة، أي ما أعظم بركة الله -عز وجل -وما أعظم البركة باسمه، حتى إن اسم الله يحلل الذبيحة أو يحرمها، لو ذبح الإنسان ذبيحة ولم يقل باسم الله تكون ميتة حراماً نجسة مضرة على البدن، حتى لو ذبح ونسي أن يقول: بسم الله. فهي حرام نجسة تفسد البدن، فيجب أن يسحبها للكلاب، لأنها نجسة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] فانظر البركة، والإنسان إذا توضأ ولم يسم فوضوؤه عند بعض العلماء فاسد لابد من الإعادة، لأن البسملة واجبة عند

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا ".(١)

كما جاء عن مجاهد إن الذي بجامع ولا يسمي يلتف الشيطان على إحليله فيجامع معه.(٢)

فلذلك ختم السورة باسمه كما بدأها، ﴿**الرَّحْمَنُ**﴾ [الرحمن: ١]، ختمها بقوله: ﴿**تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨**﴾(٣) فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَلِظُّوا بِيَا**

=بعض أهل العلم، والإنسان إذا رأى الصيد الزاحف، أو الطائر فيرميه ولم يسمِ يكون هذا الصيد حراماً ميتة نجساً مضراً على البدن، فانظر البركة، والإنسان إذا أتى أهله يعني جامع زوجته وقال: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا» كان هذا حماية لهذا الولد الذي ينشأ من هذا الجماع، حماية له من الشيطان، قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا. فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً.

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤١)، ومسلم في "صحيحه" (١٤٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٤٨) عن مجاهد قال: «إذا جامع ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه، فذلك قوله» وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٧/ ٤٥٤)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢١/ ١٩٠).

(٣) قال الرازي رَحِمَهُ اللهُ في "التفسير الكبير" (٢٩/ ١٢٠) ختم نعم الآخرة بقوله ﴿**تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨**﴾ إشارة إلى أن الباقي والدائم لذاته هو الله تعالى لا غير والدنيا فانية

ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ».(١) والمعنى اجتهدوا وأكثروا من الدعاء بيا ذا الجلال والإكرام ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ۝٧٨﴾.(٢)

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة الرحمن بفضل الله ومنته.

****

=والآخرة وإن كانت باقية لكن بقاؤها بإبقاء الله تعالى.

وقال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ في "البحر المحيط" (٨/ ١٩٨) ولما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله: ﴿**وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ۝٢٧**﴾، ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿**تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ۝٧٨**﴾، وناسب هنالك ذكر البقاء والديمومة له تعالى، إذ ذكر فناء العالم؛ وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة، وهي النمو والزيادة، إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين، وما آتاهم في دار كرامته من الخير وزيادته وديمومته، ويا ذا الجلال والإكرام من الصفات التي جاء في الحديث أن يدعى الله بها، **قال ﷺ: "ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام"**.

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٥٢٥)، وأبو يعلى في "مسنده" (٣٨٣٣)، والطبراني في "الدعاء" (٩٣)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٥٣٦).

(٢) ينظر "معالم السنن" للخطابي (٣/ ٣٢٨) وقال ابن رسلان رَحِمَهُ اللَّهُ في" شرح سنن أبي داود" (١٧/ ٤٤٥) "ألظَّ" بفتح الهمزة واللام وبالظاء المعجمة المشددة، أي: ألزمه القسم وألح عليه، ومنه الحديث: "ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام" أي: الزموه وأكثروا من قوله، يقال: هو ملظ بفلان. أي: لا يفارقه. وقيل: الإلظاظ: الإلحاح."، وينظر "العين" للخليل بن أحمد (٨/ ١٥١)، و" تهذيب اللغة" للأزهري (١٤/ ٢٥٩)، و"النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير (٤/ ٢٥٢).

﴿ سُورَةُ الْوَاقِعَةِ ﴾

سورة الواقعة سورةٌ مكيةٌ إلا قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] فمدنيةٌ، وآيها ستٌّ وتسعون، نزلت بعد سورة طه.(١)

مناسبتها لما قبلها:

١ - أن في كلٍّ منهما وصفَ القيامة والجنة والنار.

٢ - أنه سبحانه ذكر في السورة السابقة عذابَ المجرمين ونعيمَ المتقين، وفاضَلَ بين جنتي بعض المؤمنين وجنتي بعضٍ آخر منهم، وبَيَّنَ هنا انقسامَ المكلَّفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنةٍ وأصحاب مشأمةٍ وسابقين.

٣ - أنه سبحانه ذكر في سورة الرحمن انشقاق السماء، وذكر هنا رجَّ الأرض، فكأنَّ السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعـًا سورةً واحدةً مع عكسٍ في الترتيب، فقد ذكر في أول هذه ما في آخر تلك، وفى آخر هذه ما في أول تلك.(٢)

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور " (١٤/ ١٧٣) أَخْرَج ابن الضريس والنحاس، وَابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة الواقعة بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مثله.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ١٧٥) سورة الواقعة مكية، وهي سبع وتسعون آية مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

(٢) المراغي في " تفسيره " (٢٧/ ١٣١).

فضل سورة الواقعة:

١ـ مما ورد في فضل سورة الواقعة أن النبي ﷺ كان يصلي الفجر بسورة الواقعة.

كما رواه الإمام أحمد بسند حسن **عن جَابِرِ بْنَ سَمُرَةَ رضي الله عنه، قال: " كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كَنَحْوٍ مِنْ صَلَاتِكُمُ الَّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ، كَانَتْ صَلَاتُهُ أَخَفَّ مِنْ صَلَاتِكُمْ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ الْوَاقِعَةَ وَنَحْوَهَا مِنَ السُّوَرِ ".**(١)

٢ـ و ما ورد **عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شِبْتَ، قَالَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»**.والراجح ضعف هذا الحديث.(٢)

٣ـ وكذلك حديث **شُجَاعِ بْنُ أَبِي فَاطِمَةَ قَالَ: قَالَ عُثْمَانُ لِابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهما: أَلَّا آمُرُ لَكَ بِعَطَائِكَ؟ قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، قَالَ: يَكُونُ لِبَنَاتِكَ قَالَ: إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ بَنَاتِي أَنْ يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ كُلَّ لَيْلَةٍ - أَوْ**

---

(١) **(حسن)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٠٩٩٥)، وابن خزيمة في " صحيحه " (٥٣١)، وابن حبان في " صحيحه " (١٨٢٣)، والحاكم في " المستدرك " (٨٧٥)، والطبراني في " المعجم الكبير " (١٩١٤)، وصححه الألباني في " أصل صفة الصلاة " (٢/ ٤٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٢٩٧) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، والحاكم في " المستدرك " (٣٣١٤) والطبراني في " الأوسط " (٨٢٦٩).

قال أبو حاتم رحمه الله في " العلل " (١٨٢٦): المرسل أصح، وحكم عليه الدارقطني في " العلل" (١٧) أنه مضطرب، وضعفه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء الذاريات ـ ص (٤٥٧) وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٥٥).

قَالَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ - سُورَةَ الْوَاقِعَةِ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا» وهذا الحديث أيضا الراجح ضعفه.[١]

قال الله عز وجل:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤
وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ
مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ
ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢ ﴾

ذكر الله عز وجل أنه حين تقع الواقعة ويجيء يوم القيامة، لا تكذب نفسٌ على الله فتنكره، إذ تحقق بالمعاينة وشهده كلُّ أحدٍ، أما في الدنيا فما أكثر النفوس المكذبة به، المنكرة له، لأنهم لم يذوقوا العذاب كما عاينه المعذَّبون في الآخرة.

ثم وصف سبحانه هذه الواقعة بأنها تخفض أقوامـًا وترفع آخرين، وأن الأرض حينئذٍ تتزلزل فيندك ما عليها من جبالٍ وأبنيةٍ، وأن الجبال تتفتت وتصير كالغبار المنتشر في الجو، وأن الناس إذ ذاك ينقسمون أفواجـًا ثلاثةً: أصحاب الميمنة،

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه أحمد في " فضائل الصحابة " (١٢٤٧)، وابن السني في " عمل اليوم والليلة " (٦٨٠)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (٢٢٦٧)، وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة " (٢٨٩)، وضعفه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " - تفسير جزء الذاريات - ص (٤٥٧)

وأصحاب المشئمة، والسابقون.[١]

والواقعة هي يوم القيامة، وسُمِّيَ يوم القيامة بالواقعة لتحقق وقوعه، فلا بد أن يقع حتمـًا.[٢]

قوله عز وجل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ②﴾ يعني هذه الواقعة لا بد من وقوعها، فليس هناك صارفٌ يصرفها، ولا دافعٌ يدفعها، بل هي حقٌّ وصدقٌ، قال الله: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ④⑦﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال جل ذكره: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ② مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ③﴾ [المعارج: ١-٣]، وقال جل جلاله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ⑦③﴾ [الأنعام: ٧٣].[٣]

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٣١)

(٢) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٢٧٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ①﴾ «الواقعة والطامة والصاخة، ونحو هذا من أسماء القيامة، عظمه الله، وحذره عباده».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥١٣) الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ①⑤﴾ [الحاقة: ١٥].

(٣) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥١٣).

قوله سبحانه وتعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي: تحفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء.

تخفض أقواماً من أهل الفسق والفجور والكفر بالله تعالى، وترفع أقواماً هم أهل الإيمان بالله عز وجل.(١)

وقيل: خفضت الصوت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى.(٢)

موعظةٌ: إذا تذكر العبدُ أن أناساً في هذا اليوم سيُرفعون حتى يكونوا عن يمين عرش الرحمن، وأناساً يُرفعون حتى يغبطهم النبيون والشهداء، وما هم بأنبياء ولا شهداء، وآخرين يُرفعون حتى يكونوا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأقواماً يُكرمون بالجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ، وهؤلاء الذين أطاعوا الله ورسوله ﷺ، وفي المقابل يُخفض أقوامٌ إلى أسفل دركات النار، فإذا تذكر العبد هذا، فينبغي عليه أن يشغل نفسه بما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه، ويعلم أنه لا نجاة له ولا خلاص إلا بالإيمان والولوج إلى الرحمن، بالإيمان والعمل الصالح، فليس لنا إلا هذا العمل العظيم الذي يقربنا من الله ربنا سبحانه جل جلاله.

أعمالٌ ترفع أصحابها يوم القيامة:

يرفع الله المتواضعين يوم القيامة، ويخفض المتكبرين، ففي حديث **أبي هريرة**

---

(١) حكاه ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥١٣) عن الحسن وقتادة، وغيرهما.

(٢) ذكره عكرمة، يُنظر: الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٢٨٠)، و"تفسير الماوردي" (٥/ ٤٤٦).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله رجلاً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله".[1]

ويخفض الله المتكبرين، كما قال ﷺ: **"يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ مِنْ جَهَنَّمَ يُسَمَّى: بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، وَيُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةَ الْخَبَالِ".**[2]

والذرُّ هو النملُ الصغيرُ جداً، أو الذرات التي لا تُرى بالعين المجردة، أو لو أنه جاء شعاعٌ من الشمس فترى فيها ذرات بعض المرات.[3]

فهؤلاء المتكبرون الذين كانوا يتعاظمون على الخلق، يُحشرون يوم القيامة

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٥٨٨)، والترمذي في "سننه" (٢٠٢٩)، وأحمد في "مسنده" (٧٢٠٦)، وابن خزيمة في "صحيحه" (٢٤٣٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **(حسن)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد" (٥٥٧)، والترمذي في " سننه " (٢٤٩٢)، وأحمد في " مسنده " (٦٦٧٧)، وحسنه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب" (٣/ ١٠٧) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ.

(٣) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح القدير" (٥/ ٦٨١) وقال بعض أهل اللغة: إن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو الذرة وقيل الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

وقال عطية سالم رَحِمَهُ اللَّهُ في "تتمة أضواء البيان" (٩/ ٥٩) ومثقال الذرة، قيل: هي النملة الصغيرة وقيل: هي الهباء التي ترى في أشعة الشمس، وكلاهما مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كأمثال الذَّرِّ، يطؤهم الناس[١] من الذل، نسأل الله العافية والنجاة.

ويرفع الله من أراد رفعته، ممن استمسك بكتابه، واعتصم بهديه، واتبع سنة حبيبه ﷺ، **وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين".**[٢]

وفي حديث **عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا".**[٣]

فالرفع والخفض يوم القيامة لا يكون بالأحساب، ولا بالأنساب، ولا بالقوة، ولا بالجمال، ولا بشيءٍ من ذلك، ولعل إنساناً دميم الوجه يستقذره الناس، يرفعه الله رفعةً عاليةً جداً.

---

(١) (موضوع) أخرجه البزار كما في "كشف الأستار" للهيثمي (٣٤٢٩)، وحكم عليه بالوضع الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٥٠١٠) **عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " يَبْعَثُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسًا فِي صُوَرِ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ، فَيُقَالُ: مَا هَؤُلاءِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ؟ فَيُقَالُ: هَؤُلاءِ الْمُتَكَبِّرُونَ فِي الدُّنْيَا".**

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٨١٧)، وابن ماجه في " سننه " (٢١٨)، وأحمد في " مسنده " (٢٣٢)، وابن حبان في "صحيحه " (٧٧٢).

(٣) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٩١٤)، وأبو داود في " سننه " (١٤٦٤)، والنسائي في " الكبرى " (٨٠٠٢)، وأحمد في " مسنده " (٦٧٩٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٦٦)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٢٤٠).

ولعلك سمعت نبأ جليبيب، وهو رجلٌ فقيرٌ، لا حسب له، ولا نسب، قصير القامة، دميم الوجه، ومع ذلك رفعه الله.

فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى جُلَيْبِيبٍ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى أَبِيهَا، فَقَالَ: حَتَّى أَسْتَأْمِرَ أُمَّهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " فَنَعَمْ إِذًا" قَالَ: فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى امْرَأَتِهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا، فَقَالَتْ: لَاهَا اللهُ إِذًا، مَا وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا جُلَيْبِيبًا وَقَدْ مَنَعْنَاهَا مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ؟ قَالَ: وَالْجَارِيَةُ فِي سِتْرِهَا تَسْتَمِعُ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ؟ إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لَكُمْ، فَأَنْكِحُوهُ قَالَ: فَكَأَنَّهَا جَلَّتْ عَنْ أَبَوَيْهَا، وَقَالَا: صَدَقْتِ. فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ قَدْ رَضِيتَهُ فَقَدْ رَضِينَاهُ. قَالَ: " فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهُ". فَزَوَّجَهَا، ثُمَّ فُزِّعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، فَرَكِبَ جُلَيْبِيبٌ فَوَجَدُوهُ قَدْ قُتِلَ، وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ قَتَلَهُمْ، قَالَ أَنَسٌ: " فَلَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَمِنْ أَنْفَقِ ثَيِّبٍ فِي الْمَدِينَةِ "(١)

وفي حديث أَبِي بَرْزَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، كَانَ فِي مَغْزًى لَهُ، فَأَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا، وَفُلَانًا، وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا، وَفُلَانًا، وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا، فَاطْلُبُوهُ فَطُلِبَ فِي الْقَتْلَى، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: قَتَلَ سَبْعَةً، ثُمَّ قَتَلُوهُ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، هَذَا

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٢٣٩٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٠٥٩)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيق مسند أحمد.

مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ قَالَ: فَوَضَعَهُ عَلَى سَاعِدَيْهِ لَيْسَ لَهُ إِلاَّ سَاعِدَا النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَحُفِرَ لَهُ وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ غَسْلاً."(١)

قوله تعالى: ﴿**إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا**﴾ ﴿**رُجَّتِ**﴾ أي زلزلت كما قال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كما يرج الغربال بما فيه.(٢)

عندما يوضع الحب في الغربال ويرج تزلزل، ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ**﴾ [الحج: ١].

﴿**إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا**﴾ يعني لو سألت متى تكون هذه الواقعة؟ فهذه علاماتها الكبرى، تُرَجُّ الأرضُ رجًّا، ويَحدُثُ زلزالٌ عظيمٌ، وهذا الزلزال العظيم يُبِيدُ كلَّ شيءٍ على وجه الأرض، فلا يبقى لا عماراتٌ ولا جبالٌ ولا شيءٌ.

﴿**وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا**﴾ [الواقعة: ٥] بُسَّتْ: أي فُتِّتَتْ وصارت مثل الدقيق عندما يُخْلَطُ بالماءِ أو السَّمْنِ، فيصير ناعمـًا جداً(٣)، كما قال الله جل جلاله ﴿**وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً**﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال سبحانه ﴿**وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا**

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٤٧٢)، والنسائي في "الكبرى" (٨١٨٩)، وأحمد في "مسنده" (١٩٧٧٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٠٣٥).

(٢) نقله الماوردي في " النكت والعيون " (٥/ ٤٤٦)، وينظر" تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥١٤) لابن كثير.

(٣) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٢٨٢).

﴿تَفۡعَلُونَ ٨٨﴾ [النمل: ٨٨]، ونحن الآن لو أردنا أن نمرر طريقـًا من وسط جبل بقدركيلو متراً مثلاً، فإنه يستغرق وقتـًا طويلاً جداً، شهوراً أو سنواتٍ، ويحتاجون إلى آلاتٍ تُكَلِّفُ الملايين، وربُّك جل جلالُه إذا أراد شيئـًا قال له كن فيكون، سبحانه عز وجل.

قال تعالى ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "الهباء: الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا".[1]

وقال عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ: "المنبث هو الذي ذرته الريح وبثته".[2]

وكذلك قال بعض سلفنا الصالح: "هو يَبِيسُ الشجر الذي تذروه الرياح".[3]

يعني إذا تساقط ورق الشجر ويَبُس، وتأتي الريح تعصف به عصفـًا.

فهذه الجبالُ الصُّمُّ الرواسي، تصير هباءً مُنْبَثًّا، يعني تزول ولا يبقى لها أَثَرٌ، لأنه إذا جاءت القيامة ﴿تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: ٤٨] تأتي أرضٌ غيرُ هذه الأرضِ لا مَعْلَمَ لأحدٍ فيها، ولا أَثَرَ لأحدٍ فيها، نسأل الله حسن الخاتمة.

قال جل جلاله: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧﴾ يعني ينقسم الناس في هذا اليوم العصيب، إلى أصنافٍ ثلاثةٍ.

كما قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧﴾ أي: ينقسم

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٨٥).

(٢) نقله ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥١٥).

(٣) نقله الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٨٥)، وأخرجه عن قتادة.

الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصنافٍ:

قومٌ عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا مِن شِقِّ آدمَ الأيمنِ، ويُؤْتَوْنَ كُتُبَهُم بأيمانهم، ويُؤخَذُ بهم ذاتَ اليمين، قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة.

وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شِقِّ آدمَ الأيسرِ، ويُؤْتَوْنَ كُتُبَهُم بِشَمائِلِهِم، ويُؤخذُ بهم ذاتَ الشمال، وهم عامة أهل النار -عياذا بالله من صنيعهم-.

وطائفةٌ سابقون بين يديه وهم أَخَصُّ وأحظى وأقربُ مِن أصحابِ اليمينِ الذين هم سادتُهُم، فيهم الرسلُ والأنبياءُ والصدِّيقون والشُّهداءُ، وهم أقلُّ عدداً مِن أصحابِ اليمين؛

ولهذا قال: ﴿**فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠**﴾ وهكذا قَسَّمَهُم إلى هذه الأنواعِ الثلاثةِ في آخِرِ السُّورةِ وَقْتَ احتضارِهِم، وهكذا ذَكَرَهُم في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢**﴾ [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه. أهـ[١]

أي على تفسير أن الظالم لنفسه كافر، ولكن الراجح أن الظالم لنفسه هو مِن هذه الأمة، أنه ظالمٌ لنفسه مُقَصِّرٌ في الفرائضِ، ومُنْتَهِكٌ للحرام، وأما المقتصد فهو الذي

---

(١) ذكره "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥١٥).

أدَّى الفرائضَ فقط ولم يفعل النوافل، ولم يقع فيما حَرَّمَ الله عليه، وأما السابقُ بالخيرات فهذا الذي فتح الله عليه شَتَّى أبوابِ الخَيْرِ وأبوابِ البِرِّ(١)، فلذلك قسمهم الله عز وجل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

ويعني بسورة الملائكة: سورة فاطر.

وقال ابن جريج رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة الملائكة.(٢)

وقال مجاهد رحمه الله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال يعني: فرقا ثلاثة.(٣)

ولك أن تعلمَ أنَّ كُلَّ عَبْدٍ يُحْشَرُ يومَ القيامة مَعْ مَنْ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ، قال تعالى

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في " تفسير القرآن العظيم " (٦/ ٥٤٦) ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

(٢) أخرجه ابن المنذر، وَابن أبي حاتم، وَابن مردويه " الدر المنثور " (١٤/ ١٧٧)، " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥١٥).

(٣) ذكره "تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٧/ ٥١٥).

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال سبحانه ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، فأهلُ الخيرِ وأهلُ البِرِّ تُحْشَرُ كلُّ طائفةٍ منهم يومَ القيامةِ مع مَن كانت تَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهَا، فالعلماءُ سَوِيًّا، والعُبَّادُ سَوِيًّا، وأهلُ بِرِّ الوالدين سَوِيًّا، وأهلُ النَّفَقَةِ سَوِيًّا، وأهلُ الصَّلاةِ والمواظبون عليها والمحبون لها سَوِيًّا.

كما أنَّ أهلَ الرِّبَا يُحْشَرُون سَوِيًّا، والمتكبرون كذلك يُحشرون سَوِيًّا، والظلمة الجبابرة يُحْشَرُون سَوِيًّا، وهكذا، نسأل الله أن يحشرنا مع خير عباده يا رب العالمين، وأن يُظِلَّنَا في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه.

قال الله تبارك وتعالى ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي: الشمال، ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩﴾ تهويل لحالهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها.

وهؤلاء المذكورون ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

فصَّلَ سبحانه أحوالَ الأزواجِ الثلاثةِ، فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ٨﴾ تعظيمٌ لشأنهم، وتفخيمٌ لأحوالهم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: الشمال، ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ٩﴾ تهويلٌ لحالهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ فيها أقوالٌ لأهلِ العلمِ:

١ ـ منهم من قال: همُ الأنبياءُ الكرامُ عليهم الصلاةُ والسلامُ، قاله محمد بن كعب رَحِمَهُ ٱللَّهُ. (١)

٢ـ وأخرج ابن أبي حاتم، وَابن مردويه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ قال: يُوشَعُ بنُ نون سَبَقَ إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومؤمنُ آلِ يس سَبَقَ إلى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سبق إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (٢)

٣ـ قال بعضهم: هم الذين صلوا للقبلتين، قاله ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ. (٣)

يعني أسلموا قديما، وصلوا إلى بيت المقدس، وصلوا إلى الكعبة المشرفة.

٤ـ وقال بعضهم: هم الأسبقون إلى الإيمان مِن كُلِّ أُمَّةٍ، قاله الحسن،

---

(١) نقله الماوردي في "النكت والعيون" (٥/ ٤٤٨).

(٢) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (١٤/ ١٧٨).

(٣) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٢٩٠).

وقتادة.[١] وهذا صحيحٌ، لاشَكَّ فيه.

٥ـ عن عثمان بن أبي سودة قال: «أوَّلُهم رَواحـًا إلى المساجد، وأَسْرَعُهُم خُفُوقـًا في سبيل الله».[٢]

يعني يتنافس المرء مع إخوانه أيهما يذهب إلى بيت الله أولا، نسأل الله أن يحفظ المتسابقين للخيرات، وما زال في الأمة الكثير مِنْ هذه النماذج.

أرسل أحدُ الجزائريين لبعض مشايخنا قريبـًا سؤالاً، يقول فيه: يا شيخ عندنا في مسجدنا يمتلىءُ الصفُّ الأولُ قبل أذان الفجر بساعةٍ، قال: فأنا حتى أَحْجِزَ لي مكانـًا في الصفِّ الأولِ أذهبُ قبل ذلك بوقتٍ، وأصلي قيام الليل هناك في المسجد، ثم بدا لي لو أني صليتُ في بيتي كان أخفى لعملي وأتقى لربي؛ حيث أصلي مثل هذه الصلاة سراً، ولكني لو صليتُ وذهبتُ على الأذان أصلي في الصف الثاني أو الثالث أو الرابع، فأيُّهما أعظمُ أجراً؟!

هذه صورةٌ عظيمةٌ، صورةٌ بهيةٌ، صورةٌ مشرقةٌ، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يتسابقون في الخيرات حتى نسبق إلى الجنان وإلى الدرجات يوم القيامة.

واعلم أنه على حَسَبِ أعمال الناس وسَبْقِهِمْ وتَأَخُّرِهِم في الدنيا، على حَسَبِ سَبْقِهِم وتَأَخُّرِهِم يوم القيامة، فمن سَبَقَ إلى الخيرِ، وإلى العِلْمِ، وإلى النفقةِ، وإلى الصلاةِ، وإلى بِرِّ الوالدين، وإلى الإحسانِ، وإلى المساكين، فإنه يَسْبِقُ الناسَ يوم

---

(١) ذكره الماوردي "النكت والعيون " (٥/ ٤٤٨).

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان " (٢٢/ ٢٩٠).

القيامة،ويكون مِن عباد الله السابقين

ومن يَتَلَكَّأُ، أو يَتَأَخَّرُ، أو يبخلُ بماله، أو يبخلُ عن بِرِّ والديه، فهذا يكون متأخراً، فاسبقوا عبادَ الله وتسابقوا، نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لكلِّ خيرٍ يا رب العالمين.

والشاهدُ أن السابقين على القول الراجح هم كلُّ مَنْ سَبَقَ إلى فِعْلِ الخيرات، وتَسَابَقَ فيها، وكان دَأْبُهُ ودَيْدَنُهُ ﴿**فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ**﴾ [البقرة: ١٤٨]، ودَأْبُهُ ودَيْدَنُهُ ﴿**۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴿١٣٣﴾**﴾ [آل عمران: ١٣٣] فهؤلاء مِنَ السابقين مِن كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ، وأَعْظَمُهُم مِنْ أُمَّةِ محمدٍ صلواتُ ربي وسلامُه عليه.(١)

قال الله تعالى ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴿١٢﴾**﴾ [الواقعة: ١١-١٢]

وهنا ساق الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى حديثا جميلا، عن عبد الله بن عمروٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال : قالت الملائكة : يا رب ، جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥١٧) وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [الحديد: ٢١]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴿١٢﴾**﴾.

ويتزوجون ، فاجعل لنا الآخرة، فقال : لا أفعل، فراجعوا ثلاثـًا، فقال : لا أجعل مَنْ خَلَقْتُ بيدي كمَنْ قُلْتُ له : كن ، فكان.

وفي رواية قال "لن أجعل صالحَ ذريةِ مَن خَلَقْتُ بيدي كَمَنْ قُلْتُ له كُن فكان"(١)

ففيه أن صالحي المؤمنين يوم القيامة أفضلُ وأجلُّ مِن الملائكة المقربين، وقد تنازع أهل العلم هل الملائكةُ أفضلُ أم صالحُ بني آدم؟

فقال بعضهم: الملائكةُ أفضلُ؛ لأنهم لا يعصون اللهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقال بعضُهُم: بل صالحُ بني آدم أفضلُ؛ لأنهم يُنازعون النَّفْسَ، وينازعون الشيطان، فالصالحُ فيهم له منزلةٌ عَلِيَّةٌ عند الله عز وجل.(٢)

---

(١) عزاه ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥١٧) إلى ابن أبي حاتم، ثم قال: وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه: "الرد على الجهمية"، ولفظه: فقال الله عز وجل: "لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان".

(٢) قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ في " شرح الطحاوية " (٢/ ٤١٠) وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَصَالِحِي الْبَشَرِ، وَيُنْسَبُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ تَفْضِيلُ صَالِحِي الْبَشَرِ وَالْأَنْبِيَاءِ فَقَطْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَإِلَى الْمُعْتَزِلَةِ تَفْضِيلُ الْمَلَائِكَةِ. وَأَتْبَاعُ الْأَشْعَرِيِّ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يُفَضِّلُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ وَلَا يَقْطَعُ فِي ذَلِكَ قَوْلًا. وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ مَيْلُهُمْ إِلَى تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ. وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ.
وَقَالَتِ الشِّيعَةُ: إِنَّ جَمِيعَ الْأَئِمَّةِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَصَّلَ تَفْصِيلًا آخَرَ. وَلَمْ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم: "أما بالنسبة لأول الأمر فالملائكة أفضل، ولكن في المآل وفي الختام صالحُ بني آدم أفضلُ مِن الملائكة، لأن مآلهم الجنان، والله أعلم.(١)

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

بعد أن ذَكَرَ سبحانه أن الناس يوم القيامة أصنافٌ ثلاثةٌ: سابقون، وأصحابُ ميمنةٍ، وأصحابُ مشأمةٍ، أَعْقَبَ ذلك بذكرِ ما يتمتع به السابقون مِن النَّعيمِ في فُرُشِهِمْ

=يَقُلْ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ قَوْلٌ يُؤْثَرُ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ دُونَ بَعْضٍ. وَكُنْتُ تَرَدَّدْتُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، لِقِلَّةِ ثَمَرَتِهَا، وَأَنَّهَا قَرِيبٌ مِمَّا لَا يَعْنِي، وَ «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».

(١) قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في " مجموع الفتاوى " (٤/ ٣٤٣) سئل شيخ الإسلام:
عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل فأجاب: بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر. وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير صالحو البشر أكمل من حال الملائكة.

وطعامِهِم وشرابِهِم ونِسَائِهِمْ وأحَادِيثِهِم التي تدل على صفاءِ النَّفْسِ، وأَدَبِ الخُلُقِ، وسُمُوِّ العَقْلِ.

قوله سبحانه ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ قال بعضُ أهلِ العلمِ: أي جماعةٌ مِن الأُمَمِ الماضيةِ، وقليلٌ مِن أُمَّةِ محمدٍ ﷺ، وهم الآخِرون، وقيل لهم الآخِرون: لأنهم آخِرُ الأُمَمِ، وهذا الذي اختاره إمام أهل التفسير ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره.[1]

واسْتَأْنَسَ بقولِ النبيِّ ﷺ **"نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة"**.[2]

وقد خطَّأَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القولَ، وقال: " وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿الأولين﴾، و ﴿الآخرين﴾، فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة، هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصري، رواها عنهما ابن أبي حاتم. وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة" ولم يحكِ غيرَه ولا عزاه إلى أَحَدٍ... وهذا الذي اختاره ابنُ جريرٍ هاهنا، فيه نَظَرٌ، بل هو قولٌ ضعيفٌ؛ لأن هذه الأُمَّةَ هي خيرُ الأُمَمِ بِنَصِّ القرآن، فيَبْعُدُ أن يكون المُقَرَّبُونَ في غيرها أكثرَ منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهرُ أن المُقَرَّبين مِن هؤلاء أكثرُ مِن سائرِ الأُمَمِ، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام، هو الراجح، وهو

---

(١) ذكره الطبري "جامع البيان " (٢٢/ ٢٩١).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٨٧٦) ومسلم في " صحيحه " (٨٥٥) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أن يكون المراد بقوله: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾**﴾ أي: من صدر هذه الأمة، ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾**﴾ أي: من هذه الأمة...

ـ ثم أورد آثاراً عن الحسن وابن سيرين، ثم قال ـ: فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أوَّلَ كلِّ أُمَّةٍ خيرٌ مِن آَخِرِهَا، فَيُحْتَمَلُ أن يَعُمَّ الأمرُ جميعَ الأممِ كلَّ أُمَّةٍ بحسبها؛ ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها، من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: "**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**"[١] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زياد أبو عمر، عن الحسن، **عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره"**[٢]، فهذا الحديث، بعد الحكم بصحة إسناده، محمولٌ على أن الدينَ كما هو مُحتاجٌ إلى أوَّلِ الأمة في إبلاغه إلى مَن بعدهم، كذلك هو محتاجٌ إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياجُ الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض، ولا تعلق أساسُه فيها؛ ولهذا قال، ﷺ: "**لا تزال طائفةٌ مِن أمتي ظاهرين على الحق، لا**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٦٥٠) ومسلم في " صحيحه " (٢٥٣٥) عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما.

(٢) **(حسن)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٨٦٩) وأحمد في " مسنده " (١٢٣٢٧) والطبراني في " الأوسط " (٤٠٥٨) وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٢٨٦).

يضرُّهُم مَن خَذَلَهُم، ولا مَن خالفهم، إلى قيام الساعة". وفي لفظٍ: **"حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلك"**.

والغرضُ أن هذه الأمةَ أشرفُ مِن سائِرِ الأُمَمِ، والمُقَرَّبُون فيها أكثرُ مِن غيرها وأعلى منزلةً؛ لشرفِ دينِها وعِظَمِ نَبِيِّها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفـًا يدخلون الجنة بغير حساب[(١)]، وفي لفظ: **"مع كل ألفٍ سبعون ألفـًا"**[(٢)]، وفي آخر: **"مع كلِّ واحدٍ سبعون ألفـًا"**[(٣)]. أهـ[(٤)]

ولا شك أن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة، ولا شك أيضـًا أن الخير في أوَّلِ الأمةِ أعظمُ مِنَ الخيرِ في آخرها، ولكن هذا يدلُّك على أن الخيرَ باقٍ في هذه الأمة، وعلى أن الأمة كما أنها احتاجت إلى الصحابة الكرام وإلى التابعين وإلى أتباع التابعين في قيام هذا الدين، كذلك هذا الدين يحتاج إلى آخِرِ هذه الأمة، إلى رجالٍ ونساءٍ يقومون بهذا الدين، كما قام به أولُ هذه الأمة والفضلُ للمتقدم، كالزرع يحتاج إلى

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٧٠٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٢٠) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٣٧)، وابن ماجه في " سننه " (٤٢٨٦)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٣٠٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٢٤٦)، وصححه الألباني في " ظلال الجنة " (١/ ٢٦٠ -٢٦١) عن ابي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن المقرئ في " معجمه " (٨٨٧)، والمقدسي في " الأحاديث المختارة " (٢٠٢٩)، وقال: إسناده صحيح، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) ذكره ابن كثير "تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥١٧).

المطر، ولكنْ أعظمُ نفعٍ له هو أول المطر، وإن كان كلُّ الماء ينتفع به الزرع بفضل الله تبارك وتعالى.

والذي رجحه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هو الذي نميل إليه، والله أعلم.

وربنا تعالى يذكر نعيم هؤلاء المقربين فيقول: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾ موضونةٌ أي مرمولةٌ ومنسوجةٌ بالذهب.(١) قال السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مرمولةٌ بالذهب واللؤلؤ".(٢) وعن عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «مُشَبَّكَةٌ بالدُّرِّ والياقوتِ».(٣)

وقال بعض سلفنا الصالح: أي مضفورةٌ، عليها ضفائرُ مِن الذهب واللآلئ.(٤)

بعضُ الناس قد يموتُ ولعله ما نام على سريرٍ قط، ولعله كان يُقاسي الفقرَ، ويُقاسي البردَ، وينامُ على الأرض، ولا يجدُ سريراً يستطيع أن ينام عليه، ولكنه مؤمنٌ تَقِيٌّ يخافُ اللهَ عز وجل ويطيعه، ويصبر على بلاء الله، فمثل هذا يُكْرَمُ بكرامةِ الله له، فإن غمسةً واحدةً في الجنةِ تُنْسِيهِ الفقرَ كُلَّه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ الاتكاءُ يَدُلُّكَ على الأمن، ويَدُلُّكَ على الأَكْلِ والشِّبَعِ، ويَدُلُّكَ على أَنَّهُم في نِعْمَةٍ سَابِغَةٍ، ولكنَّ اتِّكَائَهُم إتِّكَاءٌ جميلٌ جليلٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٢٩٢) عن ابن عباس، ومجاهد.

(٢) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٢٠).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٢٩٢).

(٤) ذكره الطبري في "جامع البيان " (٢٢/ ٢٩١).

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ يعني يُقَابِلُ بعضُهُم بعضاً[١]، كلُّ واحدٍ في وجهِ أخيه، لا يَجْلِسُ واحدٌ مِنْهُم في قفاه، فإن هذا لعله يُحْزِنُهُ، والجنةُ ليس فيها شيءٌ يُحْزِنُ أحداً.

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ يَطوفُ على أهل الجنة وِلْدَانٌ في أبهى صورةٍ مِنَ الجَمَالِ، وفي أبهى صورةٍ مِنَ الشبابِ والقُوَّةِ، أَعَدَّهم اللهُ كرامةً لأهل الجنة.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ١٨﴾ أما الأكواب؛ فهي الكيزان، والأكوابُ جمعُ كوبٍ، وهو ما لا يدَ له ولا خُرطوم.

والأباريقُ جمعُ إبريقٍ، وهو ما له يدٌ وله خُرطومٌ، والكؤوس: الهنابات المعروفة التي يُشْرَبُ فيها.

والجميعُ مِنْ خَمْرٍ مِن عَيْنٍ جاريةٍ مَعِينٍ، ليس مِن أوعيةٍ تَنْقَطِعُ وتَفْرُغُ، بل مِنْ عُيونٍ سارحةٍ.[٢]

ولكنَّ اللهَ نَزَّهَ خَمْرَ الآخرة؛ فقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾ أي لا يحصل لهم صُدَاعٌ في الرأسِ، ولا نَزيفٌ في العَقْلِ، هذا مع شدة طَرَبِهَا واللذةِ الحاصلةِ منها.

وروى الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: "في الخمر أربعُ خصالٍ: السكرُ،

---

(١) ذكره الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٩٤).

(٢) ذكره ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٢٠).

والصداعُ، والقَيءُ، والبَوْلُ، فذكر الله خمر الجنة ونَزَّهَهَا عن هذه الخصال".[(١)]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن شَرِب الخمر في الدنيا حُرِمَها في الآخرة».[(٢)]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ، إنَّ على الله عز وجل عهداً لِمَنْ يشرَبُ المُسْكِرَ أن يسقيه مِن طِينَةِ الخَبَالِ» قالوا: يا رسول الله، وما طِينَةُ الخَبَالِ؟ قال: «عَرَقُ أهلِ النار» أو «عُصَارةُ أهلِ النَّارِ».[(٣)]

قال مولانا جل جلاله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾ قال ابن كثير رحمه الله: "أي: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها".أهـ[(٤)]

، ويدل على ذلك حديث **أَنَسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تُعْجِبُهُ الرُّؤْيَا، فَرُبَّمَا رَأَى الرَّجُلُ الرُّؤْيَا فَسَأَلَ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، فَإِذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ مَعْرُوفًا، كَانَ أَعْجَبَ لِرُؤْيَاهُ عَلَيْهِ. فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُ كَأَنِّي أُتِيتُ فَأُخْرِجْتُ مِنَ**

---

(١) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٢٠).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٥٧٥) ومسلم في " صحيحه " واللفظ له (٢٠٠٣).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٠٠٢)، والنسائي في " المجتبى " (٥٧٠٩)، وفي " الكبرى " (٥١٩٩) وأحمد في " مسنده " (١٤٨٨٠)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٣٦٠).

(٤) ذكره ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٢٠).

الْمَدِينَةِ، فَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَسَمِعْتُ وَجْبَةً ارْتَجَّتْ لَهَا الْجَنَّةُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَفُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَسَمَّتِ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا - كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ بَعَثَ سَرِيَّةً بِمِثْلِ ذَلِكَ - فَجِيءَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ طُلْسٌ، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُمْ فَقِيلَ: اذْهَبُوا بِهِمْ إِلَى نَهَرِ الْبَيْذَجِ - أَوِ الْبَيْرِحِ - قَالَ: فَغُمِسُوا فِيهِ، فَخَرَجُوا وَوُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَأَتَوْا بِصَفْحَةٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بُسْرَةٌ، فَأَكَلُوا مِنْ بُسْرِهِ مَا شَاءُوا، فَمَا يَقْلِبُونَهَا مِنْ وَجْهٍ إِلَّا أَكَلُوا مِنَ الْفَاكِهَةِ مَا أَرَادُوا، وَأَكَلْتُ مَعَهُمْ.

فَجَاءَ الْبَشِيرُ مِنْ تِلْكَ السَّرِيَّةِ، فَقَالَ: كَانَ مِنْ أَمْرِنَا كَذَا وَكَذَا، فَأُصِيبَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، حَتَّى عَدَّ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَرْأَةَ فَقَالَ: «قُصِّي رُؤْيَاكِ». فَقَصَّتْهَا وَجَعَلَتْ تَقُولُ: جِيءَ بِفُلَانٍ، وَجِيءَ بِفُلَانٍ، كَمَا قَالَ.[(١)]

قوله سبحانه: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴿٢١﴾﴾ أي: مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الطُّيُورِ يَشْتَهُونَهُ، ومِن أيِّ جِنْسٍ مِنْ لَحْمِهِ أرادوا، وإن شاءُوا مَشْوِيًّا، أو طَبِيخًا، أو غيرِ ذلك.

وقد قال رسول الله ﷺ عن الشهداء **"أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل"**.[(٢)]

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴿٢٣﴾﴾ أي أن الله جلَّ جلالُه

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٣٦٩٨)، وأبو يعلى في " مسنده " (٣٢٨٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٠٥٤)، وصححه الألباني في " التعليق على الموارد" (١٨٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٨٧)، والترمذي في " سننه " (٣٠١١)، وابن ماجه في " سننه " (٢٨٠١)، عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

أَعَدَّ لعباده الصالحين المُقَرَّبِينَ في الجِنان، نعيمـاً لا يُوصَفُ، ولا يَخْطُرُ على قلبِ بَشَرٍ، فيها ما لَذَّ وطابَ، ومِنْ كَرَامَةِ الله تعالى أن أَعَدَّ للرجال حوراً عِينًا في الجنة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في تفسيره: " والحوراء: التي في عينِها كُحْلٌ ومَلَاحَةٌ، وحُسْنٌ وبَهَاءٌ، والعِينُ: حِسَانُ الأَعْيُنِ وضِخَامُها، وحُسْنُ العَيْنِ في الأُنثى، مِن أَعْظَمِ الأَدِلَّةِ على حُسْنِهَا وجَمَالِها".أهـ(١)

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: "وهي النقيةُ بياضَ العين، الشديدةُ سوادَها، والعِينُ: جمعُ عَيْنَاء، وهي النَّجْلاءُ العَينِ في حُسْنٍ".أهـ (٢)

وقوله تعالى: ﴿**كَأَمْثَلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴿٢٣﴾**﴾ أي أمثال اللؤلؤِ الصافي البَهِيِّ المستورِ عن الأعينِ، والريحِ، والشمسِ، الذي يكون لَونُه مِن أَحْسَنِ الألوانِ، لا عَيْبَ فيه بِوَجْهٍ مِنَ الوجوه، فكذلك الحورُ العِينُ، لا عَيبَ فيهن بوجهٍ مِن الوجوه، بل هن كاملاتُ الأوصافِ، جميلاتُ النعوتِ، فكلُّ ما تأمَّلْتَه منها لا تجِدُ فيه إلا ما يَسُرُّ خاطِرَكَ، ويُرَوِّقُ ناظِرَكَ.

وصفُ الحور العِين من الكتاب والسنة:

وربُّنا جَلَّ جلالُه في كتابه في أكثرَ مِن آيةٍ وَصَفَ الحُورَ العِينَ للرِّجالِ حتى يَعْمَلَ المؤمنون، ويجتهدوا ويستعِدُّوا ويَدْفَعُوا المَهْرَ لهذه الحور العين، قال تعالى: ﴿**كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴿٥٨﴾**﴾ [الرحمن: ٥٨]، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره "قال ابن زيد

(١) " تيسير الكريم الرحمن " (٨٣٣).

(٢) "جامع البيان " (٢٢/ ٣٠٢).

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ كأنهن الياقوتُ في الصفاء، والمَرْجانُ في البياضِ - يعني في صفاء الياقوت، وبياض المَرْجَانِ - صفاءٌ مثل صفاءِ الياقوتة، وبياضٌ مثل بياضِ اللؤلؤ.(١)

وقولُه جلَّ جلالُه في وصف نساء الجنة ﴿**إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ۝٤٠**﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يعني متحبباتٍ إلى أزواجهن، أَلَمْ تَرَ إلى الناقةِ الضَّبعَةِ، هي كذلك.(٢)

وقال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضاً: ﴿**عُرُبًا**﴾ قال: عواشقُ لأزواجهن، وأزواجُهُنَّ لهُنَّ عاشقون.(٣)

وقال الضحاك عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿**أَتْرَابًا**﴾ قال: في سِنٍّ واحدٍ ثلاثاً وثلاثين سنةً.(٤)

في أبهى ما يكون مِنَ الشباب والقوة والعافية والنضارة والجمال، في سنِّ ثلاثٍ وثلاثين سنةً.

وقال السُدِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿**أَتْرَابًا**﴾ أي: في الأَخْلاقِ المُتَوَاخِيَاتِ بينهن، ليس بينهن

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٢٥١).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٣٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. " الدر المنثور " (١٤/ ٢٠١)

(٤) ينظر " الدر المنثور " (١٤/ ٢٠١).

تَبَاغُضٌ ولا تَحَاسُدٌ، يعني: لا كما كُنَّ في الدنيا ضرائرُ متعادياتٌ.(١)

وفي الصحيحين **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».**(٢)

وفي الصحيحين **عن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «في الجَنَّةِ خَيْمَةٌ مِن لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّون مِيلاً، في كُلِّ زاويةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنُ».**(٣)

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ عن مجاهد في قوله عُرُبًا أَتْرَابًا قال هي المُحَبَّبَةُ إلى زَوْجِهَا.(٤)

---

(١) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٣٤)، وينظر " النكت والعيون " للماوردي (٥/ ٤٥٦).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٤٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٣٤).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٨٧٩)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٣٨).

(٤) " فتح الباري " (٨/ ٦٢٦)، وأخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٢٧) عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وقال تعالى أيضـًا في وصف الحور العين في سورة الرحمن ﴿**فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ**﴾ [الرحمن: ٧٠]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "ووصفهنَّ بأنهنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ، وهو جَمْعُ خَيْرة، وأصلُها خَيِّرَةٌ بالتشديد كطَيِّبَة، ثم خُفِّفَ الحرفُ، وهي التي قد جمعت المحاسنَ ظاهراً وباطنـًا، فكَمُلَ خَلْقُها وخُلُقُهَا، فهُنَّ خَيِّرَاتُ الأخلاقِ، حِسانُ الوجوه.

وَوَصَفَهُنَّ بالطهارة؛ فقال ﴿**وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢٥] طَهُرْنَ مِنَ الحَيْضِ والبَوْلِ والنَّجْوِ وكلِّ أذىً يكونُ في نساء الدنيا، وطَهُرَتْ بواطِنُهُنَّ مِنَ الغيْرَةِ، وأذى الأزواج، وتَجَنِّيهِنَّ عليهم، وإرادةِ غَيْرِهِمْ.

وَوَصَفَهُنَّ بِأَنَهُنَّ ﴿**مَقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ**﴾ أي ممنوعاتٌ مِن التبرُّجِ والتَّبَذُّلِ لغير أزواجهن؛ بل قد قَصُرْنَ على أزواجهن، لا يَخْرُجْنَ مِنْ منازلهم، وقَصُرْنَ عليهم فلا يُرِدْنَ سواهم، وَوَصَفَهُنَّ سبحانه بأنهن قاصراتُ الطَّرْفِ، وهذه الصفةُ أَكْمَلُ مِنَ الأولى، ولهذا كُنَّ لِأَهْلِ الجنتين الأُولَيَيْنِ، فالمرأةُ منهن قد قَصَرَتْ طَرْفَهَا على زوجها، مِن مَحَبَّتِهَا له، ورضاها به، فلا يتجاوز طرْفُهَا عنه إلى غيره".أهـ[١]

وعن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: " إن في الجنة لسوقـًا، يأتونها كُلَّ جمعةٍ، فَتَهُبُّ رِيْحُ الشَّمَالِ فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حُسْنـًا وجَمَالاً، فيرجِعُون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسْنـًا وجَمَالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازدَدْتُم

(١) ينظر " روضة المحبين ونزهة المشتاقين" (٢٤٤).

بعدنا حُسْنَـاً وجَمَالاً، فيقولون: وأنتم، والله لقد ازدَدْتُم بعدنا حُسْنَـاً وجَمَالاً".[١]

يعني الحُسْنُ والجَمَالُ باستمرارٍ في زيادةٍ، وليس ثابتـاً، بل في ازديادِ بَهَاءٍ فَوْقَ بَهَاءٍ، وحُسْنٍ على حُسْنٍ، وجَمَالٍ فوقَ جَمَالٍ، بفضل الكريم سبحانه عز وجل.

وفي صحيح الإمام البخاري **عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ: «غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ، أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الجَنَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي الخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».**[٢]

وبعدُ؛ فهذه بعضُ صفاتِ الحور العين يا عبد الله حتى تجِدَّ وتجتهد، وتعملَ الليل والنهار، وتُسارعَ في طاعة الرحمن.

مسألة: هل المرأةُ المؤمنةُ الصالحة في الجنة أحسنُ أم الحور العين؟

المرأةُ المؤمنةُ أَجْمَلُ وأَحْسَنُ بإذن الله، لِأَنَّ الحُورَ العِينَ جَعَلَهُنَّ اللهُ تعالى جزاءً للمُؤْمِنِ على عَمَلِهِ الصالحِ، كَرَامَةً مِنَ الله جزاءً له على عَمَلِهِ الصَّالِحِ، والمُؤْمِنُ والمؤمنةُ يدخلان الجنةَ ببركة الله ثم بعملهما الصالح، فلا يكون مَن دَخَلَ الجنةَ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٣٣)، وأحمد في " مسنده " (١٤٠٣٥)، والدارمي في " سننه " (٢٨٨٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٤٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٥٦٨)، وأحمد في " مسنده " (١٢٤٩٢)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٣٩٩).

بالعملِ الصالحِ مِثلَ مَنْ أُعِدَّ جزاءً على العمل الصالح.

وقد سُئِلَ الشيخُ ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: هل الأوصاف التي ذُكِرَتْ للحور العين تشمل نساءَ الدنيا في القرآن؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الذي يظهر لي أن نساء الدنيا يَكُنَّ خيراً مِنَ الحور العين حتى في الصفات الظاهرة والله أعلم.أهـ(١)

وهنا وصفٌ رائع للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف الحور العين، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَاسْمَعْ صِفَاتِ عَرَائِس الْجَنَّاتِ ثُمَّ ... اخْتَر لنَفْسِكَ يَا أَخَا العِرْفَانِ

حُوْرٌ حِسَانٌ قَدْ كَمَلْنَ خَلائِقًا ... وَمَحَاسِنًا مِنْ أَجْمَلِ النّسْوَانِ ...

حَتَّى يَحَارُ الطَّرْفِ فِي الْحُسْنِ الَّذِي ... قَدْ أُلْبِسَتْ فَالطَّرْفُ كَالْحَيْرَانِ

وَيَقولُ لَمَّا أَنْ يُشَاهِدَ حُسْنَهَا ... سُبْحَان مُعْطِي الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

وَالطَّرْفُ يَشْرَبُ مِن كِؤوسِ جَمَالِهَا ... فَتَراهُ مِثْلَ الشَّارِب النَّشْوَانِ

كَمُلَتْ خَلائِقُهَا وأَكْمِلَ حُسْنُهَا ... كالبَدْرِ لَيلَ السِّتِ بَعْدَ ثَمَانِ

والشَّمْسُ تَجْرِيْ في مَحَاسِنِ وَجهِهَا ... والليلُ تَحتَ ذوائِبِ الأغْصَانِ

فَتَرَاهُ يَعْجَبُ وَهُوَ مَوْضِعُ ذَاكَ مِن ... لِيلٍ وَشَمْسٍ كَيفَ يَجْتَمِعَانِ

فَيَقُولُ سُبْحَانَ الذِيْ ذَا صُنْعُه ... سُبْحَانَ مُتْقِنِ صَنْعَةَ الإنسانِ

وَكِلاَهُمَا مِرْآةُ صَاحِبِهِ إذا ... مَا شَاءَ يُبْصِر وَجْهَهُ يَرَيَانِ

(١) ينظر " فتاوى نور على الدرب " (٤/ ٢).

فَيَرَى مَحَاسِنَ وَجْهِهِ فِي وَجْهِهَا ... وَتَرَى مَحَاسِنَهَا به بِعَيْنَانِ
حُمْر الخُدُوْدِ ثُغُورُهُنَّ لآلِيءٌ ... سُودُ العُيُونِ فَوَاتِرُ الأَجْفَانِ
والبَدْرُ يَبْدُو حِينَ يَبْسُمُ ثَغْرُهَا ... فَيُضِيءُ سَقْف القَصْر بالجُدْرَان
وَلَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ بَرْقًا ساطِعًا ... يَبْدُوْ فَيَسْأَلُ عنه مَن بِجِنَانِ
فَيُقَالُ هَذَا ضَوْءُ ثَغْرِ ضَاحِكٍ ... فِي الجنةِ العُلْيَا كَمَا تريَانِ
لله لاثِمُ ذَلِكَ الثَّغْر الذي ... في لَثْمِهِ إدْرَاكُ كُلِ أَمَانِ
رَيَانَةُ الأَعْطَافِ مِن مَاءِ الشَّبَا ... بِ فَغُصْنِهَا بالماءِ ذُو جَرَيَانِ
لما جَرَى مَاءُ الشباب بغُصْنِهَا ... حَمَلَ الثِمَارَ كَثِيْرَةَ الأَلْوَانِ
فَالوَرْدُ والتُّفَاحُ والرُّمَانُ فِي ... غُصْنٍ تَعَالَى غَارِسُ البُسْتَانِ[1]

إخواني؛ هذا بَعْضُ نعيمِ أهلِ الجنةِ، وأعظمُ مِن هذا النعيم: قولُ الله عز وجل في كتابه الكريم ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴿٧٢﴾**﴾ [التوبة: ٧٢]

فهذا بعض نعيمك في الآخرة، ومن زرع الآن حصد في الآخرة، ومن جَدَّ وَجَدَ، ومن آثر اللهَ على هواه في الدنيا أكرمه الله بما لا يخطر على قلب بَشَرٍ.

وفي الصحيحين **عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال الله عز وجل: أعددتُّ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ،**

(١) ينظر " الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (نونية ابن القيم)" (١/ ٩٨٧-٩٨٩).

مِصْدَاقُ ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧] ".[١]

لا يخطر على قلب إنسانٍ ذلك النعيمَ الذي أَعَدَّهُ الله كرامةً له في الجنة، وهذا يَدْفَعُنا إلى أن نُؤْثِرَ مرضاةَ الله، وكما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ "لن يَكْمُلَ أَحَدٌ حتى يُؤْثِرَ دِينَهُ على شهوتِه، ولن يَهْلِكَ أَحَدٌ حتى يُؤْثِرَ شَهْوَتَه على دِينِهِ".[٢]

فائدة: قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ٢٢﴾ ورد بقراءتين:

القراءة الأولى: برفع حورٌ وهي القراءة التي فسرنا عليها، والمعنى: وعندهم حور عين، أو لهم حور عين.

القراءة الثانية: بكسر حورٍ، وهو عطفٌ على المعنى كأنه قال: ينعمون بهذا كلِّه وبحورٍ عينٍ[٣]، وقيل: خفض على الجوار، أو عطف على أكوابٍ لأن معنى يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوابٍ، وقال قطرب: هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى، قال: ولا يُنْكَرُ أن يُطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذةٌ.

أي أن المراد أن الله تعالى قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكْوَابٍ

---

(١) **(متفق عليه)؛** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٤٤)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في " حلية الأولياء " (٨/ ١٠٩)، وعبد الله ابن أحمد في " السنة " (٨١٨)، وذكره الذهبي في " سير أعلام النبلاء " (٨/ ٤٢٧)، وابن عساكر في " تاريخ دمشق " (٤٨/ ٤١٥).

(٣) تفسير ابن جزي (٢/ ٣٣٥)

﴿وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝١٨ ...وَحُورٍ عِينٍ﴾ أي أن الولدان المخلدين الذين مضى ذكرهم، يطوفون عليك يا عبد الله، ويأتونك بالحور العين إلى مكانك.(١)

قوله تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ اللؤلؤ الرائع العظيم، ﴿الْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ أي الذي لم تَمَسَّهُ أيدي، وكذلك لم تأتِ إليه شمسٌ ولا رياحٌ.

قال ربنا تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ يعني هذا العطاءُ العظيمُ، أَعَدَّهُ اللهُ

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٠١) اختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾ فقرأته عامة قراء الكوفة وبعض المدنيين ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾ بالخفض إتباعا لإعرابها إعراب ما قبلها من الفاكهة واللحم، وإن كان ذلك مما لا يطاف به، ولكن لما كان معروفا معناه المراد أتبع الآخر الأول في الإعراب، كما قال بعض الشعراء:

إذا ما الغانيات برزن يوما ... وزججن الحواجب والعيونا

فالعيون تكحل، ولا تزجج إلا الحواجب، فردها في الإعراب على الحواجب، لمعرفة السامع معنى ذلك وكما قال الآخر: تسمع للأحشاء منه لغطا ... ولليدين جسأة وبددا

والجسأة: غلظ في اليد، وهي لا تسمع وقرأ ذلك بعض قراء المدينة ومكة والكوفة وبعض أهل البصرة بالرفع ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾ على الابتداء، وقالوا: الحور العين لا يطاف بهن، فيجوز العطف بهن في الإعراب على إعراب فاكهة ولحم، ولكنه مرفوع بمعنى: وعندهم حور عين، أو لهم حور عين والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القراء مع تقارب معنييهما، فبأي القراءتين قرأ القارئ فمصيب. وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ١٩٠)، و"أنوار التنزيل" للبيضاوي (٥/ ١٧٨).

ثوابـاً لهم مِنَ الله بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، وعِوَضَـاً مِن طاعتهم إياه، في مقابلة عملهم الصالح. (١)

ولكن اعلم أن هذا الجزاء هو تَفَضُّلٌ مِنَ الله وكَرَمٌ، ليس جزاءَ استحقاقٍ، لأن بعض أهل البدع قالوا: المرء يستحق على الله الجنةَ وجوبـاً إذا عمل صالحـاً.

وهذا خطأ؛ فنحن لسنا أهلاً لذلك أبداً، ولسنا خيراً مِن رسول الله ﷺ الذي قال **«سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ لا يُدْخِلُ أَحَدًا الجَنَّةَ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»**. (٢)

قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا**﴾ لا يسمعون في الجنة كلمةً لاغيةً، يعني كلمةً ليس فيها فائدةٌ، ولا تأثيمـاً يعني كلمةً فيها إثمٌ. (٣)

قال تعالى: ﴿**إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا**﴾ أي لا يسمعون اللغوَ الهُراءَ مِن الحديث، ولا هَجْرَ القولِ وما تَتَقَزَّزُ منه النفوسُ الراقيةُ، ذاتُ الأخلاق العالية، ولكن يسمعون أطيبَ السلام، وساميَ الكلام، مما يُستساغ كما قال سبحانه: ﴿**دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ**﴾ [يونس: ١٠]، وقال سبحانه ﴿**وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى**

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٢/ ٣٠٢).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٦٧)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨١٨) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر "جامع البيان" (٢٢/ ٣٠٥).

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴿٢٣﴾ [إبراهيم: ٢٣].

فهم لا يسمعون ولا يتحدثون إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دارُ الطيبين، ولا يكون فيها إلا كلُّ طَيِّب، وهذا دليلٌ على حُسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيبُ كلامٍ، وأَسَرُّهُ للنفوس، وأَسْلَمُهُ مِن كُلِّ لَغْوٍ وإثمٍ، نسأل الله من فضله.(١)

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴿٢٦﴾﴾ أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢٣] وكلامهم أيضاً سالمٌ مِن اللغو والإثم". أهـ(٢)

فتحيتهم فيما بينهم في الجنة سلامٌ، وتحيةُ الملائكةِ عليهم سلامٌ، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

وكذلك الحور العين يسلمون عليهم، وإخوانهم وأحبابهم يزورونهم ويسلمون عليهم.

بل رَبُّ العِزَّةِ جلَّ جلالُه يُسَلِّمُ عليهم ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] قولاً: يعني حقيقةً، حتى لا يَظُنَّ الظانُّ أن هذا يُؤول أو يُصرف على ظاهره.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٣٧)، و"تفسير السعدي" (ص: ٨٣٣).

(٢) ينظر "تفسير ابن كثير" (٧/ ٥٢٥).

مَّمْدُودٍ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ۝٤٠﴾

بعد أن ذَكَرَ سبحانه حالَ السَّابقين وبَيَّنَ ما لَهُم مِن نَعِيمٍ مُقِيمٍ، في جناتِ النعيم- أَرْدَفَ ذلك ذِكْرَ حالِ أصحابِ اليمينِ، فَبَيَّنَ أنهم في جناتٍ يَتَخَلَّلُهَا السِّدْرُ المخضودُ، والمَوزُ المُنَضَّدُ بعضُه فوق بعضٍ، والفاكهةُ الكثيرةُ التي لا تنقطعُ أبداً، ولا تمتنعُ عنهم متى شاءوا، وفيها فُرُشٌ وثيرةٌ مرتفعةٌ عاليةٌ، ونساءٌ حِسَانٌ أبكارٌ في سِنٍّ واحدةٍ.(١)

فيا إخواني؛ هذه هي الدار التي ينبغي لنا أن نعمل مِن أجلها، التي قال الله عنها ـ في الحديث القدسي: " **أعددتُّ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، مِصْدَاقُ ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ۝١٧﴾** [السجدة: ١٧] ".(٢)

فابذلوا من أجلها، فوالله إن كلَّ تَعَبٍ يبذله المرءُ مِن أجلها يسيرٌ، وكلَّ نَصَبٍ وكلَّ هَمٍّ وكلَّ شهوةٍ في حرامٍ يتركها لله من أجل الجنة يسيرٌ.

عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: " ينادي مناد: إن لكم أن تَصِحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبُّوا

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٣٨)

(٢) تقدم تخريجه

فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً" فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].(١)

هذه الجنةُ يا إخواني التي فيها رسول الله ﷺ، ترونه وتُكْرَمُون بالجلوس معه، وقد قال ﷺ عنا ـ في الحياة الدنيا ـ: " ... وددتُّ أنا قد رأينا إخوانَنَا» قالوا: أولسنا إخوانَك؟ يا رسول الله قال: «أنتم أصحابي، وإخوانُنَا الذين لم يأتوا بعد».(٢)

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «من أشد أمتي لي حبا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله».(٣)

وكلما كنتَ تقيـاً كان منزلُك أقربَ مِنَ النبي ﷺ.

وهذه الجنة، فيها جوارُ الرحمن عز وجل، تكرمُ برؤيته جل جلاله.

والله لو أن ابنَ آدم خَرَّ ساجداً على وجْهِهِ منذ أن خلقه الله إلى يَوْمِ يُبْعَثُ، لاستحقر ذلك في جنب الله عز وجل يومَ القيامة، ولاسْتَقَلَّهُ مقابلَ أَقَلِّ نعيمٍ يُكرمه الله عز وجل به لو كان مِن أهل النعيم.

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٣٧)، والترمذي في " سننه " (٣٢٤٦)، والنسائي في " الكبرى " (١١١٢٠)، وأحمد في " مسنده " (٨٢٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٤٩)، والنسائي في " الصغرى " (١٥٠)، و " الكبرى " (١٤٣) وابن ماجه في " سننه " (٤٣٠٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٣٢)، وأحمد في " مسنده " (٩٣٩٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٢٣١)، والحاكم في " المستدرك " (٦٩٩١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نعيمُ الجنة ألوانٌ وأصنافٌ، يذكر الله سبحانه ألوانـًا شتى وأصنافـًا متعددةً مِنَ النعيم الكريم، ذكر ذلك في أول هذه السورة، فذكر المقربين ونعيمَهم، وكيف كان جزاؤهم، ثم قال لك: ﴿**جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**﴾، ثم ذكر مَن دونهم في المرتبة، وهم أصحابُ اليمين أقل من المقربين، لكن كيف هو نعيمُهم؟

قال سبحانه: ﴿**وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧**﴾ أي: وأصحابُ اليمين هم الغايةُ في فخامةِ شأنهم، ورفعةِ قدرِهم، وعلوِّ منزلتهم.

وقد جاء هذا الأسلوبُ في كلام العرب لإفادة المبالغة في مدحٍ أو ذمٍّ فيقولون: فلانٌ ما فلانٌ.

قوله تعالى: ﴿**فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨**﴾ شجرُ السِّدْرِ معروفٌ، ولكنَّ شجر السدر في الدنيا معروفٌ بأنه كثيرُ الشَّوْكِ، أما في الجنة فهو مخضوض، أي: هم يتمتعون بجناتٍ فيها السِّدْرُ الذي قُطِعَ شَوْكُه، لا كسِّدْرِ البريَّة في الدنيا.

وقال بعض السلف، كما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه المُوقر بالثمر، وهو رواية عن عكرمة، ومجاهد، وكذا قال قتادة أيضا: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه.[١]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "والظاهر أن المراد هذا وهذا فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على عكسٍ مِن هذا، لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما قال الحافظ أبو بكر بن سلمان النجاد".أهـ[٢]

---

(١) ينظر "جامع البيان" (٢٢/ ٣٠٦).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٢٥).

فهو مقطوعٌ ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المُضِرَّة، مجعولٌ مكانَ ذلك الثمرُ الطَّيِّبُ، وللسِّدْرِ مِنَ الخَوَاصِّ، الظِّلُّ الظليلُ، وراحةُ الجسمِ فيه.(١)

لأن سدرَ الدنيا قال عنه أهل العلم: كثيرُ الشَّوْكِ قليلُ الثَّمَرِ، أما في الآخرة فلا شوك فيه وكثيرُ الثَّمَرِ، ورسول الله ﷺ قال عن سدرة المنتهى: **" رفعت لي سدرة المنتهى في السماء السابعة، نَبْقُها مثلُ قِلالِ هَجَر، وَوَرَقُهَا مِثْلُ آذانِ الفِيَلَةِ، يَخْرُجُ مِن ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان، فقلت: يا جبريل ما هذان؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات"**.(٢)

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ اختُلِف في المراد بالطلح:

القول الأول: أن الطلح هو شجرُ المَوْزِ، واحده طلحة، قاله أكثر المفسرين علي وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهم.(٣)

القول الثاني: وقال بعض أهل العلم: الطلحُ هو شَجَرٌ عظيمٌ مِن شَجَرِ البادية، له ظِلٌّ باردٌ رَطْبٌ، وهو مرويٌّ عن الحسن البصري رحمه الله.(٤)

---

(١) ينظر "تفسير السعدي" (ص: ٨٣٣)

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٠٧)، والنسائي في " المجتبى " (٤٤٨)، وأحمد في " مسنده " (١٢٦٧٣)، واللفظ له عن أنس بن مالك، رضي الله عنه.

(٣) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٠٩) وأما أهل التأويل من الصحابة والتابعين فإنهم يقولون: إنه هو الموز. وأخرجه عن ابن عباس وعلي ومجاهد وعطاء وقسامة وقتادة.

(٤) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ١٩٤)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٨/ ٣٩٦).

وعلى قول الأكثرين أنه شجر الموز؛ فقد قال الله سبحانه ﴿رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] يعني أنه موزٌ يشبه الموز في الاسم، لكنَّ الطعمَ مختلفٌ، فعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء».[١]

وكلمة ﴿مَّنضُودٍ۝٢٩﴾ أعادها بعضُ السلف على السدر، يعني أن هذا السدر طلحه منضود، أي مرصوصٌ مصفوفٌ كثيرُ الثمر.

وكثير من السلف الصالح ـ كما ذكرت ـ قالوا: أن الطلح هو المَوْزُ بلغة أهل اليمن، وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مَّنضُودٍ۝٢٩﴾ أي: متراكم الثمر[٢]، أي شجرٌ مُحَمَّلٌ بثمار الموز، يكون الموز بعضه على بعض، من فضل الله تعالى وهذا مروي عن ابن عباس وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والحسن وعكرمة وغيرهم من السلف رحمهم الله.[٣]

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ۝٣٠﴾ قال الضحاك، والسدي، وأبو حرزة في قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ۝٣٠﴾ لا ينقطع، ليس فيها شمسٌ ولا حَرٌّ، مثل قبل طلوع الفجر.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْجَنَّةُ سَجْسَجٌ[٤]، كما بين طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢٦٠)، والطبري في " جامع البيان " (١/ ٤١٦)، وأبو نعيم في "صفة الجنة" (١٢٤)، هناد بن السري في "الزهد" (١/ ٤٩)

(٢) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٢٦).

(٣) ينظر " جامع البيان " (٢٢/ ٣١٢).

(٤) قوله: «سجسج» أي معتدل. انظر: (النهاية: ٢/ ٣٤٣).

وقد تقدمت الآيات كقوله: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: ٥٧]، وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ٤١﴾ [المرسلات: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات. [(١)]

إنك عندما تكون في حَرِّ الدنيا لمدة ساعة أو أكثر، ثم تجد ظلاً بارداً، أو مكاناً مُكَيَّفاً فإنك تستريح فيه جداً، وتستشعر نعمةً عظيمةً.

حجم ظل الجنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠﴾ "[(٢)] وهو حديثٌ متواترٌ عن رسول الله ﷺ[(٣)]

وفي روايةٍ: **فَبَلَغَ ذَلِكَ كَعْبًا، فَقَالَ: "صَدَقَ، وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى، وَالْفُرْقَانَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لَوْ أَنَّ رَجُلاً رَكِبَ حِقَّةً، أَوْ جَذَعَةً، ثُمَّ أَدَارَ بِأَصْلِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، مَا بَلَغَهَا حَتَّى يَسْقُطَ هَرِمًا، إِنَّ اللهَ غَرَسَهَا بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ، وَإِنَّ أَفْنَانَهَا مِنْ وَرَاءِ سُورِ الْجَنَّةِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ نَهْرٌ إِلاَّ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ تِلْكَ**

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٧/ ٥٢٩).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٥٢)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٢٦).

(٣) قال ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٢٨) فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه، وقوة أسانيده، وثقة رجاله.

الشَّجَرَةِ".[١]

ولذلك جاءت آثار عن بعض السلف، في تحديد قدر الظل:

فعن عمرو بن ميمون في قوله ﴿**وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ**﴾ قال: «مسيرةُ سبعين ألفَ سنةً».[٢] وفي رواية أخرى عن عمرو بن ميمون أيضـًا، قال: «خَمْسُ مِئَةِ أَلْفِ سَنَةٍ».[٣]

فهل ينالُ المسلمُ هذا الظِلَّ بنومه بالليل ولهوه بالنهار، وتركه الفرائض، وانتهاكه الحرام، لا والله، وإنما ينال هذا النعيم بالعمل، ولذلك **قال النبي ﷺ "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمـًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"** [٤]، وقال الله تعالى: ﴿**هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ**﴾ [الرحمن: ٦٠]

فإذا أَرَدْتَّ أن تُكْرَمَ بهذا الظَّلِّ الظليلِ الممدود يوم القيامة، فعليك أن تُظِلَّ مسلمـًا مِنَ الحَرِّ ما استطعتَ، أو تُكِنَّهُ مِنَ البردِ، والجنة لا حَرَّ فيها ولا برد، ﴿**مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا**﴾ [الإنسان: ١٣]

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٣٩٨٣)، وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (٨/ ٤٥٠).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣١٤)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٤/ ١٤٩).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣١٣).

(٤) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٩٩)، وأبو داود في " سننه " (٤٩٤٦)، والترمذي في " سننه " (١٩٣٠)، والنسائي في " الكبرى " (٧٢٤٤)، وابن ماجه في " سننه " (٢٢٥).

الله جل جلاله يريدك أن تُشَمِّرَ عن ساعدِ الجِدِّ، وتعمل وتجتهد ما استطعت، والنبي ﷺ أخبر عن سبعةٍ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، **فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"**.[1] اللهم اجعلنا منهم يا رب العرش العظيم.

قوله تعالى: ﴿**وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١**﴾ يعني مصبوبٌ سائلٌ في غير أخدود[2]، فلا أنهار تُشَقّ ولا تُرَعَ تُحْفَرُ، إنما يُجري ربُّ العالمين هذه الأنهارَ بدون أخدودٍ.

وصف الله تعالى أنهار الجنة بقوله ﴿**مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥**﴾ [محمد: ١٥].

قال الله تبارك وتعالى ﴿**وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢**﴾ يأكل العبدُ ألوانـًا من الفواكه في الجنة، مما لَذَّ وطاب.

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٦٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٣١).

(٢) قاله الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣١٨)، وينظر "الهداية إلى بلوغ النهاية" لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٢٧٥).

ولم يذكر الله تعالى عددها؛ إذ هي أكثرُ مِن أيِّ عددٍ يخطر على بالك، لأن الله قال في الحديث القدسي: **"أعددتُّ لعباديَ الصالحين مالا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطرَ على قلبِ بَشَرٍ"** (١)، والأُذُنُ سَمِعَتْ ملياراً وأكثرَ مِن مليارٍ، ويَخْطُرُ على بالِنا عددٌ كثيرٌ، لكن في الآخرة صنوفُ الخيرِ لا يمكن للعبد أن يُحيط بها.

قال تعالى: ﴿**لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ**﴿٣٣﴾﴾ لا مقطوعةٍ بزمانٍ، ولا ممنوعةٍ بثمنٍ.

قال ابن جريرٍ الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: " لا ينقطع عنهم شيءٌ منها أرادوه في وقتٍ من الأوقات، كما تنقطع فواكه الصيف في الشتاء في الدنيا، ولا يمنعهم منها، ولا يحول بينهم وبينها شوكٌ على أشجارها، أو بعدُها منهم، كما تمتنع فواكه الدنيا مِن كثيرٍ ممن أرادها ببعدها على الشجرة منهم، أو بما على شجرها مِن الشَّوْك، ولكنها إذا اشتهاها أحدُهم وقعت في فيه أو دَنَتْ منه حتى يتناولَها بيده".أهـ(٢) كما قال الله تعالى: ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴿٢٣﴾﴾ وفي الصحيحين، **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَصَلَّى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ**(٣)**، قَالَ: «إِنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ**

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) ينظر " جامع البيان " (٢٢/ ٣١٨)

(٣) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في "شرح مسلم" (٦/ ٢١٣) قَوْلُهُ تَكَعْكَعْتَ أَيْ تَوَقَّفْتَ وَأَحْجَمْتَ قَالَ الْهَرَوِيُّ وَغَيْرُهُ يُقَالُ تَكَعْكَعَ الرَّجُلُ وَتَكَاعَى وكع وكوعا إذا أحجم وجبن.

أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا»(١)

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صُفُوفِنَا فِي الصَّلَاةِ، صَلَاةِ الظُّهْرِ، أَوِ الْعَصْرِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، ثُمَّ تَأَخَّرَ فَتَأَخَّرَ النَّاسُ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ لَهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: شَيْئًا صَنَعْتَهُ فِي الصَّلَاةِ لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ قَالَ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ بِمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ وَالنَّضْرَةِ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ لِآتِيَكُمْ بِهِ، فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِهِ لَأَكَلَ مِنْهُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...".(٢)

قال مولانا جل جلاله: ﴿**وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ**﴾ أي عاليةٌ جداً، وقد ورد تقديرُ ارتفاعها في حديث، وفيه ضعف، عن دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، في قوله: ﴿**وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ**﴾ **قال: «إن ارتفاعها لكما بين السماء والأرض، وإن ما بين السماء والأرض لمسيرة خمس مائة عام»**.(٣)

وَأخرَج هناد عن الحسن البصري في قوله: ﴿**وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ**﴾ قال: **"ارتفاع**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٤٨)، ومسلم في " صحيحه " (٩٠٧).

(٢) **(ضعيف)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٤٨٠٠) وعبد بن حميد في " المنتخب " (١٠٣٦)، وضعفه محققو المسند (٢٣/ ١١٠).

(٣) **(ضعيف)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٥٤٠)، وأخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣١٩)، وأحمد في " مسنده " (١١٧١٩)، وضعفه الشيخ الألباني في " مشكاة المصابيح " (٥٦٣٤)، والشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء الذاريات ص (٤٧٤).

فراش أهل الجنة مسيرة ثمانين سنةً والله أعلم".[(١)]

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥**﴾ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأةً غيرَ النشأةِ التي كانت في الدنيا، نشأةً كاملةً لا تقبل الفناء.

وهنا قصةٌ أوردها ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: وروي عن أبي سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قال: صليتُ ليلةً ثم جلستُ أدعو وكان البرد شديداً، فجعلتُ أدعو بيدٍ واحدةٍ، فأخذتني عيني فنمتُ فرأيتُ حوراءَ لم يُرَ مثلُها، وهي تقول: يا أبا سليمان أتدعو بيدٍ واحدةٍ، وأنا أُغَذَّى لك في النعيم منذ خمسمائة سنة.أهـ[(٢)]

قال الله تعالى: ﴿**فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧**﴾ أي إنا أعددناهن نساءً أبكاراً متحببات إلى أزواجهن، إذ هُنَّ يُحْسِنَّ التبعُّلَ، كُلُّهُنَّ في سِنٍّ واحدةٍ، لا تمتاز واحدةٌ عن أخرى، وأعطيناهنَّ لأصحابِ اليمين.[(٣)]

والرجلُ من أهل الجنة إذا جامع أهلَه ما جامع ترجعُ بِكراً كما كانت، بفضل الله تعالى، وكذلك نساء أهل الجنة إذا دخلن الجنة يَصِرنَ أبكاراً كما كانت قبل زواجها.

---

(١) أورده السيوطي في "الدر المنثور" (١٤/ ١٩٨).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٣٥) روي عن أبي سليمان الداراني – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –قال: صليت ليلة، ثم جلست أدعو، وكان البرد شديدا، فجعلت أدعو بيد واحدة، فأخذتني عيني فنمت، فرأيت حوراء لم ير مثلها وهي تقول: يا أبا سليمان، أتدعو بيد واحدة وأنا أغذى لك في النعيم من خمسمائة سنة!

(٣) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٣٩)

فقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾ أي: أعدناهن في النشأة الآخرة بعدما كُنَّ عجائز رُمصـًا، صِرنَ أبكاراً عُرُبـًا، أي: بعد الثيوبة عُدْنَ أبكاراً عُرُبـًا، أي: متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة.[1]

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦﴾ صغارهن وكبارهن.

وعمومُ ذلك، يشمل الحورَ العين ونساءَ أهل الدنيا، وأن هذا الوصف -وهو البكارة- ملازمٌ لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧﴾ ملازمٌ لهن في كلِّ حالٍ، والعَروبُ: هي المرأة المتحببة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها، فهي التي إن تَكَلَّمَتْ سَبَتْ العقولَ، وَوَدَّ السامعُ أن كلامَهَا لا يَنْقَضِي، خصوصـًا عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسَمْتِهَا ودَلِّهَا ملأتْ قلبَ بَعْلِهَا فَرَحـًا وسروراً، وإن بَرَزَتْ مِنْ مَحَلٍّ إلى آخر، امتلأ ذلك الموضع منها ريحـًا طَيِّبـًا ونوراً، ويدخل في ذلك الغنجة[2] عند الجماع.

---

(١) قاله ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٣١)، وينظر "الكشف والبيان" للثعلبي (٢٥/ ٤٦٦).

(٢) قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ في "تهذيب اللغة" (٨/ ٣٩) غنج: قَالَ اللَّيْث الغَنْجُ: شَكْلُ الجَارِيَةِ الغَنِجَةِ. ثعلبٌ عَن ابْن الأعرابيّ، قَالَ: الغُنْجُ: ملاحَةُ العَيْنَيْن. عَمْرو عَن أَبِيه قَالَ: الغِنَاجُ: دُخَانُ النَّؤوُرِ الَّذِي تَجْعَلُهُ الواشِمَةُ على خُضْرَتِها، لِتَسْوَدَّ، وَهُوَ الغُنُجُ أَيْضا.

وقال ابن قرقول رَحِمَهُ اللَّهُ في " مطالع الأنوار على صحاح الآثار " (٥/ ١٥٧) قوله في: "الْعَرِبَةَ هِيَ: الغَنِجَةَ" هو شكل في الجارية وتكسر وتدلل.

والأترابُ اللاتي على سنٍّ واحدةٍ، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غايةُ ما يتمنى، ونهايةُ سِنِّ الشباب، فنساؤهم عُرُبٌ أترابٌ، متفقاتٌ مؤتلفاتٌ، راضياتٌ مَرْضِيَّاتٌ، لا يَحْزَنَّ ولا يُحْزِنَّ، بل هن أفراحُ النفوس، وقرةُ العيون، وجلاءُ الأبصار". أهـ[١]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى آثَارِهِمْ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لاَ تَبَاغُضَ بَيْنَهُمْ، وَلاَ تَحَاسُدَ، لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتَانِ مِنَ الحُورِ العِينِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ العَظْمِ وَاللَّحْمِ".[٢]

وعَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُعْطَى المُؤْمِنُ فِي الجَنَّةِ قُوَّةَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الجِمَاعِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «يُعْطَى قُوَّةَ مِائَةٍ».[٣]

قال الله تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ٣٨﴾ أي خلقنا هذا النعيم وجعلناه لأصحاب اليمين.

قال تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ٤٠﴾ كما ذكرنا في أول السورة أن المراد بالثلة الجماعة[٤]، واستظهرنا أن الرأي الأصوب والله أعلم ما رجحه

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٣٤)

(٢) **(صحيح)** وقد تقدم تخريجه

(٣) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٥٣٦)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٤٠٠)، وأبو داود الطيالسي في " مسنده " (٢١٢٤)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٥٦٣٦).

(٤) قاله ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٣٦)

الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن المراد بالمقربين في أول السورة ثلةٌ من الأولين أي من أول هذه الأمة، وقليلٌ من الآخرين أي من هذه الأمة أيضـًا.(١)

ثم قال عن أصحاب اليمين ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾ أي: هذا القسم من أصحاب اليمين عددٌ كثيرٌ مِن الأولين، وعددٌ كثيرٌ مِن الآخرين.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ٤٨ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٥٦﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه زوجين مِن الأزواج الثلاثة، وبَيَّنَ ما يلقاه كلٌّ مِنهم مِن عِزٍّ مُقِيمٍ، وشَرَفٍ عظيمٍ، في جناتٍ ونعيمٍ، في جملةِ شئونهم، في مآكِلِهِم ومشارِبِهِم وفُرُشِهِم وأزواجِهِم- أردف ذلك ذِكْرَ الزوج الثالث، وبَيَّنَ ما يلقاه مِن النَّكَالِ والوَبَالِ وسوءِ الحال، فهو يتلظى في السَّمُوم، ويشرب ماءً كالمُهل يشوي الوجوه، ثم أعقبه بذكر السبب في هذا، بأنهم كانوا في دنياهم مترفين غارقين في ذنوبهم، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء، ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقعٌ حتمـًا، وأن مأكلَهم سيكون مِن

(١) تقدم ذكره.

شَجَرِ الزَّقُّوم يملئون منه بطونَهم، ثم يشربون ولا يرتوون كالإبل الهِيم، وهذا ما أَعَدَّ لهم مِن كَرَمٍ وحُسْنِ وفادةٍ في هذا اليوم.(١)

يقول ربُّ العزة: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ تعظيمٌ وتهويلٌ لما هم فيه من العذاب، وسُمُّوا أصحابَ الشِّمَالِ؛ لأنهم يأخذون كتبهم يوم القيامة بشمائلهم، وأصحاب الشمال هم أصحاب المشئمة، كما ذكرهم الله تعالى، وسُمُّوا أصحاب المشئمة؛ لأنهم جلبوا الشؤم على أنفسهم، والعياذ بالله.

قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ السمومُ: هو الريح شديدة الحرارة، لأنها من النار، والعياذ بالله، تدخل مَسَامَّ البَدَنِ.

وحميمٌ: أي ماءٌ مَغْلِيٌّ في أَشَدِّ درجات الغليان، والعياذ بالله.

إذا أحرقت النارُ أكبادَهم وأجسادَهم فَزِعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميماً حارّاً في نهاية الحرارة والغليان.(٢)

قوله تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ اليحمومُ ظِلٌّ أسودُ شديدُ السواد، كما قال سبحانه ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١]، هذا الظِّلُّ مِن النار، والعياذ بالله(٣)، لكنه ظِلٌّ مِن يَحْمُومٍ،

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٤٠).

(٢) قاله القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٠٢).

(٣) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٧/ ٥٣٧).

شديدُ السواد جداً.(١)

وأصله من الحَمَمِ، وهو الفحم، وقيل: من الحم، وهو الشَّحْمُ المُسْوَدُّ لاحتراقه بالنار.(٢)

قال الله تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ هذا الظل يفزع إليه أهل النار، كما يفزع أهل الدنيا إلى الظلِّ في الحرِّ الشديد، فأهل الدنيا يذهبون ويفزعون إلى ظلٍّ فيجدونه بارداً ويستظلون به، أما هؤلاء فيذهبون ويفزعون إلى هذا الظلِّ فلا يجدونه بارداً ولا كريماً، يعني لا بارداً في هوائه ولا كريماً في منظره(٣)، نعوذ بالله، فمنظَرُه أسودُ شديدُ السَّوادِ، كما قال بعض السلف: كل ما في النار أسودُ شديدُ السواد.(٤)

ثم ذكر السبب في تعذيبهم فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾

أي إنهم كانوا في الدنيا مُنَعَّمِين بألوانٍ مِن المآكلِ، والمشاربِ، والمساكنِ الطيبة،

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٣٤) وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وظل من دخان شديد السواد والعرب تقول لكل شيء وصفته بشدة السواد: أسود يحموم.

(٢) يُنظر: " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٠٢)، و" تتمة أضواء البيان " (٧/ ٥٢١).

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٣٨) ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ولا كريم المنظر. وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم.

(٤) قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " معالم التنزيل " (٨/ ١٨) وَقَالَ الضَّحَّاكُ: النَّارُ سَوْدَاءُ وَأَهْلُهَا سُودٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا أَسْوَدُ.

والمقامات الكريمة، مُنهمِكين في الشهوات، فلا جَرَمَ عُذِّبُوا بنقائضها.(١)

وهذا الذي أُترفوا فيه كان من الحرام، أما العبد المؤمن الموحِّدُ إذا أظهر نعمة الله عليه فلا يؤاخَذُ ، **فعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشْعَثَ أَغْبَرَ فِي هَيْئَةِ أَعْرَابِيٍّ، فَقَالَ: «مَا لَكَ مِنَ الْمَالِ؟» قَالَ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ قَدْ آتَانِيَ اللهُ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى الْعَبْدِ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ تُرَى بِهِ»**.(٢)

يعني لا مانع أن يأكل المرءُ ويشربَ مما لَذَّ وطابَ بدون إسرافٍ، قال تعالى ﴿ **وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ**﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]، أما المرادُ بالآية الكريمة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي كانوا مُنَعَّمين بما حَرَّمَ الله تعالى عليهم.

كان كثيرٌ مِن سَلَفِنَا الصَّالحِ يتركون كثيراً مِنَ النَّعِيمِ يقدرون عليه رجاءَ نعيمِ الآخرة، كحال النبي ﷺ، **فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَرَأَتْ فِرَاشَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَطِيفَةٌ مَثْنِيَّةٌ، فَانْطَلَقَتْ فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِفِرَاشٍ حَشْوُهُ الصُّوفُ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: " مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟ " قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فُلَانَةُ الْأَنْصَارِيَّةُ دَخَلَتْ عَلَيَّ، فَرَأَتْ فِرَاشَكَ فَذَهَبَتْ فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِهَذَا قَالَ: " رُدِّيهِ يَا عَائِشَةُ،**

---

(١) " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٧/ ٥٣٨)، وتفسير المراغي (٢٧/ ١٤٢).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٠٦٣)، والترمذي في " سننه " (٢٠٠٦)، والنسائي في " المجتبى " (٥٢٢٣)، وأحمد في " مسنده " (١٥٨٨٧)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٤١٧)، وصححه الألباني في " التعليقات الحسان " (٨/ ٦٠).

فَوَاللهِ لَوْ شِئْتُ لَأَجْرَى اللهُ مَعِيَ جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ".[١]

فكان ﷺ يجوع أياماً طويلةً، وكان يربط على بطنه الحجر والحجرين من الجوع.[٢]

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «ما شبع آلُ محمدٍ ﷺ، مِن خُبْزِ شعيرٍ يومين متتابعين، حتى قُبِضَ رسول الله ﷺ».[٣]

هذه الدنيا سرعان ما تَمُرُّ، هي طعامٌ دون طعامٍ، وشرابٌ دون شرابٍ، ولباسٌ دون لباسٍ، والأمر ينتهي.[٤]

---

(١) **(حسن)** أخرجه أبو الشيخ في " أخلاق النبي " (٤٧٥)، والبيهقي في " دلائل النبوة " (١/ ٣٤٥)، وفي " شعب الإيمان " (١٣٩٥)، وحسنه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣٢٨٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤١٠١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٠٣٩) **عن جابر رضي الله عنه، فَقَالَ: إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا.**

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٤١٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٩٧٠).

(٤) أخرج ابن الجوزي في " مناقب أحمد " (٣٣٤)، عن أبي بكر المروذي قال: سمعت أبا عبد الله يقول لشجاع ابن مخلد العطار: يا أبا الفضل إنما هو طعامٌ دون طعام ولباسٌ دون لباس وإنها أيامٌ قلائل.

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لإخوانه: والله إني لأعلم بفنون الطعام منكم.[١]

وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ قال: دخل عمرُ على عاصم بن عمر وهو يأكل لحمـًا، فقال: ما هذا؟ قال قَرِمنا[٢] إليه، فقال: وكلما قَرِمْتَ إلى شيءٍ أكلته؟! كفى بالمرء سَرَفـًا أن يأكل كلما اشتهى.[٣]

فرضي الله عن الصحابة الكرام، كانوا إذا لم يجدوا صبروا صبراً جميلاً، وإذا وجدوا لا مانع أن يُوَسِّعُوا على أنفسهم.

هكذا كانوا يقولون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لأنهم كانوا يريدون الدار الآخرة، ويريدون أن يَدَّخِرُوا أجراً عظيمـًا لهم عند الله رب العالمين، علموا أن الدنيا قليلةٌ، وليس لها مكانةٌ في قلوبهم، وعلموا أن الدار الآخرة هي الباقية، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤]، يعني هي الحياة الحقيقية الباقية.

واعلم أن أهل الترف والنعيم في الغالب هم الذين يخالفون الرسل، إلا من

---

(١) ذكر ابن المبرد الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ في " محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب " (٢/ ٥٧١) عن أبي عمران الجوني - رَحِمَهُ اللَّهُ - قال: "قال عمر بن الخطاب: لنحن أعلم بلين الطعام من كثير من آكيله، ولكنا ندعه ليوم ﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾

(٢) قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "النهاية" (٤/ ٤٩) القرم: وهي شدة شهوة اللحم حتى لا يصبر عنه.

(٣) أخرجه ابن عساكر في " تاريخ دمشق " (٤٤/ ٣٠٠)، وذكر الذهبي في " سير اعلام النبلاء " (٢/ ٨٢).

رحم الله، ولذلك لما سأل هِرَقْلُ أبا سفيان: أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفائهم، قال له هرقل: هم أتباع الرسل.[١]

فأتباعُ الرسل أكثرهم من الضعفاء والفقراء والمساكين، أما الأشراف وأصحاب النعمة وأصحاب الأموال فهؤلاء كثيراً ما تجد أنهم يخالفون الرسل إلا من رحم الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿**وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴿٤٦﴾**﴾ الحِنْثُ: الإثمُ، ومنه قول أمِّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "كان رسول الله يتحنث الليالي ذوات العدد في غار حراء" [٢]وهنا معنى يتحنث يعني ينفي عنه الإثم، يعني يتقرب إلى الله بما يقربه من ربه ويبعد عنه الإثم ﷺ.

والحِنثُ العظيمُ: يعني الإثمُ العظيم، وهو الشرك بالله رب العالمين[٣]، ولا يوجدُ ذنبٌ أعظمُ مِنَ الشرك، قال الله عز وجل ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴿٤٨﴾**﴾ [النساء: ٤٨].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً وَقُلْتُ أُخْرَى، قَالَ النَّبِيُّ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣)، ومسلم في " صحيحه " (١٦٠).

(٣) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٢/ ٣٣٩)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ١١٣)، و"الجواهر الحسان" للثعالبي (٥/ ٣٦٨).

ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» وَقُلْتُ أَنَا: "مَنْ مَاتَ وَهْوَ لاَ يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ".(١)

وقول الحبيب ﷺ "من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة"(٢)

فأعظمُ ما عُصِيَ اللهُ به هو الشرك بالله عز وجل، وهذا هو الحِنثُ العظيم، الذي كان يُصِرُّ عليه المشركون، والعياذ بالله تعالى، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥]، يتعالَوا عن أن يُقِرُّوا بوحدانية الله جل جلاله، وتباركت أسماؤه، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ يعبدون الأصنام، يتقربون إليها كما يتقربون إلى الله، ويعبدونها ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فهذا الحنث العظيم لا يغفره الله، وله صورٌ كثيرةٌ في القديم والحديث، وقد بينا ذلك في شرح كتاب التوحيد، مِنَ التَّوَسُّلِ بالصالحين، ودعاءِ الأموات، واعتقادِ النَّفْعِ والضُّرِّ في الأنبياء والأولياء والشَّجَرِ والحَجَرِ، وغير ذلك من هذه الصور، نسأل الله العفو والعافية والسلامة.

ويُطْلَقُ الحِنْثُ العظيمُ أيضـًا على اليمين الغموس، كما نص على ذلك بعض السلف(٣)، ومعنى اليمين الغموس هنا: أنهم كانوا يُقسِمون بالله أنه لا بَعْثَ بعد الموت

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٢٣٨)، ومسلم في " صحيحه " (٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٨٨٧)، وأحمد في "مسنده" (٤٦٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٢٠١).

(٣) قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ في " النكت والعيون " (٥/ ٤٥٧) هو اليمين الغموس قاله الشعبي، وينظر

قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴿٤٧﴾﴾ يعني أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، يقولون أئذا متنا وصرنا تراباً يعني صار لحمُ أبدانهم تراباً، وصارت العظامُ نَخِرَةً، أئنا لمبعوثون بعد هذا.

الأدلة على البعث بعد الموت:

وربُّنا جلَّ جلالُه وتباركت أسماؤه ذكر أدلةً كثيرةً في كتابه على البعث بعد الموت، ولَوَّنَ سبحانه الأدلة الدالة على ذلك ونوَّعها[1]، ليدلل للعباد أن سبحانه سيبعثهم جميعاً ويحاسبهم على أعمالهم.

من هذه الأدلة:

الدليل الأول: خَلْقُ الناس:

قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]

فالله سبحانه جلَّ جلالُه يُذَكِّرُ الإنسانَ بِخَلْقِهِ أوَّلاً، كما أنه تعالى خَلَقَكَ أوَّلاً فسيُعيدك مَرَّةً ثانيةً، ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء:

=" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٠٣)، و" تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٧/ ٥٣٨).

(١) " جامع البيان " (٢٢/ ٣٤٠).

٥١]، وقال تعالى ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٧٩]، وقال تبارك وتعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ٥﴾ [الحج: ٥] يعني الذي خلق الخلق من ترابٍ وأوجَدَهُم مِن العَدَمِ، قادرٌ سبحانه على بعثكم مرةً أخرى، بل الإعادةُ أهونُ عليه، كما قال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]، وليس شيءٌ عسيراً على الله، فالكُلُّ هَيِّنٌ عليه تبارك وتعالى، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ وذَكَرَ الله تعالى أن الذي ينكر البعث نَسِيَ خَلْقَه، قال رب العزة سبحانه ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، يعني لو تَذَكَّرَ الإنسان في خَلْقِهِ، وفي خَلْقِ أبيه آدم، يعني كيف خلق الله أبانا آدم، وكيف تناسل مِن نَسْلِهِ هذه الذرية، وكيف خَلَقَكَ الله أنت، وكيف خَلَقَ هذا الكونَ العظيمَ، وهذه المخلوقات العظيمة.

فالذي خَلَقَ الخَلْقَ قادرٌ على أن يعيده مَرَّةً ثانيةً، سبحانه جل جلاله.

الدليل الثاني: النظرُ في المخلوقات:

ذَكَرَ اللهُ تعالى مِن الأدلةِ الباهرةِ على البعث بعد الموت، النَظَرَ في المخلوقاتِ

الكبارِ، كالسماوات والأرض، فقال الله تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال في سورة يس ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، جل جلاله وتباركت أسماؤه، وقال سبحانه ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال الله عز وجل ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

الدليل الثالث: إحياءُ الأرض بعد موتها:

يُذَكِّرُنا الله تعالى بإحياء الأرض بعد موتها، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال تعالى ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]

أي كما أننا نُنَزِّلُ الماءَ مِن السماء فنحيي به الأرض بعد أن كانت ميتةً، فكذلك نحيي الموتى بعد موتهم، ونبعثهم.

الدليلُ الرابعُ: ذكر الله سبحانه في كتابه أيضـاً بعضَ الكائنات التي أُميتت وأحياها الله تعالى في كتابه: كقصة عُزَيرٍ صاحبِ الحمار، الذي مَكَثَ مائةَ عامٍ، أماته الله مائة عامٍ ثم بعثه، وأحيا الله تعالى الحمار أمامه، قال تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩]

وكذلك قصة نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث أمره الله فأخذ أربعةً مِن الطيور وذبحها، وخَلَطَ لَحْمَهَا وريشَهَا وجعل على كلِّ جَبَلٍ جزءاً مِن هذه وهذه، ثم إذا به يَدْعُهُنَّ وقد أمسك برأس الطيور، فاجتمع اللحمُ بقدرة الله تعالى، وكلُّ لَحْمٍ يأتي يدخل في هذا الطائر وأحياه الله بعد أن كان ميتا، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وكذلك قصة صاحب البقرة في القرآن الكريم في سورة البقرة، ضربوه فأحياه الله تعالى أمامهم، وغير ذلك من الأدلة التي يذكرها الله سبحانه جل جلاله على البعث بعد الموت، ولكن المشركين ينكرون البعث بعد الموت، فنسأل الله جل جلاله أن يسترنا وإياكم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وهذا استبعادٌ لِبَعْثِ الآباءِ أكثر، لأن الآباءَ تَقَدَّمَ مَوْتُهُم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ

﴿مَّعْلُومٍ﴾ أي: قل إن متقدِّمَ الخَلْقِ ومُتَأَخِّرَهُم، الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقاتِ يومٍ معلومٍ، قَدَّرَه الله لعباده، حين تنقضي الخليقةُ، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.(١)

ولا شك أن اجتماع عدد لا يحصى كثرة أعجب من البعث نفسه.(٢)

كما قال الله تعالى ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ۝ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٨-١٩]، فإنما هي زجرةٌ واحدةٌ أي نفخةٌ واحدةٌ، فالخلائق كُلُّها تُجمع، الإنسُ والجِنُّ والطيرُ والدوابُّ والملائكةُ، بل والوحوشُ كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] والحشر هو الجمع،(٣)فالكل يُجمع أمام الله عز وجل لإقامة العدل، نسأل الله أن يلطف بنا ويسترنا.

وفي الصحيحين **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾**.(٤)

---

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (٨٣٤).

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٤٣).

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في " جامع البيان " (٢٤/ ١٣٦) وقال آخرون: بل معنى ذلك: جمعت واخرجه عن قتادة، ثم قال وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى حشرت: جمعت، فأميتت لأن المعروف في كلام العرب من معنى الحشر: الجمع؛ ومنه قول الله ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: ١٩] يعني: مجموعة. وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣] وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب الظاهر من تأويله، لا على الأنكر المجهول

(٤) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٤٩) ومسلم في " صحيحه " (٢٨٦٠).

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ يدل على أن البعثَ بعد الموت له ميقاتٌ وميعادٌ يعلمه الله، قال تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف: ١٨٧]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١﴾ وصفهم الله بأقبحِ وصفين، أنهم ضُلَّالٌ تائهون عن الحق، وأنهم مُكَذِّبُون للحق، يعني تائهون لا يهتدون، ومكذبون للهدى نسأل الله العافية والسلامة.

قوله تعالى: ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾ وشجرُ الزَقُّوم هو شجرٌ يَنْبُتُ في أصلِ الجحيم، وهو أقبحُ الأشجار وأَخَسُّها، وأنتنُها ريحاً، وأبشعُها منظراً، كما قال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨]

لما سمع المشركون أن رسول الله ﷺ أنزل الله عليه هذه الآية ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾ جعلوا يستهزؤون به ﷺ وبدينه الكريم، ويقولون محمد يَعِدُنا بشجرةٍ في النار، والنارُ يأكل الشجر[1]، وما علم هؤلاء السفهاءُ المجانينُ الكفرةُ بالله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في " تفسيره " (٣/ ٩٤) عن قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾ قَالَ:

رب العالمين، أن مولانا على ما يشاء قدير، فرد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ۝٦٤﴾ يعني كما أن شجر الدنيا يُغَذَّى بالماء، فهذه الشجرة تتغذى بالنار والعياذ بالله.

والزقومُ يعني شديدةُ البَلْعِ، كريهةُ المَنْظَرِ، مُنْتِنَةٌ.

كما أن لأهل الجنة شجرةً عظيمةً ذكرناها في هذه السورة العظيمةِ، وهي شجرةُ طوبى، **فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»**.(١)

قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ۝٥٣﴾

عن السدي، قال: " قال أبو جهل: لما نزلت ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ۝٤٣﴾ [الدخان:

=زَادَهُمْ تَكْذِيبًا حِينَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِيَ النَّارِ شَجَرَةً فَقَالَ: «يُخْبِرُهُمْ أَنَّ فِيَ النَّارِ شَجَرَةً وَالنَّارُ تَحْرِقُ الشَّجَرَ ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ غِذَاءَهَا مِنَ النَّارِ»

وأخرج الطبري في " جامع البيان " (١٩/ ٥٥٢) عن قتادة ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ۝٦٢﴾ حتى بلغ ﴿فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ۝٦٤﴾ قال: " لما ذكر شجرة الزقوم افتتن الظلمة، فقالوا: ينبئكم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله ما تسمعون: إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، غذيت بالنار ومنها خلقت.

وينظر " توفيق الرحمن في دروس القرآن " لفيصل المبارك (٣/ ٦٠٠).

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١١٦٧٣)، والطبري في " جامع البيان " (١٣/ ٥٢٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٤١٣)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٩٨٥).

٤٣] قال: تعرفونها في كلام العرب: أنا آتيكم بها، فدعا جارية، فقال: ائتيني بتمر وزبد، فقال: دونكم تزقموا، فهذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد، فأنزل الله تفسيرها: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ۝٦٣﴾ قال: «لأبي جهل وأصحابه».(١)

وهذا من تمام ضلالهم، والعياذ بالله، فالله تعالى قال: ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾، وفي سورة الصافات قال ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤﴾، ثم بَشَّعَهَا الله فقال ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۝٦٥﴾، وهل رأى الناسُ الشياطينَ؟

الجواب: لا، ولكن ربُّنا تعالى يُخبر الناسَ بما اسْتَقَرَّ في نفوسهم، مثالُ ذلك: قولُ الله عز وجل حاكياً عن النسوة قولهم في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما اجتمعن ورأينه ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: ٣١] وهن لم يرين الملائكة، وكذلك لم يرَ الناسُ الشياطينَ، لكنه اسْتَقَرَّ في نفوس الناس حُسْنُ مَنْظَرِ الملائكةِ وجمالها، وقبحُ منظرِ الشياطين، فلذلك قال بعضُ السلف: رؤوسُ الشياطين شعورُهُنَّ واقفةٌ إلى السماء.(٢)

فربنا تعالى يقول ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (١٩/ ٥٥٢)، وينظر "زاد المسير" (٧/ ٦٣).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٢٠) قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء. وإنما شبهها برءوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر"، وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٨١٩٩)

ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ يعني بَشَّعَ المَنْظَرَ في غايةٍ مِنَ البَشَاعَةِ[١]، ومُنْتِن الريح، وكذلك هو شديدُ البَلْعِ، يعني يَتَأَذَّى صاحِبُه أعظمَ الأذى عندما يأتي يبلعه[٢]، فهذا عذابٌ على عذابٍ، نسأل الله العافية.

قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي فشاربون بعد ذلك مِن ماءٍ حارٍّ، لِغَلَبَةِ العَطَشِ عليكم، ولكنه شُرْبٌ لا يشفي الغليل،

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في " جامع البيان " (١٩/ ٥٥٣) يقول تعالى ذكره: كأن طلع هذه الشجرة يعني شجرة الزقوم في قبحه وسماجته رءوس الشياطين في قبحها، وأخرج عن قتادة، قوله: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ قال: «شبهه بذلك» فإن قال قائل: وما وجه تشبيهه طلع هذه الشجرة برءوس الشياطين في القبح، ولا علم عندنا بمبلغ قبح رءوس الشياطين، وإنما يمثل الشيء بالشيء تعريفا من الممثل الممثل له قرب اشتباه الممثل أحدهما بصاحبه مع معرفة الممثل له الشيئين كليهما أو أحدهما، ومعلوم أن الذين خوطبوا بهذه الآية من المشركين، لم يكونوا عارفين شجرة الزقوم، ولا برءوس الشياطين، ولا كانوا رأوهما، ولا واحدا منهما؟ قيل له: أما شجرة الزقوم فقد وصفها الله تعالى ذكره لهم وبينها حتى عرفوها ما هي وما صفتها، فقال لهم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ فلم يتركهم في عماء منها وأما في تمثيله طلعها برءوس الشياطين، فأقول لكل منها وجه مفهوم: أحدها أن يكون مثل ذلك برءوس الشياطين على نحو ما قد جرى به استعمال المخاطبين بالآية بينهم وذلك.

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (١٨/ ٤١) وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها. وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (١٩/ ٦٠)، و"التفسير الكبير" للرازي (٢٦/ ١٢٣).

ومِن ثَمَّ تشربون ولا ترتوون.

فالحميمُ الماءُ المغليُّ أعلى درجاتِ الغليان، ليس بغليان الدنيا، بل بغليان نار جهنم، نسأل الله العفو والعافية.

والهِيمُ هي الإبل العطاش جداً، التي أصابها داءٌ، ومهما تَشْرَبُ لا تُرْوَى، فَتَظَلُّ تشربُ حتى تموتَ، والعياذ بالله.

ويقال: إن الهيمَ هي الرّمْلُ، لأنه لا يقف فيه الماءُ، فمهما أفرغتَ فيه من الماء لا يتماسك الماء بالرمل، وإنما يغور، بمعنى أن أهل النار يشربون الحميم شُربَ الرملِ الماءَ.(١)

فربُّنا يقول لأهل النار أنكم ستأكلون مِن شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ، حتى تملؤوا بطونكم، وكذلك تشربون، لأن عادة الذي يأكل يشرب.

فكأنكم الإبل التي أصيبت بداء الهيام، فلا يروي لها الماءُ غليلاً.

وخلاصة ذلك- أنه لزيادة العذاب لا ترتوون مِن شُرْبِ هذا الماءِ المُنْتِنِ الحارِّ، فلا تُمْسِكُوا عنه، بل يكون شُرْبُكُم كَشُرْبِ الإبل التي تشرب ولا تُروى.

ثم بيَّن سبحانه أنه ليس هذا كلَّ العذابِ، بل هو أوَّلُه وقطعةٌ منه، فقال:﴿**هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ۝٥٦**﴾ النُّزُلُ هو ما يُعَدُّ ضيافةً للعبد، أول ما يأكل.(٢)

أي هذا الزقُّومُ المأكولُ، والحميمُ المشروبُ، أولُ الضيافةِ التي تُقَدَّمُ لهم، كما

---

(١) قاله الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٤٢).

(٢) قاله القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٠٦).

يُقَدَّمُ للنَّازِلِ مما حضر، فما بالُك بهم بعد ما يستقرُّ بهم المُقامُ في النار؟! ولا يخفى ما في هذا مِن التَّهَكُّمِ بهم، والتوبيخِ لهم.(١)

وسُمِّيَ يومُ القيامة بيوم الدِّين؛ لأنه يومٌ نُدانُ فيه بأعمالنا.(٢)

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

بعد أن ذَكَرَ الله سبحانه الأزواجَ الثلاثةَ، وبَيَّنَ مآلَ كُلٍّ منها، وفَصَّلَ ما يلقاه السابقون وأصحابُ الميمنة مِن نعيمٍ مُقيمٍ، وذكر ما يلقاه أصحابُ المشأمةِ مِن عذابٍ لازِبٍ في حميمٍ وغَسَّاقٍ، وذَكَرَ أن ذلك إنما نالهم، لأنهم أشركوا بربهم وعبدوا معه غيره وكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وأنكروا البعث والجزاء- أردف ذلك إقامةَ الأدلةِ على الألوهية مِنْ

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٤٣)

(٢) " جامع البيان " (٢٢/ ٣٤٥).

خَلْقٍ ورِزْقٍ لطعامٍ وشرابٍ، وأقام الدليل على البعث والجزاء، ثم أثبت الأصل الثالث وهو النبوة فيما بعد.(١)

قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ۝٥٧﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، مِن غيرِ عَجْزٍ ولا تَعَبٍ، أفليس القادرُ على ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى؟ بلى؛ إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ولهذا وَبَّخَهُم على عَدَمِ تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.(٢)

وفي هذا تقريرٌ للمعاد، وردٌّ على المكذِّبين به، المستبعدين له مِن أهلِ الزَّيغِ والإلحاد،

ثم أعاد الدليل فقال:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ۝٥٨﴾ أفرأيتم هذا المنيَّ الذي تقذفونه في رَحِمِ نسائكم.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ۝٥٩﴾ أأنتم تصورونه وتقدرونه إنساناً في بطن الأم جنيناً نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم يصير عظاماً، ثم يُكسى العظامُ لحماً، هل أنتم الذين تخلقون الجنين في بطن الأمِّ أم نحن الخالقون، يعني بل نحن الخالقون، الله هو الخالق سبحانه، فهو الذي يخلق الإنسان وسائر المخلوقات في بطن الأم.(٣)

قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ۝٦٠﴾ أي أن الله

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٤٥).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (٨٣٤).

(٣) " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٠٧).

تعالى قَدَّرَ الموتَ على جميع الخلائق، قَدَّرَهُ سبحانه وقضاه وأمضاه وأوجبه على جميع الخلائق.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ۝٦٠﴾ يعني ما هناك أَحَدٌ أبداً يَغْلِبُ الله، والمعنى: وما نحن بعاجزين، ولا مغلوبين.(١)

وهذا احتجاجٌ عليهم وبيانٌ للآية الأولى، أي إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا؛ فاعترفوا بالبعث، أي الذي يَقْدِرُ على الإماتة يقدر على الخلق، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث.(٢)

وعدم البعث يدل على أن الخلق خُلِقَ عَبَثَاً، وحاشا لله، وقد نفى الله ذلك في كتابه؛ فقال ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ۝١١٥ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ۝١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، فمن تمام حكمة الله أنه خلق الخلق، إذن يميتهم بعد انتهاء آجالهم، ويبعثهم ليجازيهم، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، سبحانه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المعنى: إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لا يسبقنا سابقٌ، ولا يفوتنا ذلك.(٣)

يعني أنكم في الحياة الدنيا ما أطعتم الله، كقوله جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ٢٠٧).

(٢) قاله القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٢٠٧).

(٣) ينظر "معاني القرآن وإعرابه" (٥/ ١١٤)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢١/ ٢٤٧).

مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤] نسأل الله أن يستعملنا ولا يستبدلنا.

ومن معانيها أيضـًا: أي: نغير خلقكم يوم القيامة، ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: مِن الصفات والأحوال. (١)

وهكذا يكون أهل الجنة، وأيضـًا أهل النار، أما أهل الجنة فلن تدخل الجنة بهذه الخلقة الضعيفة، بل إنك ستدخل داراً فيها متعةٌ لا يمكن وصفُها، فتحتاج إلى قوةٍ وعافيةِ بدنٍ، كما في الصحيحين **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ... عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ».** (٢)

أما عن الكافر، ففي حديث **أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر، أو ناب الكافر، مثل أُحُدٍ، وغِلَظُ جلده مسيرةُ ثلاثٍ».** (٣)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: قد علمتم أن

---

(١) قاله ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٣٩)

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٢٧)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٣٤).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٥١)، والترمذي في " سننه " (٢٥٧٧)، وأحمد في " مسنده " (٨٣٤٥)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٤٨٦).

الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فَهَلَّا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة -وهي البداءة- قادرٌ على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى، وكما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧-٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].[١].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وهو شَقُّ الأرضِ وإثارتُها والبذرُ فيها. ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي: تنبتونه في الأرض ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: بل نحن الذين نقره قراره وننبته في الأرض.[٢]

يعني أن ربَّنا جلَّ جلالُه وتباركت أسماؤه يقول للناس: انظروا إلى الزروع والثمار التي تخرج أصنافًا شتى مِن الأرض، كما قال تعالى ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ

(١) قاله ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٣٩).

(٢) "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٧/ ٥٤٠).

﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: ٤]، أرضٌ واحدةٌ، وماءٌ واحدٌ، وهذا يَخرجُ بجواره الرُمَّانُ، وهذا بجواره الموزُ، ويخرج بجواره التفاحُ، ويخرج بجواره البرتقال، ويخرج بجواره فلفلٌ حارٌّ، وهكذا تبارك ربي جل جلاله.

تنبيهٌ: وردفي هذا الباب حديثٌ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: زَرَعْتُ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: حَرَثْتُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾**. لكنه بإسناد ضعيف جداً.(١)

ولو تفكر المزارع في هذا الزرع لازداد إيمانـاً ويقينـاً، لأنه يَبْذُرُ البِذْرَةَ في الأرض، ثم يُغَطِّيها، ثم يراها بعد أيامٍ يسيرةٍ تَشُقُّ هذه الأرض، فيرى عوداً صغيراً إذا به يَكْبُرُ شيئـاً فشيئـاً فيكون ورقتين، وهكذا يبدأ يكبر، وكما قال الله تعالى ﴿ **وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥** ﴾ [الحج: ٥]، يكبر الزرع وينمو، ثم يخرج ثماراً عظيمةً هائلةً مباركةً مِن حَبٍّ وبُقُولٍ وفواكه وما

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٤٨)، وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (٨/ ٢٦٧)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٧٢٣)، والطبراني في " الأوسط " (٨٠٢٤)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٨٠١)، وضعفه جدا الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء الذاريات ص (٤٨٩).

لَذَّ وطابَ مما ينتفع به الإنسانُ والحيوانُ، فالله وحده هو الذي يزرع، لذلك ما على العبد إلا أن يتوكل على الله، ويأخذ بالأسباب ويحرث الأرض، والله الذي يزرعها له، وينبت هذا الزرع ويخرجه.(١)

قوله تعالى ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴿٦٥﴾﴾ أي: نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لجعلناه حطاما، أي: لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده، فصار كأوراق الشجر التي يبست وصارت تذروها الرياح.(٢)

وقوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴿٦٥﴾﴾ أي فظلتم تندمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت لكم عقوبته، حتى نالكم في زرعكم ما نالكم، فخسرتم المال وخسرتم الزرع. (٣)

وقال آخرون: معنى ذلك: فظلتم تلاومون بينكم في تفريطكم في طاعة ربكم جل ثناؤه، حتى نالكم بما نالكم من إهلاك زرعكم.(٤)

وأهل العلم يقولون: تفكه من الأضداد، تقول العرب: تفكهتُ بمعنى تنعمتُ،

---

(١) انظر "تفسير السعدي" ص (٨٣٥).

(٢) "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٧/ ٥٤٠).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٥٠) عن الحسن وقتادة. وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٠)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٥/ ٥٠٤).

(٤) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٤٩) عن عكرمة. وينظر "الهداية إلى بلوغ النهاية" لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٢٨٥).

وتفكهتُ بمعنى حزِنتُ.(١)

والله سبحانه يُلفت نظَرَكَ لهذه الآيات حتى تشكره عليها، ولذلك مولاك قال لك ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ [عبس: ٢٤-٣٢] يعني عندما تنظر إلى طعامك من أرزٍ ولحمٍ وخضراوات، فتفكر في هذه النعمة حتى تشكر الله عز وجل عليها، تفكر في الأرز كيف خرج وكيف وصل إليك، وكذلك اللحم أُخِذَ من حيوانٍ، كيف يكون ذلك الحيوان، وهكذا تتفكر في خلق الله تبارك وتعالى كيف جاء هذا الطعام.

قال ربنا تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾ ﴿لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦﴾ أي مدينون بالأموال التي أنفقناها على هذا الزرع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو جعلناه حطاماً لظلتم تفكهون في المقالة، تُنوعون كلامكم، فتقولون تارةً: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦﴾ أي: لملقون.

وقال مجاهد، وعكرمة -رحمهما الله-: إنا لمولع بنا، وقال قتادة: معذبون.

وتارةً تقولون: بل نحن محرومون.

وقال مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أيضاً-: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦﴾ ملقون للشر، أي: بل نحن محارفون، قاله قتادة، أي: لا يثبت لنا مال، ولا ينتج لنا ربح.(٢)

---

(١) عزاه ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤١) إلى الكسائي.

(٢) " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤١)، وينظر "الكشف والبيان" للثعلبي (٢٥/ ٥٠٦).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ المزن هي السحاب، فالله عز وجل يقول: أفرأيتم أيها الناس الماء الذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من السحاب فوقكم إلى قرار الأرض، أم نحن منزلوه لكم.(١)

والجواب: بل أنت يا رب الذي أنزلتَ، وأنت الذي تَفَضَّلْتَ وأنت الذي أنعمتَ، وما بنا من نعمة إلا من الله عز وجل، بل **كان النبي ﷺ يقول " اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ، وَلَكَ الشُّكْرُ "**، ويقول مثل هذا إذا أمسى. (٢)

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ يقول تعالى ذكره: لو نشاء جعلنا ذلك الماء الذي أنزلناه لكم من المزن مِلحـًا، وهو الأُجاج، والأُجاجُ من الماء: ما اشتدت ملوحتُه، يقول: لو نشاء فعلنا ذلك به فلم تنتفعوا به في شُربٍ ولا غرسٍ ولا زرعٍ.(٣)

---

(١) قاله الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٢٥٣).

(٢) **(ضعيف)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٥٠٧٣)، والنسائي في " الكبرى " (٩٧٥٠)، وابن أبي الدنيا في " الشكر " (١٦٦)، وضعفه الألباني في " ضعيف الترغيب والترهيب " (٣٨٥) **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ غَنَّامٍ الْبَيَاضِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ، وَلَكَ الشُّكْرُ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ»**

(٣) قاله الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٥٤).

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ۝٧٠﴾ يعني اشكروا الله عز وجل على هذه النعمة، وكم مِن إنسانٍ غافلٌ عن هذا، فهو يشرب ليلَ نهارَ، ولا يشكر ربَّه على هذه النعمة العظيمة، أن جعل الماءَ عذباً ذُلالاً مستساغاً طيباً.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها».(١)

وعن أنسٍ رضي الله عنه -أيضاً-، أن رسول الله ﷺ، كان إذا أوى إلى فراشه، قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي».(٢)

وورد في هذا الباب حديث "**إذا شرب أحدكم الماء فليقل الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله مِلحاً أُجاجاً بذنوبنا**" لكنه حديثٌ ضعيفٌ ليس بصحيح.(٣)

ثم ختم الله هذه الآيات التي ينبهك فيها إلى التفكر في مخلوقات الله حولك،

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧٣٤)، والترمذي في " سننه " (١٨١٦)، والنسائي في " الكبرى " (٦٨٧٢)، وأحمد في " مسنده " (١١٩٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧١٥)، وأبو داود في " سننه " (٥٠٥٣)، والترمذي في " سننه " (٣٣٩٦)، والنسائي في " الكبرى " (١٠٥٦٧)، وأحمد في " مسنده " (١٢٥٥٢)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٥٤٠).

(٣) (ضعيف) أخرجه أبو نعيم في " حلية الأولياء " (٨/ ١٣٧)، والطبراني في " الدعاء " (٨٩٩)، ابن أبي الدنيا في " الشكر " (٧٠)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (٤١٦٢)، ضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة " (٤٢٠٢).

فقال جل جلاله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ۝٧١﴾ يعني تقدحون وتستخرجونها مِن أصلها.

قوله تعالى:﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ۝٧٢﴾ أي: بل نحن الذين جعلناها مودَعةً في موضعها، والعجب أن العرب لهم شجرتان، هاتان الشجرتان إذا أُخذ منهما غصنان أخضران، فَحُكَّ أحدُهما بالآخر تطاير الشررُ منه، واسمهما المَرْخُ وَالْعَفَارُ، فإذا أخذتَ منهما غصناً أخضرَ وحككتَه بالآخر اتَّقَدَ ناراً بقدرة الله عز وجل.[١]

والنار ينتفع بها الناس نفعًا عظيمًا، لذلك ربنا تعالى يقول:﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ۝٧٣﴾ اختلف أهل التأويل في معنى المقوين، فقال بعضهم: هم المسافرون.[٢]

وقال آخرون: عني بالمقوين: المستمتعون بها[٣]، وهو تفسيرٌ أعمُّ، فالمرادُ أنهم جميع الناس، فجميع الناس ينتفعون بالنار، ينتفع بها الإنسانُ في طعامه وفي شرابه وفي صنع الآلات وفي غير ذلك، وقد يَسَّرها الله تعالى الآن، فبضغط زِرٍّ كهرباء تخرج النارُ.

---

(١) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤١).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٥٦)، عن ابن عباس وقتادة والضحاك، ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عني بذلك للمسافر الذي لا زاد معه، ولا شيء له.

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٥٧) عن مجاهد وخصيف.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا التفسيرُ أعمُّ مِن غيره، فإن الحاضر والبادي مِن غنيٍّ وفقيرٍ، الكلُّ محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع، ثم مِن لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أُفرد المسافرون، وإن كان ذلك عاماً في حَقِّ الناسِ كُلِّهم".أهـ(١)

وقوله تعالى: :﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي أن نار الدنيا تذكركم بنار الآخرة، كما في الصحيحين **عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ، قال: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً، مِن حَرِّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية، يا رسول الله قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلُّها مثلُ حَرِّها»**.(٢)

وروى الإمام أحمد **عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «نَارُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ضُرِبَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ»**.(٣)

ومعنى أنها ضُرِبت بالبحر مرتين أنها نارٌ شديدةٌ عظيمةٌ، وضُرِبَت بالبحر مرتين،

---

(١) "تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٦٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٤٣).

(٣) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٧٣٢٧)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٤٦٣)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب " (٣/ ٤٧١).

ولو لا ذلك ما جعل الله فيها منفعةً لأحدٍ[١]، سبحان رب العالمين جل جلاله.

قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي عَظِّمْ ربَّك، ونَزِّهه أيها المسلم أن يخلق الخلق ولا يبعثهم ولا يحاسبهم، ونزهه جل جلاله عن كل النقائص والعيوب.

فهو الذي بقدرته خلق هذه الأشياءَ المختلفةَ المُتَضَادَّةَ؛ الماءَ العذبَ الزُّلالَ البارِدَ، ولو شاء لجعله مِلحـًا أُجاجـًا كالبحار المُغرِقة، وخلق النار المُحْرِقَةَ، وجعل ذلك مصلحةً للعباد، وجعل هذه منفعةً لهم في معاشِ دنياهم، وزاجراً لهم في المعاد.[٢]

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قَالَ:

---

(١) قال ابن حجر رحمه الله في "فتح الباري" (٦/ ٣٣٤) قَوْلُهُ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا فِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ وَالْجَمْعُ بِأَنَّ الْمُرَادَ الْمُبَالَغَةُ فِي الْكَثْرَةِ لَا الْعَدَدِ الْخَاصِّ أَوِ الْحُكْمِ لِلزَّائِدِ زَادَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا حَرُّهَا قَوْلُهُ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً إِنْ هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ أَيْ إِنَّ نَارَ الدُّنْيَا كَانَتْ مُجْزِئَةً لِتَعْذِيبِ الْعُصَاةِ قَوْلُهُ فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ كَذَا هُنَا وَالْمَعْنَى عَلَى نِيرَانِ الدُّنْيَا وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ فُضِّلَتْ عَلَيْهَا أَيْ عَلَى النَّارِ قَالَ الطِّيبِيُّ مَا مُحَصَّلُهُ إِنَّمَا أَعَادَ ﷺ حِكَايَةَ تَفْضِيلِ نَارِ جَهَنَّمَ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا إِشَارَةً إِلَى الْمَنْعِ مِنْ دَعْوَى الْإِجْزَاءِ أَيْ لَا بُدَّ مِنَ الزِّيَادَةِ لِيَتَمَيَّزَ مَا يَصْدُرُ مِنَ الْخَالِقِ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى مَا يَصْدُرُ مِنْ خَلْقِهِ.

(٢) قاله ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤٣)، وينظر "التفسير الوسيط" للزحيلي (٣/ ٢٥٨١).

"اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ".[١]

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ۝٨٢﴾

بعد أن ذكر سبحانه الأدلةَ على الألوهيةِ والبعثِ والجزاءِ، أَعْقَبَ هذا بذكرِ الأدلة على النبوة وصِّدْقِ القرآن الكريم، وأقسم على هذا بما يرونه في مشاهداتهم مِن مساقط النجوم، إنه لكتابٌ كريمٌ لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُون، وأنه نزل مِن لدن ربِّ العالمين على يد جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكيف تتهاونون في اتِّبَاعِ أوامره، والانتهاءِ عن نواهيه، وتجعلون شُكْرَكُم على هذا تكذيبَكُم بنعم الله وجزيل فضله عليكم؟.[٢]

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ۝٧٥﴾ المعنى عند جمهور العلماء: أقسم[٣]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: " قال بعض المفسرين: "لا" هاهنا زائدةٌ،

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٨٦٩) ابن ماجه في " سننه " (٨٨٧) وأحمد في " سننه " (١٧٤١٤) وضعفه الألباني في " ارواء الغليل " (٣٣٤)، وذكر محققو المسند أنه محتمل للتحسين (٢٨/ ٦٣٠)، وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " - تفسير جزء الذاريات ص (٥١٦)

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٤٩).

(٣) عزاه البغوي في " معالم التنزيل " (٨/ ٢٢) إلى أكثر الْمُفَسِّرِينَ، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢١٧).

وتقديره: أقسم بمواقع النجوم، ورواه ابن جرير، عن سعيد بن جبير، ويكون جوابه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.(١)

وقال آخرون: ليست "لا" زائدة لا معنى لها، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على منفي، كقول عائشة رضي الله عنها: "لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط" وهكذا هاهنا تقدير الكلام: "لا أقسم بمواقع النجوم" ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحرٌ أو كهانةٌ، بل هو قرآنٌ كريمٌ". أهـ(٢)

لأن المشركين قالوا عن القرآن بأنه سحرٌ، وقالوا بأنه كهانةٌ، فربنا عز وجل قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ وينفي رب العزة جل جلاله عن القرآن بأن يكون سحراً، أو مَسَّتْهُ يدُ الشياطين، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ مواقع النجوم هي مطالعُ النجومِ ومغاربُها.(٣)

قال السعدي رحمه الله: أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغاربها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده.

ثم عظَّم هذا المُقْسَمَ به، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وإنما كان

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٥٩) عن سعيد بن جبير.

(٢) " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤٤).

(٣) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٦٠) عن مجاهد. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٦٢)، والرّسْعَني في "رموز الكنوز" (٦٨٩).

القسم عظيمـًا، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آياتٍ وعبراً لا يمكن حصرُها.[١]

وذهب بعض العلماء إلى أن مواقع النجوم الأنواءُ التي كان أهل الجاهلية إذا مُطروا قالوا: مُطرنا بنوء كذا.[٢]

وقال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: " نزل القرآنُ جملةً من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فَنَجَّمَتْهُ السَّفَرَةُ على جبريل عشرين ليلةً، ونَجَّمَهُ جبريلُ على محمدٍ ﷺ عشرين سنةً، فهو قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ نجوم القرآن.[٣]

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ يعني هذا القسم لو أنكم تعلمون أيها الخلق إنه عظيمٌ، فهذه المخلوقات الكبار أقسم الله تعالى بها في كثيرٍ مِن آياته، أقسم بالسماء والأرض، وأقسم بالشمس، وأقسم بالليل، وأقسم بالضحى، وأقسم بالنجوم، سبحانه عز وجل، والله له أن يقسم بما شاء من خلقه، وأما المخلوق فليس له أن يقسم إلا بالله عز وجل.

---

(١) " تيسير الكريم الرحمن " (٨٣٦).

(٢) قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ في " النكت والعيون " (٥/ ٤٦٣) قاله الضحاك، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢١٨).

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤٤): وقال الضحاك عن ابن عباس، وينظر " النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٦٤٣)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ٢١٩).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ هذا هو المُقْسَمُ عليه، أي أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآنٌ كريم، ليس بسحرٍ ولا كهانةٍ، وليس بمفترى، بل هو قرآنٌ كريمٌ محمودٌ، جعله الله تعالى معجزةً لنبيه ﷺ، وهو كريمٌ على المؤمنين، لأنه كلامُ ربِّهم، وشفاءُ صدورِهم، كريمٌ على أهل السماء، لأنه تنزيلُ ربِّهم ووحيُه.[(١)]

ومعنى كريم أي كثير الخير، وهل هناك كثرةُ خيرٍ تأتي للعبد أعظمُ مِن الخيرِ الذي يأتيه مِن القرآن الكريم؟

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كريم لما فيه من كريم الأخلاق ومعالي الأمور، وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارئه". أهـ[(٢)]

قرآنُ ربي جلَّ جلالُه، لك بكلِّ حرفٍ تقرأه عشرُ حسناتٍ، ويقال لصاحب القرآن في الجنة اقرأ وارتقِ ورتِّل فإن منزلتك عند آخر آيةٍ تقرؤها، وحاملُ القرآن يُكسى والداه حُلَّتَيْنِ لا يُقَوَّمُ لهما أهل الدنيا، فالقرآن الكريم بركاتُه لا تُحصى ولا تُعَدُّ للعبد في الدنيا وكذلك في الآخرة، وعلى القبر، وفي الصراط، وفي المحشر، وعند تطاير الصحف، وغير ذلك، يكرمك الله تعالى به كرامةً عظيمةً جليلةً.

ومن بركته أنه يحوي أعظم العلم، فمن طلب أعظم العلوم يطلبها من كتاب الله عز وجل، وكل السادة العلماء في شتى نواحي الدين سواء في الفقه، أو في العقيدة، أو في

---

(١) قاله القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٢٠).

(٢) " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٢٠)، وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٦٣)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٢٢٧).

التفسير، أو في غيرها من نواحي العلوم، يستدلون أعظم الأدلة من كتاب الله عز وجل.

وبركاتُ القرآن لا تُحصى، قال الله تعالى ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥]، الذي يقرؤه تحصل له البركة، الذي يسمعه تحصل له البركة، الذي يعمل به هذا أعظم البركات، الذي يدعو إليه تناله بركات عظيمة في الدنيا والآخرة، الذي يورثه فيشتري مصحفاً ويجعله لله عز وجل فهذا بركة لهذا العبد.

ذِكْرُ أوصاف الله لقرآنه:

وصف الله كتابه الكريم بأوصافٍ جليلةٍ، في آياتٍ كثيرةٍ، منها:

قوله تعالى ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ [ق: ١]، وقال سبحانه ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: ٨٧].

والكلام في صفات الله كالكلام في ذات الله، والقرآن كلام الله، وصفةٌ مِن صفاته جل جلاله، فكما أن الله عظيمٌ، وهو أعظمُ مِن كُلِّ مخلوقٍ، كذلك كلامُ الله أعظمُ الكلام.

لذلك مَن استغنى عن القرآن بكلام غيره، فهو محرومٌ، كأن يشغل وقته في سماع نشرات الأخبار وينشغل بها عن كتاب الله، أو بقراءة الصحف والجرائد، أو النظر إلى الغرب الكافر بنظرة إعجابٍ وتَتَبُّعِ كلام الفلاسفة والمستشرقين، وينظر كأنها النبراس الذي ينبغي للعبد أن يسير عليه، لا شك أن مثل هذا حاد عن طريق الحق، وخسر خسراناً عظيماً، نسأل الله العفو والعافية، وليس معنى ذلك حرمة سماع الأخبار، لا،

لكنك لا تُشغل عن كتاب الله، لا بد لك مِن نهلٍ تنهله دائمـًا أبداً يوميـًا مِن كتاب الله حتى تستفيد وتزداد إيمانـًا.

وقال ربنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١﴾ [فصلت: ٤١] فالقرآنُ عزيزٌ، إذا أقبلتَ عليه أفاض الله عليك مِن بركاته ما لا يُحصى، وما لا يخطر لك على بالٍ، وإذا توليتَ عنه لا يبقى معك أبداً؛ لأنه عزيزٌ، **فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها»**(١)، يعني صاحب الإبل إن أمسكها وربطها بقيت معه، وإن تركها انطلقت وَوَلَّتْ هاربةً، كذلك صاحب القرآن، إذا تعاهد القرآن بالقراءة والمراجعة والمدارسة ثبت معه القرآن، وإن انشغل عنه نسيه.

والله تعالى قال عن القرآن أيضـًا ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١-٢]، أي أن القرآن مُحْكَمٌ، أحكمه الله غايةَ الإحكامِ.

فإذا أيقنَّا أن القرآن كريمٌ وحكيمٌ وعزيزٌ وعظيمٌ ومجيدٌ؛ فيجب علينا أن نجتهد في تلاوته، وفي العمل به، وفي حفظه، وفي تعليمه لأبنائنا، وفي نشر العلم بالقرآن.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾ يقول تعالى ذكره: هو في كتابٍ مصونٍ عند الله لا يَمَسُّهُ شيءٌ مِن أذى مِن غبارٍ ولا غيره، فهو في السماء في اللوح المحفوظ.(٢)

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٠٣٣)، ومسلم في " صحيحه " (٧٩١).

(٢) قاله الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٦٢). وقال ابن كثير رحمه الله في " تفسير ابن كثير " (٧/ ٥٤٤) أي: مُعَظَّمٌ في كتابٍ معظم محفوظ موقر.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ۝٧٩﴾ وفي المرادِ بهذه الآية كلامٌ طويلٌ جداً للسادة العلماء، نختصر هذا الكلام ونجمله؛ بأن أهل العلم اختلفوا على عدةِ أقوالٍ:

القول الأول: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ۝٧٩﴾ يعني الملائكة(١)، يعني أنهم مطهرون من الذنوب، لا يقعون في ذنبٍ، وجنح إلى هذا القول إمام أهل التفسير الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكنه ذهب في قوله المطهرون إلى أنه لا يقتصر على الملائكة، بل يشمل كُلَّ مُطَهَّرٍ مِن الذنوب، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَنَا، أَنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، أَخْبَرَ أَنْ لَا يَمَسَّ الْكِتَابَ الْمَكْنُونَ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ فَعَمَّ بِخَبَرِهِ الْمُطَهَّرِينَ، وَلَمْ يُخَصِّصْ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ؛ فَالْمَلَائِكَةُ مِنَ الْمُطَهَّرِينَ، وَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْمُطَهَّرِينَ وَكُلُّ مَنْ كَانَ مُطَهَّرًا مِنَ الذُّنُوبِ، فَهُوَ مِمَّنْ اسْتُثْنِيَ، وَعُنِيَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ".(٢)

وهذا القول أَيَّدَهُ أهلُ العلم بظاهر الآية، وحملوه على سورة "عبس" في قوله تعالى﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ۝١٦﴾ [عبس: ١٣-١٦].(٣)

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٦٣) عن ابن عباس وسعيد بن جبير وجابر بن زيد، وأبي نهيك وعكرمة ومجاهد وأبي العالية.

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٢/ ٣٦٦).

(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٢١) وهو نحو ما اختاره

وورد بإسنادٍ حسن عن سعيد بنِ جبيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قال أنهم "الملائكة الذين في السماء".(١)

وورد أيضـًا عن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: "المطهرون الملائكة".(٢)

فالقول الأول لأهل العلم أنهم حملوا ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ على أنهم الملائكة.

والقول الثاني: وهو الذي عليه جماهير الأئمة، يعني الأئمة الأربعة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وجماهير السلف والخلف، قالوا بأن قوله تعالى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ المراد به القرآن الكريم، والمراد ب ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ يعني المطهرون من الحدث، سواء كان أكبر أو أصغر، لا يمس القرآن إلا طاهر.(٣)

=مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: أحسن ما سمعت في قوله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في (عبس وتولى) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ وعزاه السيوطي في "الدر المثنور" (١٤/ ٢٢٣) لابن المنذر.

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٦٤)، وحسنه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " - تفسير جزء الذاريات (٥٠٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في " تفسيره " (٢١٦٤).

(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٢١) وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤٥) وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا:

وقد نص الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك في المجموع، وقال: "مَذْهَبُنَا تَحْرِيمُهُمَا أي مس المصحف للمحدث.وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ وَعَنْ الْحَكَمِ وَحَمَّادٍ وَدَاوُد يَجُوزُ مَسُّهُ وَحَمْلُهُ وَرُوِيَ عَنْ الْحَكَمِ وَحَمَّادٍ جَوَازُ مَسِّهِ بِظَهْرِ الْكَفِّ دُونَ بَطْنِهِ".أهـ(١)

وأخرج الدارقطني رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا مع سلمان في سفر فانطلق فقضى حاجته ثم جاء، فقلنا: يا أبا عبد الله توضأ لعلنا نسألك عن آيٍ من القرآن. فقال: سلوني فإني لا أمسه إنه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ فسألناه فقرأ علينا قبل أن يتوضأ.(٢)، وفي رواية: أنه قرأ بعد الحدث.(٣)

وللإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ رائعٌ رائقٌ، وهو يوجه هذه الآية الكريمة ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ ، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: وَالصَّحِيحُ فِي الْآيَةِ، أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: الصُّحُفُ الَّتِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، لِوُجُوهٍ عَدِيدَةٍ:

مِنْهَا: أَنَّهُ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ مَكْنُونٌ، وَالْمَكْنُونُ: الْمَسْتُورُ عَنِ الْعُيُونِ، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي

=والمراد بالقرآن هاهنا المصحف.

(١) "المجموع" (٢/ ٧٢).

(٢) **(صحيح)** أخرجه سعيد بن منصور في "تفسيره" (٢١٦٥)، والدراقطني في "سننه" (٤٤٤)، والحاكم في "المستدرك" (٦٥١)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٤٢)، وصححه محققوا سنن سعيد بن منصور (٨/ ١٨).

(٣) أخرجها الدراقطني في "سننه" (٤٤٦).

الصُّحُفِ الَّتِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ قَالَ: ﴿**لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩**﴾، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَلَوْ أَرَادَ الْمُتَوَضِّئِينَ لَقَالَ: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُتَطَهِّرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢] فَالْمَلَائِكَةُ مُطَهَّرُونَ، وَالْمُؤْمِنُونَ مُتَطَهِّرُونَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَذَا إِخْبَارٌ، وَلَوْ كَانَ نَهْيًا لَقَالَ: لَا يَمْسَسْهُ بِالْجَزْمِ، وَالْأَصْلُ فِي الْخَبَرِ: أَنْ يَكُونَ خَبَرًا صُورَةً وَمَعْنًى.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ جَاءَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا تَنَالُهُ الشَّيَاطِينُ، وَلَا وُصُولَ لَهَا إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ الشُّعَرَاءِ ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ - وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١١] وَإِنَّمَا تَنَالُهُ الْأَرْوَاحُ الْمُطَهَّرَةُ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَذَا نَظِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ عَبَسَ ﴿**فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦**﴾ [عبس: ١٢ - ١٦].

قَالَ مَالِكٌ فِي مَوَطَّئِهِ: أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿**لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩**﴾ [الواقعة: ٧٩] أَنَّهَا مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ عَبَسَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ مِنْ سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ، تَتَضَمَّنُ تَقْرِيرَ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، وَإِثْبَاتِ الصَّانِعِ، وَالرَّدَّ عَلَى الْكُفَّارِ، وَهَذَا الْمَعْنَى أَلْيَقُ بِالْمَقْصُودِ مِنْ فَرْعٍ عَمَلِيٍّ، وَهُوَ حُكْمُ مَسِّ الْمُحْدِثِ الْمُصْحَفَ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ بِهِ الْكِتَابُ الَّذِي بِأَيْدِي النَّاسِ؛ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى ذَلِكَ

بِهَذَا الْقَسَمِ الْعَظِيمِ كَثِيرُ فَائِدَةٍ.

ـ إلى أن قال ـ : فَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ – قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ – يَقُولُ: لَكِنْ تَدُلُّ الْآيَةَ بِإِشَارَتِهَا عَلَى أَنَّهُ لَا يَمَسُّ الْمُصْحَفُ إِلَّا طَاهِرٌ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الصُّحُفُ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، لِكَرَامَتِهَا عَلَى اللهِ، فَهَذِهِ الصُّحُفُ أَوْلَى أَنْ لَا يَمَسَّهَا إِلَّا طَاهِرٌ". أهـ(١)

فشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يرجح مذهب جماهير العلماء، في عدم جواز مس المصحف للمحدث، ولا شك أنه قولٌ قويٌّ، والعلماء الذين ذهبوا إلى أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، استدلوا بظاهر الآية كما ذكرنا، وذهبوا إلى حمله على القرآن الكريم الذي بين أيدي الناس.

واستدلوا على ذلك أيضاً بحديث عمرو بن حزم، وهو كتابٌ مشهورٌ قد كتبه له رسول الله ﷺ، وفيه: "لا يمس القرآنَ إلا طاهرٌ".(٢)

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:" واحتجوا في ذلك: بما رواه الإمام مالك في موطئه، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: **"ألا يمسَّ القرآنَ إلا طاهرٌ"**، وروى أبو داود في المراسيل، من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفةٍ عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن

---

(١) ينظر "مدارج السالكين" (٢/ ٣٩١)، و"التفسير القيم" (٥٢٨).

(٢) (صحيح) أخرجه مالك في " الموطأ " (٥٣٤)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٥٥٩)، والنسائي في " سننه " (٤٨٥٣)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (١٢٢).

رسول الله ﷺ قال: **"ولا يمس القرآن إلا طاهر"**،وهذه وِجادةٌ جيدةٌ، قد قرأها الزهريُّ وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به، وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاص، وفي إسناد كلٍّ منها نظرٌ، والله أعلم".أهـ(١)

وهذا الحديث ضعفه عددٌ كبيرٌ مِن أهل العلم(٢)، وصححه بعضهم؛ فقالوا: هذا كتابٌ مشهورٌ عن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قد كتبه.(٣)

وقد ذهب الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره إلى جواز مسِّ المصحف للمحدث، وقالوا أن الأدلة على ذلك: البراءة الأصلية، يعني لم يوجد دليلٌ صريحٌ عندهم في منع المحدث مِن مَسِّ المصحف، وقالوا أنهم لم يرد عندهم خبرٌ صحيحٌ ينهي عن ذلك، وأجابوا عن الآية ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ بأن المراد بها الكتاب الذي في السماء، والمراد بهم الملائكة الكرام، وضعفوا الأحاديث الصريحة في عدم جواز مَسِّ المصحف لغير الطاهر.(٤)

---

(١) " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٤٥٤).

(٢) قال أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ في " المراسيل " (٩٤) رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ، مُسْنَدًا وَلَا يَصِحُّ، وقال الدارقطني في " السنن " (٤٣٥) مرسل ورواته ثقات.

(٣) قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في " الاستذكار " (٢/ ٤٧١) وَكِتَابُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ هَذَا قَدْ تَلَقَّاهُ الْعُلَمَاءُ بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَشْهَرُ وَأَظْهَرُ مِنَ الْإِسْنَادِ الْوَاحِدِ الْمُتَّصِلِ.

(٤) قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في " المحلى " (١/ ٩٤) مَسْأَلَةٌ: وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَالسُّجُودُ فِيهِ وَمَسُّ الْمُصْحَفِ وَذِكْرُ اللهِ تَعَالَى جَائِزٌ، كُلُّ ذَلِكَ بِوُضُوءٍ وَبِغَيْرِ وُضُوءٍ وَلِلْجُنُبِ وَالْحَائِضِ. بُرْهَانُ ذَلِكَ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ وَالسُّجُودَ فِيهِ وَمَسَّ الْمُصْحَفِ وَذِكْرَ اللهِ تَعَالَى أَفْعَالُ خَيْرٍ مَنْدُوبٌ إلَيْهَا

أما مسألة قراءة القرآن، فيجوز للمحدث أن يقرأ وإن لم يكن متوضأً، فقد ثبت في الصحيح **عن ابن عباس** رضي الله عنهما، **قال: " استيقظ رسول الله ﷺ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ، فتوضأ منها فأحسن وضوءه، ثم قام فصلى".**[1]

وعن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، **قَالَ: " كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْتِي الْخَلَاءَ، فَيَقْضِي الْحَاجَةَ، ثُمَّ يَخْرُجُ، فَيَأْكُلُ مَعَنَا الْخُبْزَ، وَاللَّحْمَ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَلَا يَحْجُبُهُ - وَرُبَّمَا قَالَ: لَا يَحْجُزُهُ - عَنِ الْقُرْآنِ شَيْءٌ، إِلَّا الْجَنَابَةُ"**[2]، يعني لا يمنعه مِن قراءة القرآن شيءٌ إلا أن يكون جنبًا، فالجنب لا يقرأ القرآن.

وقد سألتُ الشيخَ ابنَ بازٍ رحمه الله شفاهةً في الحرم المكي عن حكم مَسِّ الحائض للمصحف، فقال لي: "تَمَسُّه بحائلٍ".

وهنا مسألة: إذا كانت المرأة مُعَلِّمَةً مثلاً، وكانت حائضًا، وتحتاج إلى قراءة آياتٍ مِن الكتاب العزيز وهي في المدرسة تعلم الأبناء أو غير ذلك، فماذا تفعل؟

=مَأْجُورٌ فَاعِلُهَا، فَمَنْ ادَّعَى الْمَنْعَ فِيهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ كُلِّفَ أَنْ يَأْتِيَ بِالْبُرْهَانِ، ثم قال: وَأَمَّا مَسُّ الْمُصْحَفِ فَإِنَّ الْآثَارَ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا مَنْ لَمْ يُجِزْ لِلْجُنُبِ مَسَّهُ فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّهَا إِمَّا مُرْسَلَةٌ وَإِمَّا صَحِيفَةٌ لَا تُسْنَدُ وَإِمَّا عَنْ مَجْهُولٍ وَإِمَّا عَنْ ضَعِيفٍ.

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٨٣)، ومسلم في " صحيحه " (٧٦٣).

(٢) **(ضعيف)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٢٢٩)، والترمذي في " سننه " (١٤٦)، والنسائي في " سننه " (٢٦٥)، وابن ماجه في " سننه " (٥٩٤)، وضعفه الألباني في " إرواء الغليل " (٤٨٥).

في مثل هذا الحال قال أهل العلم: أن العذر الذي عندها يطول، ألا وهو مدة الحيض، فيستثنى لها للضرورة مِن ذلك، ولها أن تقرأ، والله أعلم.[١]

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٨٠] يعني هذا القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

فائدة: قوله تعالى "تنزيل" استدل بها أهل العلم في أبواب العقيدة على علوِّ الله جل جلاله، كما يستدلون بنزول بعض الأشياء مِن عنده، وبعروج بعض الأشياء إليه، كقوله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠][٢][فاطر: ١٠].

والآية تفيد أن هذا القرآن الكريم نزل مِن الله، لم تمسَّهُ الشياطينُ، ولم يقع فيه

---

(١) ينظر " مجموع فتاوى ابن باز " (٦/ ٣٦٤) قال وبعض أهل العلم قاسها على الجنب قال: كما أن الجنب لا يقرأ فهي كذلك. لأن عليها حدثا أكبر يوجب الغسل، فهي مثل الجنب.

والجواب عن هذا أن هذا قياس غير صحيح، لأن حالة الحائض والنفساء غير حالة الجنب، الحائض والنفساء مدتهما تطول وربما شق عليهما ذلك وربما نسيتا الكثير من حفظهما للقرآن الكريم، أما الجنب فمدته يسيرة متى فرغ من حاجته اغتسل وقرأ، فلا يجوز قياس الحائض والنفساء عليه، والصواب من قولي العلماء أنه لا حرج على الحائض والنفساء أن تقرأ ما تحفظان من القرآن، ولا حرج أن تقرأ الحائض والنفساء آية الكرسي عند النوم، ولا حرج أن تقرأ ما تيسر من القرآن في جميع الأوقات عن ظهر قلب، هذا هو الصواب، وهذا هو الأصل.

(٢) ينظر " اجتماع الجيوش الإسلامية " لابن القيم. (٢/ ٩٧).

اختلافٌ، بل هو مُحْكَمٌ، أحكمه الله سبحانه.(١)

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨١-٨٢]

قال السادة العلماء: الخطابُ مُحْتَمِلٌ أن يكون للمؤمنين، ويحتمل أن يكون الخطاب للكافرين،

أما على الوجه الأول -إذا كان الخطاب للمؤمنين-، فقوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ المقصود بالمداهنة هنا: أن يلينوا القول للكافرين، ويمالؤوهم حتى يرضوا عنهم(٢)، فالله تعالى يقول للمؤمنين على هذا الوجه أفبهذا القرآن أنتم تُدهنون، وتمالؤون الكفار، والمعنى أن هذا القرآن الكريم الواجب الصدع به، والجهر به، وعدم المداهنة من أجله، بل صاحب القرآن الكريم ينبغي أن يجهر بحجته، لأن حجته قويةٌ، أما الذي يداهن فضعيف الحجة، بل الواجب على صاحب القرآن أن يجهر بالحجة إذا علم أن بعض الناس يتكلمون في القرآن، أو ينتقصون من كلام الرب عز وجل، فيصدع بالحجة، ويجهر بالقرآن الكريم، ويبين زيف وضلال هؤلاء، ولا يداهن فيه، نسأل الله سبحانه الثبات على دينه.

أما الوجه الثاني -على القول بأن الخطاب للكفار-؛ فمعنى ﴿مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ يعني مكذبون، يعني أتكذبون بالقرآن يا أهل الكفر.

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٧/ ٥٤٥).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٢/ ٣٦٧).

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فيها وجهان للعلماء:

قال بعضهم: يعني: وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون، أي: تكذبون بدل الشكر.

وهذا يصلح مع الوجه الذي فيه أن الخطاب للمسلمين، فبعض المسلمين ينسبون الرزق وهو المطر الذي ينزل من السماء إلى الأنواء، يقولون مُطرنا بنوء كذا، كما ثبت في الصحيحين **عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت مِن الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوءِ كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب"**[1]، يعني أن العبد ينسب التأثيرات في الكون لله عز وجل، الذي يقول مطرنا بفضل الله هذا موحد، والذي يقول مطرنا بنوء كذا أو بسبب هبوب رياح كذا لا، أما لو اعتقد أن الله جعل هذه الرياح سببا لا مانع من هذا، ليس فيها شيء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: " ما أنزل الله من السماء مِن بركةٍ إلا أصبح فريقٌ مِن الناس بها كافرين، يُنزل الله الغيث فيقولون: الكوكب كذا وكذا"[2]

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٨٤٦)، ومسلم في " صحيحه " (٧١).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٢)، والنسائي في " المجتبى " (١٥٢٤)، وفي " الكبرى " (١٨٤٨)، وأحمد في " مسنده " (٨٧٣٩).

وفي روايةٍ لهذا الحديث: قال محمد: فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب، فقال: ونحن قد سمعنا من أبي هريرة، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يستسقي فلما استسقى التفت إلى العباس فقال: يا عباس يا عم رسول الله ﷺ، كم بقي من نوء الثريا؟ فقال: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعا. قال: فما مضت سابعة حتى مطروا. (١)

قال العلماء: في كلام عمر أنه سأل عن الأسباب التي يجريها الله سبحانه، وأن الله أجرى عادته أنه في مثل هذه الأيام ينزل المطر، لكن لا يضيف المرءُ الفعل إلى شيءٍ مخلوقٍ، وإنما يضيفه إلى الله عز وجل سبحانه وبحمده.

قال ابن كثير رحمه الله: "وهذا محمول على السؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر، لا أن ذلك النوء يؤثر بنفسه في نزول المطر؛ فإن هذا هو المنهيُّ عن اعتقاده".أهـ(٢)

ومن أهل العلم من قال: معنى قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ أي: وتجعلون حَظَّكُم مِن كتابِ الله أنكم تكذبون به؛ ولهذا قال قبله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾.

قال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بئس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٧٠)، وذكره ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٥٣)، والثعلبي في "الكشف والبيان" (٩/ ٢٢٣).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٧/ ٥٤٧)

كتاب الله إلا التكذيب.[(١)]

فهنا الكفار يجعلون رزقهم أنهم يكذبون بهذا القرآن ولا يؤمنون به، وأما أهل الإسلام فمنهم من ينسب بعض الأفعال في الكون إلى غير الله كما ذكرنا الحديث، مطرنا بنوء كذا، فيسندوا المطر لغير الله تبارك وتعالى.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

بعد أن ذكر سبحانه جحودَ الكافرين بآياته وتكذيبَهم رسولَه وكتابَه، وقولهم فيه: إنه سِحْرٌ أو افتراءٌ، أردف ذلك توبيخهم على ما يعتقدون، فإنه إذا كان لا بد للفعل مِن فاعلٍ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كلِّه أنتم، لأن الخالق إما الله وإما أنتم، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون، وإذاً فلماذا لا تُرجعون الروح لميِّتكم وهو يعالج سكرات الموت، فإن كنتم صادقين فارجعوها، والحق أنكم لا تعقلون الدليل

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٧٢)، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (١٤/ ٢٢٨) لعبد بن حميد.

والبرهان، بل لا تفهمون إلا المحسوسات، فلمّا لم تروا الفاعل كذبتم به، وهذا من شيمة الجهال، إذ للعلم وسائل عديدة، فليس عدم رؤية الشيء دليلاً على عدم وجوده.

ثم بين سبحانه حال المتوفى، ومِن أيِّ الأزواج الثلاثة هو، هل هو من السابقين، أو من أصحاب اليمين، أو من أصحاب الشمال.

ثم بين لرسوله ﷺ أن الخبر الذي أخبر به هو الحق اليقين، وعليه أن ينزّه ربه العظيم عن كل ما لا يليق به.[1]

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ۝٨٣﴾ أي فهلَّا إذا بلغت النفسُ أو الروحُ الحلقومَ.[2] والحلقوم يعني الحلق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ۝٨٤﴾ أي أنتم يا مَن حول الميت تنظرون إليه.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ۝٨٥﴾ نحن أقرب إلى الميت منكم، يعني أقرب إليه بعلمنا وملائكتنا، كما في الحديث العظيم الذي رواه الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ **عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﵁ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلَحَّدْ** أي لم يدفن بعد **فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا**

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٧/ ١٥٣).

(٢) ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٢٩).

كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ - وطِيبٌ مخصوصٌ مِن عند ربِّ العالمين لِيُطَيَّبَ به بعد الموت لأنه كان طيباً في الدنيا روحاً ونفساً وقولاً وفعلاً، وصدق الله حيث قال ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٣٢] - **حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ**- أي تخرج برفق ولين، كخروج قطرة من الزجاجة أو مِن القربة العظيمة الكبيرة - **قَالَ: فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ...**".(١)

وعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»، فضج ناس من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»، ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه».(٢)

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده" (١٨٥٣٤)، والحاكم في "المستدرك" (١٠٨)، من حديث البراء، به. وصححه الألباني في"مشكاة المصابيح" (١٦٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه " (٩٢٠)، وأبو داود في " سننه " (٣١١٨)، والنسائي في " الكبرى "

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴿٨٦﴾﴾ يعني فهلا يا من تنكرون البعث وتقولون لا بعث لو كنتم غير مدينين، يعني غير مجزيين، وغير محاسبين.[١]

قوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴿٨٧﴾﴾ أي أرجعوا الروح التي تخرج منكم الآن إن كنتم صادقين في هذا، كما صح عن ابن زيد، في قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ قال: «لتلك النفس» ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴿٨٧﴾﴾.[٢]

ثم ذكر حال الناس عند الموت على ثلاثة أقسام، كما قسَّم الناس في أول السورة إلى ثلاثة أقسام، وهذا في العمل، المقربون وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وهنا عند الموت أيضـًا قسَّم الناس إلى ثلاثة أقسام:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴿٨٨﴾﴾ أي المسارعين في الخيرات، وهم لها سابقون، يسارع أحدهم في الفرائض، وفي النوافل، ويترك الحرامَ كلَّه، ويترك المكروهات كذلك.[٣]

قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴿٨٩﴾﴾ فرَوْحٌ يعني راحةٌ، ورزقٌ حسنٌ،

= (٨٢٢٧)، وأحمد في " مسنده " (٢٦٥٤٣).

(١) ذكره الطبري في "جامع البيان " (٢٢/ ٣٧٣).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٧٦)، وصححه الشيخ مصطفى العدوي في "التسهيل لتأويل التنزيل" ـ تفسير جزء الذاريات ـ ص (٥١٠).

(٣) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤٨).

وكرامةٌ مِن الله، وسعةٌ، واستراحةٌ مِن هموم الدنيا[١]، كما في الصحيحين **عن أبي قتادة بن ربعي، أنه كان يحدث، أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ، فقال: «مستريحٌ ومستراحٌ منه»، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا، والعبد الفاجر يستريح منه العباد، والبلاد، والشجر، والدواب»**.[٢]

وكذلك له ريحانٌ أيضـًا، فالملائكة تأتي له بريحانٍ، يعني تُطَيِّبه به عند خروج روحه، فتخرج منها كأطيب نفحةِ مسكٍ وُجِدَتْ على وجه الأرض، ويفوح منه الطيب بفضل الله تبارك وتعالى كما في حديث البراء الذي ذكرناه.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ جنةٌ ليس فيها إلا النعيم، نعيمٌ للبدن وللروح وللعين وللأذن، كلُّ ذرةٍ في بدنك تتنعم بهذا النعيم المقيم بفضل الله رب العالمين.

وفي هذا الباب حديثٌ هو بشرى عظيمةٌ للمؤمنين أجمعين، **عن أم هانئ، أنها سألت رسول الله ﷺ أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضـًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «تكون النسم طيراً تعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كلُّ نفسٍ في جسدها»**.[٣]

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤٩) وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقربا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن.

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٥١٢)، ومسلم في " صحيحه " (٩٥٠).

(٣) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٧٣٨٧)، والطبراني في " المعجم الكبير " (١٠٧٢)، وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (٢/ ٧٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٦٧٩).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: هذا الحديث فيه بشارةٌ لكلِّ مؤمنٍ، ومعنى "يعلق": يأكل، ويشهد له بالصحة أيضـًا: ما رواه الإمام أحمد، عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، عن الإمام مالك بن أنس، عن الزهري، **عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»**(١). وهذا إسنادٌ عظيمٌ، ومتنٌ قويمٌ.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: **"إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش"**(٢)...الحديث.أهـ

وفي الصحيحين **عن أنس بن مالك، عن عبادة بن الصامت** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا**، أن نبي الله ﷺ، قال: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه»**(٣)

وعن عطاء بن السائب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى، رأيت شيخـًا أبيض الرأس واللحية على حمارٍ، وهو يتبع جنازة، فسمعته يقول:

---

(١) **(صحيح)** أخرجه مالك في "الموطأ" (٤٩) (١/ ٢٤٠)، والنسائي في "المجتبى" (٢٠٧٣)، وفي "الكبرى" (٢٢١١)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٧١)، وأحمد في "مسنده" (١٥٧٧٧)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة " (٩٩٥)

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٨٧)، والترمذي في " سننه " (٣٠١١)، وابن ماجه في " سننه " (٢٨٠١).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٥٠٧)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٨٣).

حدثني فلان بن فلان سمع رسول الله ﷺ، يقول: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: فأكب القوم يبكون، فقال: «ما يبكيكم؟» فقالوا: إنا نكره الموت، قال: " ليس ذلك، ولكنه إذا حضر: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله، والله للقائه أحب ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ ".[١]

يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾

أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلامٌ لك، أي: لا بأس عليك، أنتَ إلى سلامة، أنتَ مِن أصحاب اليمين.[٢]

وسلامٌ لك مِن ربِّ العالمين، وتأتيك الملائكةُ تقول لك: إخوانُك في الجنة أهلُ اليمين يسلمون عليك، هذا عند قبض الروح، قال الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: اذا جاء مَلَكُ الموتِ ليقبض روح المؤمن، قال: ربُّك يقرئك السلام.[٣]

---

(١) (حسن) أخرجه أحمد في " مسنده " (١٨٢٨٣)، وابن الجعد في " مسنده " (٣١١٠)، وحسنه محققو مسند أحمد.

(٢) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٥٠).

(٣) عزاه السيوطي في "الدر المنثور" (١٢/ ٧٦) إلى المروزي في الجنائز، وَابن أبي الدنيا الشيخ

وعن الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت".[(١)]

وكذلك عند مسائلته في القبر، تأتيه الملائكة تسلم عليه بالبشرى، وعند بعثه أيضـًا تسلم عليه ملائكة الله، كما قال ربنا تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].[(٢)]

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾: أَيْ مُسَلَّمٌ لَكَ.[(٣)]، أي جئنا لك بالسلام من عند إخوانك وأحبابك في الجنة، لك أحبابٌ سبقوك إلى الجنة تتمنى أن تراهم، وبينما أنت عند الموت وأنت خائفٌ، تأتيك الملائكة وتقول لك: نحن جئنا لك بالسلام، من عند إخوانك الكرام الذين سبقوك إلى الجنة، وهم في أشد الشوق لرؤياك، نسأل الله من فضله يا رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾

---

(١) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٥/ ٤٦٧)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٧/ ٢٣٣)، وابن عادل الحنبلي في "اللباب" (١٨/ ٤٤٨).

(٢) قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " النكت والعيون " (٥/ ٤٦٧) فعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقاويل: أحدها: عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت قاله الضحاك. الثاني: عند مساءلته في القبر يسلم عليه منكر ونكير. الثالث: عند بعثه في القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إليها.

(٣) " صحيح البخاري " (٦/ ١٤٦).

أي: وأما إن كان المحتضِرُ مِن المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، ﴿**فَنُزُلٌ**﴾ أي: فضيافةٌ ﴿**مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾**﴾ وهو المُذابُ الذي يُصهرُ به ما في بطونهم والجلود، ﴿**وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾**﴾ أي: وتقريرٌ له في النار التي تغمره من جميع جهاته. (١)

قوله تعالى ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾**﴾ فالقرآن حَقٌّ وصدقٌ، ليس فيه شكٌّ.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا الذي أخبرتُكم به أيها الناس مِن الخبر عن المقربين وأصحاب اليمين، وعن المكذبين الضالين، وما إليه صائرةٌ أمورُهم ﴿**لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾**﴾ يقول: لهو الحقُّ مِن الخبر اليقين لا شك فيه. (٢)

قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾**﴾ وفي ختام هذه السورة يأمر الله تعالى بتسبيحه، أي نَزِّهْ ربَّك العظيمَ عن كلِّ النقائص والعيوب، فسبحان ربنا العظيم جل جلاله.

وصح عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية، قال: **"اجعلوها في ركوعكم"**، والحديث في سنن أبي داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ. (٣)

فضل التسبيح:

هذا فيه فضيلةُ أن يقول المرءُ: سبحان الله العظيم، أو سبحان الله العظيم وبحمده، أو سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، **فعَنْ جَابِرٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ**، عَنْ النَّبِيِّ** ﷺ

---

(١) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٥١)

(٢) ينظر " جامع البيان " (٢٢/ ٣٨٢)

(٣) تقدم تخرجه.

قَالَ: " مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ".[١]

والنخلة في الجنة ساقُها مِن ذهبٍ، فأشجار الجنة ليست كأشجار الدنيا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: " كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"[٢].

خاتمة: ذِكرُ أحاديث الاحتضار.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾**﴾: " وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿**يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ**﴾، ولو كتبت هاهنا لكان حسنـًا! ". أهـ[٣]

فنحن إن شاء الله تعالى نذكر بعض هذه الأحاديث الجليلة العظيمة:

في صحيح الإمام **عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها»** - قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - **قال: " ويقول أهل السماء: روحٌ طيبةٌ جاءت مِن قِبَلِ الأرض، صلى الله عليكِ وعلى جسدٍ كنتِ تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عز وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل "، قال: "**

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٤٦٥)، والنسائي في " الكبرى " (١٠٥٩٤)، وابن حبان في " صحيحه " (٨٢٦)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٦٤).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٠٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٩٤).

(٣) ينظر " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥٤٩).

وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد وذكر من نتنها، وذكر لعناً - ويقول أهل السماء: روحٌ خبيثةٌ جاءت مِن قِبَلِ الأرض، قال فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل "، قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه، على أنفه، هكذا".[١] يعني ريح الكافر والمنافق ريح خبيثة منتنة، أما ريح المؤمن رائحة من أطيب ما يكون، بل هي أطيب مسك، كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض بفضل الله تعالى.

وروى ابن حبان في صحيحه **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا قُبِضَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَتَقُولُ: اخْرُجِي إِلَى رَوْحِ اللهِ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكٍ حَتَّى إِنَّهُمْ لِيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَشُمُّونَهُ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنَ الْأَرْضِ؟ وَلَا يَأْتُونَ سَمَاءً إِلَّا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: قَدْ مَاتَ، أَمَا أَمَاتَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَأْتِيهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمُسْحٍ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي إِلَى غَضِبِ اللهِ، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ فَتَذْهَبُ بِهِ إِلَى بَابِ الْأَرْضِ".**[٢]

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٧٢)، والبيهقي في " إثبات عذاب القبر " (٣٣).

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن حبان في " صحيحه " (٣٠١٤)، والنسائي في " المجتبى " (١٨٣٣)، وفي " الكبرى " (١٩٧٢)، والحاكم في " المستدرك " (١٣٠٢)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٣٠٩).

وقوله: " **فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا** " يدلك أن الإنسان المؤمن يعيش في الدنيا في غمٍّ، فالدنيا بالنسبة له سجنٌ، وذلك في مقابل ما ينتظره في الآخرة، وقد جاء عن الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عالم مصر في زمانه وبعد زمانه، وكان يمشي في أُبَّهَةٍ عظيمةٍ، يركب الفرس، وفي أبهى ثيابٍ وأبهى حُلَّةٍ، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأئمة الكبار، وإذا به يمشي معه موكبٌ، فأوقفه يهوديٌّ، وكان يعمل زَبَّالاً، وكانت ثيابه رَثَّةً جداً، فأوقفه، وقال: يا إمام؛ عندكم في دينكم نبيُّكم يقول: "**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والمنافق**"[(١)]، فأيُّ سجنٍ أنت فيه، وأيُّ جنةٍ أنا فيها، قالوا: فأجابه على البَديهة، فقال: اعلم أنني إذا مِتُّ على التوحيد وعلى الإيمان بالنسبة لما أعده الله لي في الجنة فما أنا فيه الآن هو سجن، وأما أنت لو متَّ على الكفر الذي أنت فيه فما أنت فيه بالنسبة لما أعد الله لك من عذابٍ فأنت في جنةٍ الآن.[(٢)]

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وقد روي أيضـًا من طريق همام بن يحيى، عن قتادة، عن أبي الجوزاء، **عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ بنحوه. قال: "فيسأل: ما**

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٥٦)، والترمذي في "سننه" (٢٣٢٤)، وابن ماجه في "سننه" (٤١١٣)، وأحمد في "مسنده" (٨٢٨٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ».

(٢) ينظر " فيض القدير" للمناوي (٣/ ٥٤٦)، و" منتهى السؤل على وسائل الوصول لسيرة الرسول " للحجي (٣/ ٤١٧)، و " كشف الخفاء " للعجلوني (١/ ٤٧٠) " التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ " للصنعاني (٦/ ١٣٨).

فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ " قال: "وأما الكافر فإذا قبضت نفسه، وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه، فيبلغ بها الأرض السفلى".(١)

وهنا حديثٌ عظيمٌ، حسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ إِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا، كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ، فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَتَقُولُ فَعَلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ فَيَجْلِسُ، وَقَدْ مُثِّلَتْ لَهُ الشَّمْسُ وَقَدْ أُدْنِيَتْ لِلْغُرُوبِ،**

---

(١) " تفسير القرآن العظيم " (٤/ ٤٩٩) والحديث أخرجه ابن حبان في " صحيحه " (٣٠١٣)، والنسائي في " الكبرى " (١١٩٢٤)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٤/ ١٨٧) **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ حَضَرَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، فَإِذَا قُبِضَتْ نَفْسُهُ جُعِلَتْ فِي حَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيُنْطَلَقُ بِهَا إِلَى بَابِ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا وَجَدْنَا رِيحًا أَطْيَبَ مِنْ هَذِهِ، فَيُقَالَ: دَعُوهُ يَسْتَرِيحُ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمٍّ، فَيُسْأَلُ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلَتْ فُلَانَةُ؟.**

وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِذَا قُبِضَتْ نَفْسُهُ وَذُهِبَ بِهَا إِلَى بَابِ الْأَرْضِ يَقُولُ خَزَنَةُ الْأَرْضِ: مَا وَجَدْنَا رِيحًا أَنْتَنَ مِنْ هَذِهِ، فَتَبْلُغُ بِهَا إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى»

فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَا تَقُولُ فِيهِ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ، أَخْبَرَنِي عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ، أَرَأَيْتَكَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَا تَقُولُ فِيهِ، وَمَاذَا تَشْهَدُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِيتَ وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ مِنْهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ فِيهَا، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ مِنْهَا وَمَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ فِيهَا لَوْ عَصَيْتَهُ، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُعَادُ الْجَسَدُ لِمَا بَدَأَ مِنْهُ، فَتَجْعَلُ نَسْمَتُهُ فِي النَّسَمِ الطَّيِّبِ وَهِيَ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ».(١)

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: " إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا في جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ويقال له: من رسولك؟ فيقول محمد، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره".(٢)

---

(١) **(حسن)** أخرجه ابن حبان في " صحيحه " (٣١١٣)، والطبراني في " الأوسط " (٢٦٣٠)، وحسنه الألباني في" صحيح الترغيب والترهيب " (٣٥٦١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٢٢٦٧)، والطبري في " جامع البيان " (١٣/ ٦٦٤)،

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: " أما الكافر فتنزل الملائكة إذا حضره الموت، فيبسطون أيديهم، والبسط: هو الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت، فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئًا، وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل له: من الرسولُ الذي بُعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليه شيئًا، يقول ﴿**وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينْ**﴾.(١)

وقد سبق معنا جزءٌ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وهو حديثٌ جليلٌ جداً، وسنورد الحديث بطوله.

رواه الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ **عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلَحَّدْ أي لم يدفن بعد فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ - وطِيبٌ مخصوصٌ مِن عند ربِّ العالمين ليُطَيَّبَ به بعد الموت لأنه كان طيبًا في الدنيا روحًا ونفسًا وقولاً وفعلاً، وصدق الله حيث قال ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] - حَتَّى**

=والبيهقي في "إثبات عذاب القبر" (٢٣٣).

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (١٣/ ٦٦٧)، والبيهقي في "إثبات عذاب القبر" (٢٣٣).

يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ ـ أي تخرج برفق ولين، كخروج قطرة من الزجاجة أو من القربة العظيمة الكبيرة ـ قَالَ: فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَيَقُولُونَ فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فِي مَكَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، يَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ، فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ الْبَصَرِ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ لَهُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ

سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ ـ أكفان من النار ـ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَغَضَبٍ، قَالَ : فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ ـ أي تهرب الروح في الجسد فلا تريد أن تخرج ـ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ـ وهو الحديدة التي يشوى بها اللحم، فيبقى معها بقية من المحروق فيستصحب عند الجذب شيئًا من ذلك الصوف مع قوة وشدة ـ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا وَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فَيُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هاه هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ هَذَا يَوْمُكَ

الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ" .

وفي روايةٍ عند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -أيضـًا-، قال : " **حتى إذا خرج روحه، صلى عليه كلُّ مَلَكٍ بين السماء والأرض، وكلُّ مَلَكٍ في السماء، وفُتِحَتْ له أبواب السماء، ليس من أهل بابٍ إلا وهم يدعون الله: أن يعرج بروحه مِن قبلهم، فإذا عرج بروحه قالوا: ربِّ عبدك فلان، فيقول: أرجعوه، فإني عهدت إليهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى** " .

وفي آخره حين ذكر الكافر، قال: " **ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة، لو ضرب بها جبل كان ترابـًا، فيضربه ضربةً حتى يصير ترابـًا، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربةً أخرى، فيصيح صيحةً يسمعه كلُّ شيءٍ إلا الثقلين** ". قال البراء بن عازب: «**ثم يُفتح له بابٌ مِن النار، ويُمَهَّدُ من فُرُشِ النار**».(١)

وقال سفيان الثوري، عن أبيه ، عن خيثمة ، عن البراء بن عازب، قال: " **﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ﴾** قال: نزلت في عذاب القبر.(٢)

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٨٦١٤)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣/ ٤٠١).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٣٦٩)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٧١)، واللفظ له.

فيا أيها الأحبة الكرام، هذا أمامنا ولا بدَّ منه، والسعيدُ الذي يعمل لهذه الساعة، ساعة خروج الروح، فنسأل الله جل جلاله أن يجعلنا وإياكم من عباده المقربين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم تفسير سورة الواقعة، بعون الله وتوفيقه.

****

﴿سُورَةُ الحَدِيدِ﴾

سورة الحديد سورةٌ مدنيةٌ بالإجماع، وآيها تسعٌ وعشرون آيةً، نزلت بعد الزلزلة.(١)

هذه السورة هي أول السور التي بدأها ربنا تعالى بالتسبيح من الأواخر من بعد الإسراء ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] وهذه السور العظيمات اسمهن المسبحات كما قال أهل العلم، لأنهن يبدأن بالتسبيح.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: " **عَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ الْمُسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ، وَقَالَ: «إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ»**"(٢) يعني بالمسبحات الحديد و الحشر و الصف و الجمعة و التغابن. " (٣)

مناسبتها لما قبلها:

١ - إن هذه بدئت بالتسبيح، وتلك ختمت به، فقد جاء في ختام سورة الواقعة

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور " (١٤/ ٢٥٥) أَخْرَج ابن الضريس والنحاس، وَابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة الحديد بالمدينة. وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن الزبير مثله، وينظر القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٢٣٥) ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥/ ٢٥٦) المراغي في " تفسيره " (٢٧/ ١٥٧).

(٢) **(حسن)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٥٠٥٧) والترمذي في " سننه " (٢٩٢١) والنسائي في " السنن الكبرى " (٧٩٧٢) وأحمد في " مسنده " (١٧١٦٠)، وحسنه الألباني في " صحيح سنن الترمذي" (٦/ ٤٢١).

(٣) ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٣٥).

قول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦] وكأن هذه السورة استجابة لختام السورة السابقة

٢ – إن أول هذه واقعٌ موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح؛ فكأنه قيل: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]، لأنه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]. (١)

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهذه اللفظة المباركة سبح لله تدلُّ على أن الكون كله يسبح لله جلَّ جلاله، فالله تعالى يُسبِّح له الحيوانات

(١) ذكره المراغي في "تفسيره" (٢٧/ ١٥٧).

والجمادات والطيور، والملائكة، والإنس والجن، المسلمون، والكافرون رغماً عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥] فالكافر ظله يسجد لربه جلَّ جلاله رغماً عنه، وكذلك أمر الله نافذٌ في الكافر رغماً عنه، فالكل خاضعٌ لأمره جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه، فالكون كله بما فيه يُمجِّد الله، ويعظمه وينزهه عن النقائص والعيوب، سبَّح أي نزَّه الله جلَّ جلاله عن كل نقصٍ وعيبٍ، السماء وما فيها من ملائكةٍ وغيرها، والأرض وما فيها؛ من الجبال والشجر والدواب والإنسان والحيوان والجن والملائكة والطير،

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال أكثر المفسرين: التسبيح هنا هو التنزيه المعروف في قولهم: سبحان الله، وهذا عندهم إخبارٌ بصيغة الماضي مضمنه الدوام؛ أن التسبيح مما ذكر دائمٌ مستمرٌ"(١)، فالكون كله يسبح بحمد الله تعالى ، سبحانه وبحمده، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]وقال جلَّ جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور: ٤١]وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) ذكره ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥/ ٢٥٦).

﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾ [الحج: ١٨].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: " كُلَّ مَا دُونَهُ مِنْ خَلْقِهِ يُسَبِّحُهُ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِقْرَارًا بِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِذْعَانًا لِطَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ جلَّ ثَنَاؤُهُ: **﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾** [الإسراء: ٤٤] "(١)

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ» "(٢) فالحجر كان يسلم عليه بالنبوة ﷺ، وذكرنا قصة جذع النخلة قبل ذلك كثيراً؛ وحديثه عند البخاري في صحيحه، **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ لِي غُلاَمًا نَجَّارًا قَالَ: «إِنْ شِئْتِ»، قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ المِنْبَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا، حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ، قَالَ: «بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ»**(٣)، سبحان الله العظيم،

---

(١) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٢٧٧)، والترمذي في " سننه " (٣٦٢٤)، وأحمد في " مسنده " (٢٠٨٢٨)، والدارمي في " سننه " (٢٠)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٤٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٠٩٥)، والنسائي في " المجتبى " (١٣٩٦)، وفي " السنن الكبرى " (١٧٢٢)، وابن ماجه في " سننه " (١٤١٧).

الكون كله يمجد الله جلَّ جلاله، المؤمنون والمسلمون يمجدونه وينزهونه عن النقائص والعيوب، والكافرون -أيضـًا- أمرُهُ جلَّ جلاله نافذٌ فيهم رغمـًا عنهم، سبحانه عزَّ وجلَّ.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي أن الله تعالى هو المستحق جلَّ جلاله لكل تنزيهٍ ولكل تمجيدٍ، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالب أبداً، لا يهزم جنده، هو العزيز يغلب كل القوى حتى يطمئن العبد أنه يعبد ربـًا قويـًا، يعبد ربـًا عزيزاً جلَّ جلاله، فهو العزيز الذي لا يُغالب؛ يغلب كل القوى عزَّ وجلَّ وتبارك وتعالى، ﴿ٱلْحَكِيمُ ①﴾ حكيمٌ جلَّ جلاله في كل أمره، وفي كل فعله، والحكمة وضع الشئ في موضعه بالتمام، أي في موضعه اللائق به، فربنا جلَّ جلاله عزيزٌ حكيمٌ، وهذين الاسمين الكريمين كثيراً ما يقرن مولانا بينهما، عزيزٌ؛ عزَّ جلَّ جلاله وتعالى عن عباده، وكذلك يغلب ويهزم كل القوى، وكذلك لا يُغلب أبداً، و هو مع هذه العزة حكيمٌ، لأننا قد نجد عزيزاً من أهل الدنيا شريفـًا لكن ليس عنده حكمةٌ، وقد نجد حكيمـًا لكن ليس عنده عزةٌ، قد نجد عاقلاً فطنـًا لبيبـًا عنده حكمةٌ، وعنده رأيٌ سديدٌ، وموفقٌ؛ لكن ليس عنده عزةٌ، لكن رب العزة جلَّ جلاله رب العرش العظيم، عزيزٌ حكيمٌ، عزَّ وجلَّ.

قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾" فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيرًا، فيكون كلٌّ منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم.

والجمع بينهما دالٌ على كمال آخر، وهو أن عزته تعالى مقرونةٌ بالحكمة، فعزته

لا تقتضي ظلمـاً وجورًا وسوء فعلٍ، كما قد يكون من أعزَّاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسيء التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل، بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذلُّ."[1]

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ السماوات والأرض ومن فيهن، ملكٌ له عزَّ وجلَّ، هذه الأقطار والأرجاء على اتساعها، وعلى كثرة ما فيها من نعمٍ، هي ملكٌ له عزَّ وجلَّ، يؤتي الملك من يشاء، ويمنع الملك عمن يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، يجعل هذا غنيـاً، ويجعل هذا فقيراً، يجعل هذا صحيحـاً، ويجعل هذا مريضـاً، جلَّ جلاله، يفعل ما يشاء في ملكه، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فلو أنَّا أيقنَّا بذلك لارتاح العباد، ولكن عندما نرى الفتن تموج بالأمة من حواليها نعلم أن الناس لا يثقون في أن الملك لله تعالى، وإنما يتقاتلون ويتحاربون، على عُجاجةٍ يسيرةٍ، وعلى لُعاعةٍ يسيرةٍ جداً، من ملك الله تبارك وتعالى.

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ له وحده، ليس هناك شريكٌ في ملك الله، الملك كله لله تعالى، يؤتيه من يشاء ويمنعه عمن يشاء، والله تعالى جعل العباد مستخلفين في هذا الملك؛ لينظر كيف تعملون، كما ورد **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ،**

(١) ذكره الشيخ العثيمين في " القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى " ص ٨

فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»(١)

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ لذلك العبد عندما يقول في أذكار الصباح والمساء كل يومٍ، في الصباح "أصبحنا وأصبح المُلْك لله، والحمد لله"،(٢) وكأن العبد يُلقَّن الحمد على أن الله جعل المُلْك له وحده، ولو أن المُلْكَ بيد المخلوقين لحجبوا عنَّا الهواء، ولأذلُّوا العباد، ولكن الحمد لله أن المُلْك لله رب العالمين، والأسباب التي يكثر حاجة العباد لها جعلها الله جلَّ جلاله أيسر ما يكون؛ مثل الهواء، والماء، وسائر هذه الأشياء العظيمة التي هي ملكٌ لله تعالى، والناس شركاء فيها كلهم، مسلمهم وكافرهم.

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ لأن أمره نافذٌ، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، يحيي النطف وقد كانت أمواتاً، ويميت الأحياء بعد انتهاء الآجال

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٧٤٢)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٩٢٢٤)، وابن ماجه في "سننه" (٤٠٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧٢٣)، وأبو داود في " سننه " (٥٠٧١)، والترمذي في " سننه " (٣٣٩٠)، و" السنن الكبرى " (٩٧٦٧)، وابن حبان في " صحيحه " (٩٦٣)، **عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ، قَالَ: كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، إِذَا أَمْسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» قَالَ: أُرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ: «لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ» وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ»**

التي شاءها لهم عزَّ وجلَّ ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢﴾ هل الله قادرٌ أن ينصر الأمة مما هي فيه؛ من هذه الفتن؟، نعم هو قديرٌ جلَّ جلاله ليس قادراً فقط، بل قديرٌ على الدوام عزَّ وجلَّ، قديرٌ أن يشفي المريض وإن يئس من الأطباء، قديرٌ أن يُغني الفقير وإن تراكمت عليه الهموم والديون وغلبة الرجال، قديرٌ أن ينصر الأمة من بعد شتاتها وضعفها وهوانها على الناس، قديرٌ جلَّ جلاله على كل شيءٍ، لذلك جاء **عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، وَ لَا يَقُلْ: اللهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّ اللهَ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ "**[1]، يعني اسأله واطمع في كرمه جداً بلا حدٍ، فقل: يا رب ارزقني بلا حسابٍ؛ ما في إشكال فيها، واعزم المسألة لأنك تسأل ربـاً قديراً لا يُعجزه شيءٌ، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢] كم من إنسانٍ فقيرٍ رأيناه، والأسباب المحيطة به كانت تقول لا يمكن أبداً أن يُكفَى، ثم صار من أغنياء العالم، وكم من إنسانٍ غنيٍ كان يشار إليه بالبنان، أصبح لا يمتلك ولا يجد شيئـاً، وكم من إنسانٍ كان لا يُظن أبداً أن يكون أميراً على اثنين، لعدم أهليته لذلك، ثم صار ذلك ممكنـاً، وصار وزيراً أو رئيسـاً أو أميراً أو ملكـاً، سبحانه له الملك؛ المُلْكُ جميعـاً مُلْكُه جلَّ جلاله.

فلذلك ربنا تعالى قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢﴾ عزَّ وجلَّ، فإذا علم العبد ذلك امتلأ قلبه ثقةً بأن الله العزيز الحكيم على كل شيء قديرٌ عزَّ وجلَّ.

كذلك ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ ما

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣٣٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٧٨).

أجمل هذه الكلمات العظيمات!، وما أجمل هذه الأسماء الجليلة لربنا جلَّ جلاله!، وهناك قاعدةٌ مهمةٌ لفهم أسماء الله الحسنى، فقد مرَّ معنا في هذه السورة؛ العزيز اسمٌ لله، الحكيم اسمٌ لله، كذلك الأول والآخر والظاهر والباطن، في ثلاث آياتٍ ست أسماءٍ لله تعالى، فالقاعدة تنص على أن" كل اسمٍ لله يتضمن صفةً له عزَّ وجلَّ"، فالعزيز يتضمن صفة العزة، والحكيم يتضمن أيضـًا صفة الحكمة والحكم، وكذلك الأول والآخر والظاهر والباطن، وأجمل وأجمع ما فسرت به في هذه الأسماء الأربعة- الأول والآخر والظاهر والباطن- هو ما ثبت في صحيح الإمام مسلم ورواه الإمام أحمد، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ فِرَاشَهُ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ أَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ، وَاقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ»**[١]

وجاء عند أبي داود في سننه ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، زَادَ وَهْبٌ فِي حَدِيثِهِ «اقْضِ عَنِّي**

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧١٣)، والترمذي في " سننه " (٣٤٠٠)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٧٦٢١)، وابن ماجه في " سننه " (٣٨٧٣)، وأحمد في " مسنده " (٨٩٦٠).

الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ».[١]

هذا الحديث جمع الأسماء الأربعة، هو الأول الذي لا شيء قبله، وهو الآخر الذي لا شيء بعده، عزَّ وجلَّ كما في الحديث **عَنِ ابْنِ حُصَيْنٍ** رضي الله عنهما، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»**[٢]

وقفةٌ: بعض الناس مثقفون، وعندهم إدراكٌ، وعندهم فهمٌ، وعندهم علمٌ، وعندهم شهاداتٌ عليا، وإذا بأحدهم يسأل، من خلق السماء؟ فتقول: الله، فيسأل من خلق الأرض؟ فتقول: الله، من خلق البحار؟ من خلق الإنسان، من خلق الجماد؟ فتجيبه في الجميع: الله، ثم يأتي فيقول: من خلق الله؟ -حاشا لله-، ربما لا تظن أن هذا الكلام غير موجودٍ، بل موجودٌ، ورسول الله ﷺ أخبر بذلك، **فعن أبي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ"**[٣].

وهذه الآية الجليلة، يُذكر فيها حديثاً ضعيفاً- ذكرناه في أول السورة في الكلام

---

(١) أخرجه أبو داود في "سننه" (٥٠٥١)، والبخاري في "الأدب المفرد" (١٢١٢)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٤٢٤ -١٥٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٤١٨)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١١١٧٦)، وأحمد في " مسنده " (١٩٨٧٦) وابن حبان في " صحيحه " (٦١٤٠).

(٣) **(متفق عليه)؛** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٧٦)، ومسلم في " صحيحه " (١٣٤).

عن المسبحات- "أن في سورة الحديد آيةً هي بألف آيةٍ"[١]، ويذكرون هذه الآية ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهَا أَفْضَلُ من ألف آية."[٢]

فهذه الآية الجليلة جمعت أربعة أسماءٍ من أسماء ربنا عزَّ وجلَّ، كذلك أربع صفاتٍ لله تعالى،

اسم الله (الأول): يعني كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، كان الله قبل الكون كله، قبل السماء، وقبل الأرض، وقبل خلق الجبال، والشجر، والدواب وغيرها،

اسم الله (الآخر): هو الآخر بعد كل الخلائق، سبحانه جلَّ جلاله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]

اسم الله (الظاهر): فوق كل شيءٍ، ومعنى اسم الله تعالى الظاهر يعني العالي، فقد فُسرت بالعلوّ، أنه عالٍ على خلقه كلهم، قال الطبري: "وَهُوَ الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُ، وَهُوَ الْعَالِي فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ" [٣]، وكذلك الظاهر على أحوال عباده من كل صغيرٍ وكبيرٍ، لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم ولا أقوالهم ولا أفعالهم.

اسم الله (الباطن): أي مهما أسرَّ العباد أحاط الله به جلَّ جلاله، وتباركت أسماؤه، وكذلك الباطن الذي أحاط ببواطن الأمور عزَّ وجلَّ، فهو جلَّ جلاله ﴿ ٱلْأَوَّلُ

---

(١) سبق تخريجه

(٢) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٧/ ٥).

(٣) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٨٥).

﴿وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾

وتفسير النبي ﷺ كما قال أهل العلم: هو أعظم ما يمكن أن يُفسر به؛ وهو أسلم وأجلُّ تفسيرٍ حيث قال ﷺ كما سمعنا، **عَنْ سُهَيْلٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا، إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ» وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ"**[1] عليهم رضوان الله تعالى، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم،

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ أي لا يخفى عليه شيءٌ أبداً من أعمال عباده، ولا من أقوالهم، تبارك وتعالى وعزَّ وجلَّ سبحانه وبحمده.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بعض السادة العلماء قالوا من أيام الآخرة، يعني اليوم بألف عام، قال القرطبي رحمه الله: "قال القشيري. وقال: ومعنى ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي من أيام الآخرة، كل يومٍ ألف سنةٍ، لتفخيم خلق السماوات والأرض" [2]، ولكن الصحيح أنها أيامٌ من أيام الدنيا- والله أعلم- ، وذكر

---

(١) تقدم تخريجه ولفظ مسلم في " صحيحه "

(٢) ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٩/ ٢٣٨).

عددٌ كبيرٌ من أهل العلم، أنها بدأت بيوم الأحد وانتهت بالجمعة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْأَحَدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالثُّلَاثَاءِ وَالْأَرْبِعَاءِ وَالْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ". (١)

وقال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَنَّهُ خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ: سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَالسِّتَّةُ الْأَيَّامُ هِيَ: الْأَحَدُ، وَالِاثْنَيْنُ، وَالثُّلَاثَاءُ، وَالْأَرْبِعَاءُ، وَالْخَمِيسُ، وَالْجُمُعَةُ -وَفِيهِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَاخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ: هَلْ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا كَهَذِهِ الْأَيَّامِ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ إِلَى الْأَذْهَانِ؟ أَوْ كُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِدٌ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَيُرْوَى ذَلِكَ مِنْ رِوَايَةِ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؟ فَأَمَّا يَوْمُ السَّبْتَ فَلَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّابِعُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ السَّبْتُ، وَهُوَ الْقَطْعُ."(٢)

وقد ذكر الله تعالى أن الخلق في ستة أيامٍ في أكثر من موضع من كتابه، في هذا الموضع، وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾**﴾ [ق: ٣٨] وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾

فهذا الكون كلُّه خلقه ربُّنا تعالى في ستة أيامٍ، وذلك فيه فائدةٌ عظيمةٌ، قال أهل العلم ربنا تعالى لو شاء قال للكون كن فكان في طرفة عينٍ، ولكن ربنا خلقه في ستة

---

(١) ذكره الطبري في " جامع البيان " (١٠/ ٢٤٥).

(٢) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٣/ ٤٢٦).

أيامٍ، **وهناك فائدتان عظيمتان ظاهرتان في هذا:**

الفائدة الأولى: أنه يُعلِّم العباد أن الأمور تمشي بتؤدةٍ، رويداً رويداً، فربنا القدير لو شاء لخلق الكون كله في طرفة عينٍ، ولكنه سبحانه عزَّ وجلَّ خلق الخلق في ستة أيامٍ حتى يتعلم العباد أن الأمر ينبغي أن يمشي رويداً رويداً، فيُعلَّم العباد أن يأخذوا بالأسباب.

الفائدة الثانية: قوله جلَّ جلاله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ يدل على أنه حليمٌ لا يُعجِّل العقوبة للعصاة؛ وإنما يحلُم عليهم، قالوا ويدل على ذلك قوله جلَّ جلاله في سورة ق ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ**﴾ ثم قال بعدها: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾ فالعظيم جلَّ جلاله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيامٍ وما مسه نصبٌ ولا تعبٌ، يحلم على أعدائه رغم أنهم يسبونه ويسبون أولياءه ويقتلونهم ، ولا يُعجِّل لهم العقوبة، لعلهم يفيئوا ويرجعوا إليه سبحانه عزَّ وجلَّ، فإن لم يرجعوا أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظةٍ لفعل، إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون. ولكنه أراد أن يُعلِّم العباد الرفق والتثبت في الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئًا بعد شيءٍ. وهذا عند من يقول: خلق الملائكة قبل خلق السماوات والأرض.

وحكمةٌ أخرى- خلقها في ستة أيامٍ لأن لكل شيءٍ عنده أجلاً. وبيَّن بهذا ترك

معاجلة العصاة بالعقاب، لأن لكل شيءٍ عنده أجلاً. وهذا كقول: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾ بعد أن قال: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا**﴾[1]

﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾

وهذه آيةٌ عظيمةٌ فيها عقيدةٌ مهمةٌ، ولذلك يجب علينا أن نتعلم عقيدة أهل السنة والجماعة.

صفة الاستواء:

من هذه الآية الجليلة، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه الآية وأشباهها من آيات الصفات، أن نجري نصوص الصفات كما جاءت في القرآن الكريم، وكما جاءت في السنة النبوية، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

فلا نُعطل الصفة؛ فنقول ليست صفة الاستواء لله عزَّ وجلَّ، ولا نكيف فنقول استواء الله كاستواء المخلوق، ولا نُمَثِّل فنطابقها على صورةٍ معينةٍ للمخلوق، ولا نؤول كما فعل أهل البدع، فقالوا:: استوى يعني استولى، إذا كانت بمعنى استولى، فمن استولى على الملك قبل الله، وغلبه الله بعد ذلك وأخذ الملك منه؟!، هذا كفرٌ بالله، فمن اعتقد ذلك عن علمٍ؛ فيعلم معنى ذلك ولازمَه، ثم أقرَّ بهذا المعنى الذي ذكرتُ، فلا شك أن هذا كفْر، أما من ذهب إلى ذلك مؤولاً، وذهب على مجرى اللغة

---

(١) ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٩/ ٢٣٨).

العربية مجتهداً وأخطأ فطبعـًا ليس بكافرٍ، فلا يكفر بمثل هذا.

فأهل البدع يقولون: استوى معناها استولى، ويستدلون على ذلك ببيت شعرٍ يقول:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيفٍ أو دمٍ مهراق

ويقولون: هذا البيت عربيٌ، ولكن الصحيح أن هذا البيت يُنسب إلى الأخطل النصراني، كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أهل العلم، وأنه ليس من لغة العرب.

وأهل السنة والجماعة مجمعون على أن تفسير استوى بمعنى علا وارتفع، فاستوى على العرش أي علا عليه سبحانه جلَّ جلاله، ولكنهم يفوضون الكيف فيقولون استوى استواءً يليق بجلاله وكماله، فربنا عالٍ على خلقه.

وقد ردَّ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المؤولة فقال: " السابع: أنه لم يثبت أن لفظ استوى في اللغة بمعنى استولى؛ إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المشهور:

ثم استوى بشر على العراق ... من غير سيفٍ ودمٍ مهراق

ولم يثبت نقلٌ صحيحٌ أنه شعرٌ عربيٌ، وكان غير واحدٍ من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: إنه بيتٌ مصنوعٌ لا يُعرف في اللغة، وقد عُلم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته فكيف ببيتٍ من الشعر لا يُعرف إسناده وقد طعن فيه أئمة اللغة؛ وذُكر عن الخليل كما ذكره أبو المظفر في كتابه " الإفصاح " قال: سئل الخليل هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: هذا ما لا تعرفه العرب؛ ولا هو جائزٌ في لغتها؛ وهو إمامٌ في اللغة على ما عُرف من حاله فحينئذٍ حمله على ما لا يُعرف حملٌ

باطلٌ.

الثامن: أنه روي عن جماعةٍ من أهل اللغة أنهم قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزاً ثم ظهر والله سبحانه لا يُعجزه شيءٌ، والعرش لا يُغالبه في حالٍ فامتنع أن يكون بمعنى استولى. فإذا تبين هذا فقول الشاعر: ثم استوى بشر على العراق لفظٌ مجازيٌ لا يجوز حمل الكلام عليه إلا مع قرينةٍ تدل على إرادته واللفظ المشترك بطريق الأولى، ومعلومٌ أنه ليس في الخطاب قرينةٌ أنه أراد بالآية الاستيلاء."أهـ (١)

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ عندنا سبع آياتٍ في كتاب الله، هذه الآيات السبع يثبت فيها ربنا جلَّ جلاله استواؤه على عرشه، أول آيةٍ منها في سورة الأعراف في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ والآية الثانية في سورة يونس -وهي شبيهتها-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ والآية الثالثة في سورة الرعد ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ والآية الرابعة في سورة طه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ والآية الخامسة في سورة الفرقان ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ والآية السادسة في السجدة ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهذه هي الآية السابعة في سورة الحديد.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام بن تيمية "مجموع الفتاوى" (٥/ ١٤٧).

في سبع مواضع من القرآن الكريم أخبر مولانا أنه استوى على العرش، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قَوْلُهُ: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥] ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ: [الأعراف: ٥٤] [يونس: ٣] [الرعد: ٢] [الفرقان: ٥٩] [السجدة: ٤] [الحديد: ٤] "[١]،

أما تفسير الإستواء -كما ذكرت- معناه علا واستقر جلَّ جلاله عليه، وربنا عزَّ وجلَّ الغني الكريم غنيٌ عن العرش، وغنيٌ عن الكرسي، لم يخلق العرش، ولم يخلق الكرسي لأنه بحاجةٍ إليهما- حاشا لله- "كان الله ولم يكن شيءٌ قبله"-عزَّ وجلَّ- وقد أجمع السلف الصالح على تفسير الاستواء بالعلو، فالله جلَّ جلاله عالٍ على خلقه؛ ورغم ذلك لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال عباده.

وهنا ذَلَّتْ أقدامُ أئمةٍ كبارٍ، ممن ينتسبون إلى أهل السنة، ولكنهم في مسائل في أبواب الصفات قد يخطئون، فالقرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأئمة المشهود لهم بالعلم الجَمِّ، وهو كذلك إمامٌ من أئمة التفسير، لكنه في هذا الموطن أخطأ، قال: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ثم قال **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾ قال: "وقد جمع في هذه الآية بين استوى على العرش وبين وهو معكم والأخذ بالظاهرَيْنِ تناقضٌ فدلَّ على أنه لا بد من التأويل، والإعراضُ عن التأويل اعترافٌ بالتناقض".أهـ [٢]، ولكن الصحيح ولا شك مذهب أهل السنة

(١) ذكره شيخ الإسلام بن تيمية في " العقيدة الواسطية " ص ٧٠

(٢) "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٢٣٧)

والجماعة، فهو أسلم وهو أعلم وهو أحكم.

الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل قانونـًا لمثل هذه الصفات، لما جاءه سائل فقال له يا إمام الرحمن على العرش استوى ما معنى استوى، فأطرق رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعني سكت حتى علاه الرحضاء يعني تصبب عرقـًا، ثم قال: الإستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ، ولا أراك إلا رجل سوء". (١) (٢)

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٨٦٧)، و اللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " (٦٦٤) عن جعفر بن عبد الله، قال: " جاء رجل إلى مالك بن أنس ، فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى قال: فما رأيت مالكا وجد من شيء كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضاء ، يعني العرق قال: وأطرق القوم ، وجعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه ، قال: فسري عن مالك ، فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، فإني أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج. وجاء نحوه عن أم سلمة أخرجه ابن منده في "التوحيد " (٨٨٧)، وذكره الذهبي في "العرش" (٢/ ١٧٨)، وجاء عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن وغيرهم.

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٩/ ٢٣٨): "وقد كان السلف الأول رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله. ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الاستواء معلوم- يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة. وكذا قالت أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا . وهذا القدر كاف، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء

صفة الاستواء كسائر صفات الله عزَّ وجلَّ:

هذه الصفة كسائر صفات ربنا عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ أهل البدع كالمعتزلة وغيرهم يقولون يد الله اليد تُطلق في اللغة على القدرة، وتُطلق على النعمة، فيد الله يعني قدرة الله، ويد الله يعني نعمة الله، ونحن نقول: لماذا نؤول صفات الله بدون داعي؟ وبدون موجبٍ؟ ربنا تعالى يقول: ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾ ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**﴾ مثلاً، ويقول: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾ فمثل هذه الصفات، لا شك أن عقيدة أهل السنة والجماعة فيها، هي العافية والسلامة، وعلى ذلك ترى الأئمة كلهم، الإمام مالك والشافعي وأحمد وأبا حنيفة قبلهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعًا، وسفيان الثوري وغيرهم وغيرهم، جميع الأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أئمة أهل السنة متفقون ومجمعون على إجراء نصوص الصفات على ظاهرها، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

ولذلك هنا في هذا الموطن المبارك، يقول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ ما يضرني وما يضرك أن نؤمن بصفات الله كما جاءت، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وما أجمل ما قال " آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله." (١)

ويُقال لهذا المعاند: أأنت أعلم أم الله؟؛ لهذا الذي يزعم أنه عبقريٌّ، ويظل يبحث في لغة العرب حتى يأتي بتأويلٍ لبعض صفات رب العالمين جلَّ جلاله،

---

(١) ذكره ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ في " لمعة الاعتقاد " (٧)

ويُخرجها عن معناها، ويذهب بتأويل هذه الصفات إلى معنىً غير مرادٍ، ويقول إن المراد كذا، وأهل العلم يقولون له: الله عزَّ وجلَّ عرف عباده بنفسه، في مثل هذه الآيات، حيث قال: هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ثم قال: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ففي كل هذا رب العالمين يعرف عباده بخلقه، ويخبرهم عن نفسه الجليلة، فأعظم علمٍ هو العلم بالله، وأوجب علمٍ هو العلم بالله، فلا يمكن أن الله لا يعرفنا بنفسه، ولا يبين هذا في كتابه، وقد قال عن كتابه تبيانا لكل شيء، فكيف لا يعرفنا بنفسه، ولا يبين صفاته وأسمائه لعباده، هذا لا يجوز أبداً.

ندم كثيرٍ من المبتدعة عند الموت:

ولذلك كثيرٌ من أهل البدع لو أراد الله له الخير قبل موته يندم ندمـًا شديداً جداً، فأئمةٌ كبارٌ جداً، من أئمة المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، ممن يُشار إليهم بالبنان، ملؤوا الدنيا، وكانوا يُكافحون عن عقيدتهم، لكنهم قبل موتهم ندموا ندمـًا شديداً، كالرازي وغيره من أهل العلم، لما حضرتهم الوفاة قالوا والله ما وجدت أفضل في الإثبات من قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ وفي النفي ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[(١)]

---

(١) ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢١/ ٥٠١)، و"مجموع الفتاوى" لابن تيمية (٤/ ٧٢)، و"الصواعق المرسلة" لابن القيم (٢/ ٦٦٥) قال الرازي رَحِمَهُ اللهُ: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿**ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝**﴾، ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ...**﴾،

وبعض الأئمة الكبار كالجويني يتمنى أن يموت على دين العجائز-دين الفطرة بلا خوضٍ في علم الكلام-، قَالَ أَبُو الْفَتْح مُحَمَّد بن عَليّ الْفَقِيه رَحِمَهُ اللَّهُ: "دَخلنَا على الإِمَام أبي الْمَعَالِي ابْن الْجُوَيْنِيّ نعوده فِي مرض مَوته فَأقْعدَ فَقَالَ لنا اشْهَدُوا عَليّ أَنِّي قد رجعت عَن كل مقَالَةٍ قلتهَا أُخَالِف فِيهَا مَا قَالَ السّلف الصَّالح وَإِنِّي أَمُوت على مَا تَمُوت عَلَيْهِ عَجَائِز نيسابور قلت هَذَا معنى قَول بعض الْأَئِمَّة عَلَيْكُم بدين الْعَجَائِز يَعْنِي أَنَّهُنَّ مؤمنات بِالله على فطْرَة الْإِسْلَام لم يدرين مَا علم الْكَلَام"[١]، أراد أن يموت على دين العجائز الذين ليس لهم إلا التوحيد الخالي من الخوض في علم الكلام،

ومنهم من قال: أقرأ في الإثبات ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ وقال أضعت عمري.

فعلاً الذي يقرأ القرآن الكريم والسنة ويذهب إلى آراء الرجال، هذا يُضيِّع عمره فيما لا فائدة فيه، ولذلك الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ من كلماته الجليلة قال " حكمي في أهل الكلام- الذين يتركون القرآن والسنة، ويجرون عقولهم في شرع ربهم عزَّ وجل- أن يُضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُنادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام."[٢].

لذلك أسلمُ لنا ولعقيدتنا أن نتبع سلفنا الصالح الكرام، الذين مضوا على هذه

=وأقرأ في النفي: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ**﴾، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

(١) ذكره الذهبي في " العلو للعلي الغفار " ص (٢٥٨).

(٢) أخرجه البيهقي في " مناقب الشافعي " (١/ ٤٦٢))، والهروي في "ذم الكلام" (٧٠٨).

العقيدة السليمة، في أنهم يُجرون نصوص صفات الله على ظاهرها، ولا يحرفونها، ولا يعطلونها، ولا يكيفونها، ولا يمثلونها.

قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ ربنا العظيم على العرش استوى، وبيننا وبين العرش آلاف السنين، وهناك أحاديث فيها ضعفٌ، ولكن هذا الحديث صححه بعض أهل العلم، **عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَصُرُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ يَعْنِي غِلَظُهَا، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءَيْنِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَبَيْنَ الْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ» ، وَلَمْ يَقُلِ ابْنُ مَعْمَرٍ: «وَبَصُرُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ» ، وَلَمْ يَقُلْ أَيْضًا: «وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَبَيْنَ الْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَمَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ»**.(١)

---

(١) أخرج أبو الشيخ في " العظمة " (٩/ ٢٠٢)، والدارمي في " الرد على الجهمية " (٨١)، وابن خزيمة في " التوحيد " (١/ ٢٤٢)، والدينوري في " المجالسة " (٢٨٣٠)، وصححه الألباني في " مختصر العلو الغفار " (٢٤٥)

أما حديث **أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ جَالِسٌ وَأَصْحَابُهُ إِذْ أَتَى عَلَيْهِمْ سَحَابٌ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا الْعَنَانُ هَذِهِ رَوَايَا الْأَرْضِ يَسُوقُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْكُرُونَهُ وَلَا يَدْعُونَهُ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَكُمْ»؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا الرَّقِيعُ، سَقْفٌ مَحْفُوظٌ، وَمَوْجٌ مَكْفُوفٌ»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ**

صفة العرش:

العرش هو سقف المخلوقات، وهو أكبر المخلوقات كلها، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَالْعَرْشِ الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَعْظَمُهَا وَالرُّبُوبِيَّةُ التَّامَّةُ تَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَهُ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ، وَالْحُبُّ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالْإِجْلَالُ، وَالطَّاعَةُ إِلَّا لَهُ."(١)

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ أَيْ: هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقِهِ، لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُوَ سَقْفُ المخلوقات وجميع الخلائق من السموات وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا تَحْتَ الْعَرْشِ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى،

=**سَمَاءَيْنِ، مَا بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ» حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ العَرْشَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءَيْنِ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَكُمْ»؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا الأَرْضُ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَ ذَلِكَ»؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ تَحْتَهَا أَرْضًا أُخْرَى، بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ» حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرَضِينَ، بَيْنَ كُلِّ أَرَضَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّكُمْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطَ عَلَى اللهِ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** فقد أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٢٩٨) وأحمد في " مسنده " (٨٨٢٨) والحاكم في " المستدرك " (٢٦٦٥) وضعفه الألباني في " ضعيف الجامع " (٦٠٩٤).

(١) أورده ابن القيم في " زاد المعاد " (٤/ ١٨٧).

وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَقَدَره نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٍ."(١)

وفسره ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: "العرش سرير الملك"(٢) يعني الكرسي الذي يجلس عليه الملك، ولله المثل الأعلى ليس كمثله شيءٌ تبارك عزَّ وجلَّ، فالعرش هو سقف المخلوقات، هو أكبر المخلوقات كلها، وهو يعتبر السقف بالنسبة لجميع المخلوقات.(٣)

﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ** ﴾ الله تعالى على العرش استوى؛ وهو مع ذلك يعلم ما يلج في الأرض، والولوج الدخول، وما يلج يعني ما يدخل في الأرض، كالأمطار التي تنزل من السماء، والحبوب، والأموات الذين يدفنون في الأرض، والكنوز التي تلج فيها، والله لا يخفى عليه شيءٌ منها سبحانه عزَّ وجلَّ، ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا** ﴾

---

(١) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٤/ ٢٤٣).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان"(١٨/ ٤٠)عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قَوْلَهُ: "﴿ **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ قَالَ: سَرِيرٌ كَرِيمٌ، قَالَ: حَسَنُ الصَّنْعَةِ، وَعَرْشُهَا: سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَوَائِمُهُ مِنْ جَوْهَرٍ وَلُؤْلُؤٍ "

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "العرش" (١/ ٢٧٥) والمعنى المقصود في عرش الرحمن من تلك المعاني السابقة، هو سرير الملك، ذلك لأن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة قد جاءت معينة لهذا المعنى وحده دون غيره من المعاني.

وقال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ في "تهذيب اللغة" (١/ ٢٣٦) والعرش في كلام العرب: سرير الملك، يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ.

(٣) ينظر كتاب"العرش وما روي فيه"لابن أبي شيبة ص(٢٥)وكتاب "العرش" للذهبي (١/ ٢٧١)

من النبات، وما يخرج منها من غير ذلك، الله عزَّ وجلَّ يعلم كل ما يخرج من الأرض، سبحانه وبحمده، وكذلك ﴿**وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ**﴾ من ملائكةٍ، ومن أوامر أمر الله تعالى بها، ومن قدرٍ وغير ذلك مما ينزل من السماء، ﴿**وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**﴾ من الملائكة أيضاً تعرج إلى الله، وكذلك ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ وكذلك الأرواح، تصعد إلى الله عزَّ وجلَّ أرواح المؤمنين، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ الحديث الطويل حديث البراء ابن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **"إذا كان العبد المؤمن في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة"** إلى قوله **"ثم تصعد بها الملائكة إلى السماء الدنيا، فيشيعه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماء التي تليها حتى تنتهي إلى السماء السابعة، فيقول الله تعالى أعيدوا روحه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارةً أخرى"**(١) ربنا لا يخفى عليه شيءٌ في هذا الكون العظيم، متسع الأرجاء، فهو على العرش استوى، ويعلم ما تُكنُّه الصدور، على العرش استوى ويعلم السر وأخفى، على العرش استوى وقال ﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ**﴾ سبحانه عزَّ وجلَّ، هذا يدفعنا إلى تعظيم ربنا، عندما نعلم أن ربنا معنا أينما كنا، كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾هو معكم بعلمه، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال عباده أبداً - سبحانه عزَّ وجلَّ -، ربك معك أينما كنت في البر، في البحر، في الجو، نائمٌ، مستيقظٌ، في جماعةٍ، وحدك، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ولذلك كان الإمام

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده" (١٨٥٣٤)، والحاكم في " المستدرك" (١٠٨)، وصححه الألباني في" مشكاة المصابيح" (١٦٣٠).

أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينشد كثيراً هذين البيتين الكريمين

إِذا ما خَلَوتَ الدَهرَ يَوماً فَلا تَقُل   خَلَوتُ وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقيبُ
وَلا تَحسَبَنَّ اللَهَ يُغفِلُ ما ساعَةً   وَلا أَنَّ ما يَخفى عَلَيهِ يَغيبُ (١)

﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ يدفع العبد إلى الإستقامة، وإلى تطهير الجنان، وإلى مراقبة الرحمن، وإلى العلم بالله عزَّ وجلَّ، وتوقيره وإجلاله، الله معك، العظيم معك،

ولذلك في بعض الأحاديث، **عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ الْأَزْدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عَزَّ وجلَّ، كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ»**(٢)،

فمثلاً بعض الناس من أهل الوجاهة يُسميه الناسُ كبيرَ العائلة، الكل يوقره، الكل يعظمه، أو إنسانٌ شريفٌ جداً تعظمه وتهابه وتوقره، لو أن هذا الإنسان معك ليلك ونهارك، هل تعصي الله أمامه؟، هل تفعل شيئـاً يكرهه هذا الرجل؟، لا يمكن؛ بل

---

(١) من أبيات أبي العتاهية كما في " ديوانه " ص (١٨)، وأخرجها البيهقي في " شعب الإيمان " (٦٩٠٩)، عن الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُنْشِدُ.. وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (٩/ ٢٢٠)، عن أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ النَّحْوِيُّ، قَالَ: كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أَرَى أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ لِي: «فِيمَ تَنْظُرُ؟» فَقُلْتُ: فِي النَّحْوِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ فَأَنْشَدَنِي أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ.... وينظر " جامع علوم الإمام أحمد "(١٣/ ٢٣٤).

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في " الزهد " (٢٤٨)، والطبراني في " المعجم الكبير " (٥٥٣٩)، وابن أبي الدنيا في " مكارم الأخلاق " (٩١)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٧٤١).

ستراقب حركاتك وسكناتك، وتحاسب عليها، ولا تفعل إلا ما يزينك أمامه، فرسول الله ﷺ يخبرنا أن نستحي من الله كاستحياء أحدنا من رجلٍ شريفٍ من قومه.

وفي الحديث، **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ»**[1]، تحفظ عقلك، تحفظ سمعك، تحفظ بصرك، تحفظ بطنك لا تُدخل فيها حرامـًا، لأن الله معك أينما كنت،

﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤**﴾ جلَّ جلاله، أي ذو بصرٍ نافذٍ، يعلم ويرى جميع أعمال عباده وأقوالهم.

ثم ختم الله هذه الآيات الكريمات بقوله: ﴿**لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ يعيد ﴿**لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ بدأها ثم يعيدها مرةً ثانيةً تأكيداً، وحتى يعلم الجميع أن المُلك مُلكه، ﴿**وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥**﴾ كل الأمور مردُّها إليه، فالعبد مردُّه إلى ربه، الغنى والفقر مردُّه لله، المُلك؛ من يأخذ المُلك، ومن لا يأخذه مردُّه إلى الله، الصحة والمرض مردُّها إلى الله، النعيم والعذاب وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ إذا كان أمري وأمرك وأمر الخلائق مردُّها للكريم جلَّ جلاله، فينبغي علينا أن نشغل أنفسنا بطاعته،

---

(١) **(حسن لغيره)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٥٨)، وأحمد في " مسنده " (٣٦٧١)، والحاكم في " المستدرك " (٧٩١٥)، وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب " (١٧٢٤).

ونشغل أنفسنا برضاه، وأن نجتهد أن لا نُسخطه علينا، ونجتهد أن نبتعد عن كل معصيةٍ يكرهها مولانا جلَّ جلاله، لأنه إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ.(١)

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾

سبحانه جلَّ جلاله، ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي أن الله يخبر عن نفسه جلَّ جلاله أنه المتصرف في الملك، وأنه جلَّ جلاله وعز جاهه يجعل الليل أحيانـًا طويلاً ويُقصِّر النهار، ويجعل النهار أحيانـًا طويلاً ويُقصِّر الليل، يولج يعني يدخل الليل في النهار، يعني يأخذ من ساعات الليل فيُدخلها في النهار، فيُطيل النهار ويُقصِّر الليل، ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي يُدخل النهار في الليل فيأخذ من ساعات النهار فيُدخلها في الليل، فيطيل ساعات الليل، ويُقصِّر ساعات النهار(٢)، وكل ذلك لحكمته العظيمة جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه، فيحدث بسبب ذلك الفصول من شتاءٍ وخريفٍ وصيفٍ وربيعٍ وما شابه ذلك؛ لما في ذلك من مصالح العباد لمعاشهم ومعادهم، بفضل الله تبارك وتعالى،

ثم الله يختم هذه الآية بقوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ اعلم أن ربك جلَّ جلاله عليمٌ بما يُكنُّه العبد في صدره، سواءٌ أظهر العبد هذا الذي أكننه أو أخفاه ولم يتكلم به،قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَهُوَ ذُو عِلْمٍ بِضَمَائِرِ صُدُورِ عِبَادِهِ، وَمَا عَزَمَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِمَا أَنْفُسُهُمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ خَافِيَةٌ"(٣)

---

(١) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٣٧).

(٢) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٨٧) وأخرجه عن عكرمة وإبراهيم النخعي.

(٣) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٨٨).

فالله عليمٌ بذات الصدور؛ بما يكنه العباد في صدورهم، جلَّ جلاله يعلم السر وأخفى، أخفى من السر الذي هو حديث النفس، وهو ما يدور بذهن الإنسان ولا يُخبر به، فالله تعالى أحاط بكل شيءٍ علماً، فعلم الله ليس كعلم المخلوق، مولانا جلَّ جلاله لا يخفى عليه شيءٌ قط، لا من أقوال عباده ولا من أعمالهم، لا من سرٍّ ولا من علانيةٍ، بل قال جلَّ جلاله: ﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**﴾ وقال عزَّ وجلَّ عن علمه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ جلَّ جلاله وعزَّ جاهه، فربنا تعالى أحاط بكل شيءٍ علماً؛ فلا يمكن للعبد أن يُخفي شيئاً على الله.

فأبداً مهما يُخفي العبد يعلمه الله، مهما يُسرُّ أحاط الله به علماً، وفي سبب نزول أول آيةٍ من سورة المجادلة، **عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجلَّ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾** سبحانه عزَّ وجل.[1]

ولما اجتمع ثلاثة نفر عند الكعبة، كما ثبت عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: " اجْتَمَعَ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه النسائي في " المجتبى " (٣٤٦٠) وفي " السنن الكبرى " (٥٦٢٥) وابن ماجه في " سننه " (١٨٨) والحاكم في "المستدرك " (٣٧٩١) وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٧/ ١٧٥)

عِنْدَ البَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ - أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ - كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ**﴾.(١)

ولذلك قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ**﴾ نقل الحافظ ابن كثيرٍ إجماع أهل السنة على أن هذا علم الله عزَّ وجلَّ،حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: "وَلِهَذَا حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَلَا شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ وَلَكِنَّ سَمْعَهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ،

---

(١) **(متفق عليه)**؛أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٨١٧)، ومسلم في "صحيحه" (٢٧٧٥).

وأخرجه ابن هشام في "السيرة" (٢/ ٤١٣)، وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٣/ ١٤١) قال ابن هشام: وحدثني: أن رسول الله ﷺ، دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم النبي ﷺ، فقال: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك.

وَبَصَرَهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَهُوَ، سُبْحَانَهُ، مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ." (١)

وقفةٌ: الله معنا بعلمه أينما كنَّا، في أي مكانٍ نكون؛ في البر، في الجو، في البحر، في حضرنا، في سفرنا الله معنا، قد أحاط بنا علمـاً جلَّ جلاله وعزَّ جاهه،

فإذا أيقن العبد بمعية علمه وإحاطته دفعه ذلك إلى مراقبة مولاه، وإلى أن يخشى الله، وأن يتقيه، فإذا كنت وحيداً وخاليـاً بربه عزَّ وجلَّ، أو لا يراه أحدٌ فإنه يُراقب الله لأنه يعلم ما تكنه الصدور، وإذا كان أمام الناس فهو أتقي لله عزَّ وجلَّ وأكثر مراقبةً، فمراقبة العليم عزَّ وجلَّ تكون في كل حالٍ، نسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد يا رب العالمين.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾

ثم يقول الله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يأمر الله عباده الصالحين بالإيمان

---

(١) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٤٢).

به وبرسوله ﷺ، وهذه الآية الجليلة نزلت على النبي ﷺ، والصحابة موجودون، يعني يأمر الله تعالى الصحابة بالإيمان، يأمرهم بالإيمان بالله وبرسوله ﷺ على الوجه الأكمل، والدوام على هذا الإيمان والثبات عليه، وأعظم نعمة في الكون كله أن هدانا الله للإيمان، ثم الأجمل أن يُديم الله علينا هذا الإيمان ويثبتنا عليه، فنسأل الله أن نداوم على هذا الإيمان ونثبت عليه، ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كما قال الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ إما أن تحتمل كما ذكرنا معناها داوموا وهذا المعنى هو المطلوب لا شك والواجب، وإما أن تحتمل كذلك ازدادوا إيمانـًا،

﴿**ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ والآية نزلت لقومٍ مؤمنين من خيار أهل الإيمان- الصحابة الكرام- وليس في الأمة أعلم ولا أحسن إيمانـًا منهم، ورغم ذلك يقول الله لهم: ﴿**ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ يعني ازدادوا إيمانـًا، وداوموا على هذا الإيمان واثبتوا عليه،

وكذلك ﴿**ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ معناها صدقوا الله والرسول ﷺ، فالإيمان يطلق على التصديق؛ ولكنه تصديقٌ خاصٌ؛ وهو التصديق الباعث على العمل، وأقرب من التصديق في المعنى هو لفظ الإقرار، والمعنى أقرُّوا وصَدِّقوا الله فيما أخبركم به من أخبار، ومن ذلك إخباره أن للذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وبساتين طيبةً في جنات عدنٍ، ورضوانٌ من الله أكبر، وأقروا وصَدِّقوا إخبار الله عزَّ وجلَّ عن عذابه الذي أعده للكافرين العصاة؛ الذين طغوا وبغوا، وأقروا وصَدِّقوا إخبار الله عن هلاكه للأمم التي حادت عن طريق الله وكذبت الرسل، وكذلك أقروا

وصَدِّقوا الرسول ﷺ في كل ما يخبركم به، وفي كل ما يأمركم وينهاكم.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ الله تعالى يخبرنا أن المال الذي بين أيدينا نحن فيه مستخلفون، فليس هو مالنا لنا على الحقيقة، فإذا كان العبد مستخلفٌ فيما أنعم الله به عليه، وذلك أن هذا المال كان في أيدي أناسٍ أُخر قبلنا، ثم هلكوا وجاء الله بهذا المال إلينا، وجعلنا الله خلفاء لمن كان قبلنا، فينظر رب العزة ماذا نعمل؛ كما قال النبي ﷺ **"إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء"** (١)

فربنا يقول لنا: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾، ولذلك قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ تعالى: "ينفق العبد من ماله ونفسه طيبة مثل المستأمن على المال الذي أذن له صاحب المال في النفقة"(٢)

وقفةٌ: لو أن رجلاً ثرياً وأعطاك مليون ريالٍ لأنك إنسانٌ أمينٌ؛ وقال لك هذه المليون أنفقها على الفقراء، فلن يكون عندك خوفٌ أن ينفد هذا المال، لأن صاحبه قال لك أنفقه، ولذلك رب العزة جلَّ جلاله يقول: ﴿**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾ من شيءٍ يعني أي شيءٍ، كثيرٍ، قليلٍ، في السر، في العلن، سواءً كانت هذه النفقة صدقةً ماليةً، أو صدقةً قوليةً، أو مساعدةً لإنسانٍ، أو غير ذلك وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ في " النكت والعيون " (٥/ ٤١٧) مما جعلكم مستخلفين فيه بوراثتكم له عمن قبلكم، قاله الحسن، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٣٨).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»

" **من تصدق بعدل تمرةٍ**" عدل تمرةٍ واحدةٍ، "**من كسبٍ طيبٍ**" أي حلالٍ، " **وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**"[١]، لقمةٌ، أو تمرةٌ واحدةٌ، تكون عند الله مثل الجبل؛ فمن الممكن أن يشتري العبد كيلو تمراً بعشرين ريالٍ، أو أكثر أو أقل، وكيلو التمر فيه أكثر من مائة تمرةٍ، والتمرة الواحدة تكون مثل الجبل يوم القيامة، فما الذي يمنع العبد من أن يتصدق؟

فالعبد يتصدق بما استطاع، وما يسَّر الله له، وهذا بخلاف الزكاة فهي واجبةٌ على العبد، ولا بد أن يُخرج الواجب، ثم إذا منَّ الله عليه بعد ذلك فإنه يتصدق بما يسَّر الله عليه، وكفى بالصدقة فخراً وشرفـًا وفضلاً لصاحبها قول الحبيب ﷺ: " **المرء يوم القيامة في ظل صدقته حتى يقضى الله بين العباد**"[٢]، فيكفي العبد شرفـًا أن يستظل بصدقته يوم لا ظل إلا ظل الله؛ وهو ما رضي الله أن يكون ظلاً

فعلى قدر صدقة العبد على قدر ما يكون له من ظلٍ يوم القيامة، فالله يظل العبد به من حرٍ لا يمكن أن يخطر على باله،

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٤٣٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٠١٤).

(٢) يأتي قريبا.

فلو تخيل العبد ما بينه وبين الشمس الآن من ملايين السنوات الضوئية، وإذا إشتدت عليه قليلاً مع بعدها، وما أطاق ذلك؛ بل اختبأ منها، وأراد التبرد بكل ما يُستطاع.

لكنها يوم القيامة تقترب من الرؤوس كما جاء خبرها في الحديث، **عن الْمِقْدَادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُدْنِيَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ»، قَالَ سُلَيْمٌ: لَا أَدْرِي أَيَّ الْمِيلَيْنِ، يَعْنِي أَمَسَافَةُ الْأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكَحَّلُ بِهِ الْعَيْنُ؟ قَالَ: «فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ، فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلْجَامًا»، قَالَ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ، يَقُولُ: «يُلْجِمُهُمْ إِلْجَامًا»"**[(١)] والحديث في صحيح مسلم وغيره،

"**فتصهرهم الشمس**" يعني تذيبهم - نسأل الله اللطف يا رب ويجعلنا وإياكم في ظله يوم لا ظل إلا ظله -، فالشمس تدنو من رؤوس الخلائق فتكون منهم كمقدار ميلٍ، إما ميل المسافة وهو تقريبـًا اثنين كيلومتراً إلا ربعٍ تقريبـًا، أو ميل المكحلة الذي تكتحل به المرأة؛ وهو تقريبـًا عشرة ستيمتراً.

فلو تخيل العبد ذلك؛ يوم تدنو الشمس؛ فيحدث كما قال ﷺ؛ يغوص الناس في

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٦٤)، والترمذي في " سننه " (٢٤٢١)، وأحمد في " مسنده " (٢٣٨١٣)، وابن حبان في "صحيحه " (٧٣٣٠)، واللفظ له عن سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي.

العرق، فيبلغ عرقهم في الأرض سبعين ذراعـًا، وفوق الأرض يُلجمهم إلجامـًا، ويبلغ في روايةٍ إلى أنصاف آذانهم[١]، وفي هذه الأثناء ترى أناسـًا في كرامة الله تعالى يحفظهم من هذه الشدائد، أعد الله لهم ظلاً ظليلاً، هؤلاء هم عباد الله وأولياؤه، الذين أخذوا الدنيا وجعلوها لله رب العالمين، فأنفقوا على الفقراء، وأنفقوا على الأقارب، ووصلوا بها الأرحام، وأنفقوا على الأيتام والمساكين والمحتاجين، هنيئـًا ثم هنيئـًا، لذلك العبد الصالح الذي علم أنه في الدنيا مستخلفٌ، كما قال الله: ﴿**مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ**﴾

ورسول الله ﷺ يقول **"ثلاثةٌ أقسم عليهن، ما نقصت صدقةٌ من مالٍ"**[٢] فمهما أخرج العبد صدقةً من ماله؛ فالصدقة لا تُنقص المال بل تزيده يقينـًا،

عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به النبي ﷺ قال: " قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك"[٣]، يعني إذا أردت سعة الله لك، وإذا أردت تيسير الله لأرزاقك، وإذا

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٩٣٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٦٢)، **عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: «يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ.**

(٢) (صحيح) أخرجه لترمذي في " سننه " (٢٣٢٥) والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٢/ ٣٤١)، وصححه الألباني في "صحيح سنن الترمذي" (٢٣٢٥) **عن أبي كَبْشَةَ الأَنَّمَارِيُّ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ» قَالَ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا»**

(٣) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٦٨٤)، ومسلم في " صحيحه " (٩٩٣).

أردت كثرة الأرزاق، أنفق فإن الله ينفق عليك جلَّ جلاله وتباركت أسمائه، ولذلك كان الحبيب ﷺ ما سُئل شيئاً قط إلا أعطاه، بل وفي الحديث الذي جاء في الصحيح، **عن أنس قال" ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة "**.[1]

لذلك قول الله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ آمنوا أي حققوا الإيمان بالله، ولا يقبل الله من العبد أي عملٍ إلا إذا جاء بالإيمان.

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: "قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله»"[2]، فالإيمان بالله أساس الأعمال، ولا يقبل الله من العبد نافلةً ولا فريضةً إلا إذا جاء بالإيمان.

فائدةٌ: نحن نرى من بعض النصارى من يتصدق بصدقاتٍ هائلةٍ، ولكنهم يتصدقون بها وهم كفارٌ، فأحياناً يوصي بعضهم بنصف ماله، وربما كان نصف ماله ملياراتٍ، تخرج للفقراء والمساكين من أبناء ملتهم، فهذه النفقة هل يقبلها الله؟، الجواب قطعا لا، لماذا لا تُقبل؟ لأن الله تعالى قال: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ والله جلَّ جلاله قال: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً**

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٣١٢)، وأحمد في " مسنده " (١٢٠٥١)، وابن خزيمة في " صحيحه " (٢٣٧١).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٥١٨)، ومسلم في " صحيحه " (٨٤).

مَنثُورًا﴾، وعن أنس بن مالكٍ ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنةً، يُعطى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناتٍ ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنةٌ يجزى بها"**[(١)]، فإذا تصدق الكافر، أو كان عنده حسنُ خلقٍ، أو كان يُصلح بين الناس وهو كافرٌ، فالله تعالى يجازيه بها في الدنيا؛ من الذكر الحسن، والسمعة الطيبة، والصحة، وكثرة المال، وكثرة الأولاد، ومن التوفيق في أسباب الدنيا وهكذا، لأن الآخرة عزيزةٌ لا يؤتيها رب العزة إلا لأوليائه وأحبابه، وأما المؤمن فالله تعالى يؤتيه أجره في الدنيا على ما قدَّم، ويجمع له ذلك مع ثواب الآخرة -بفضل الله تعالى-مع كل حسنةٍ أزلفها أي قدَّمها، فالله يكافئه عليها بفضله تبارك وتعالى.

لذلك العاقل الذي لا يبخل بمال الله على نفسه، إذا أيقن المرء أنه مُستَخلَفٌ في مال الله تعالى، ومعنى مُستَخلَفٌ أي أمينٌ على هذا المال مدةً من الزمان، ثم يذهب هذا المال إلى من يأتون بعدك أيضـاً، والدنيا لا تبقى لأحدٍ، ولذلك كما قال الأئمة لعل الوارث يكون أسعد بالمال من المورِّث، لعله يكون تقيـاً فيأخذ المال يستمتع به فيما أحله الله، وينفق لنفسه، ويعمل صدقاتٍ جاريةً له، ويقوم بوقفٍ، فيكون قد انتفع بالمال أعظم ممن جمع المال، ولعل الوارث يكون عاصيـاً -والعياذ بالله- فيكون من جمع المال مُتسببـاً في عصيانه، ويكون شريكـاً له في الإثم- نعوذ بالله من ذلك، ونسأل

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٠٨)، وأحمد في " مسنده " (١٢٢٣٧)، وابن حبان في " صحيحه " (٣٧٧).

الله العفو والعافية-، فإذا مات الإنسان وذهب إلى قبره وكثيرٌ من الناس من أهل الحقوق لم ينتفع بماله، وعداد السيئات يَعدُّ عليه في قبره، لأنه خلَّف مالاً لورثته يعصون ربهم به.

ولله درُّ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما حضرته الوفاة قِيلَ له:" تَدَارَكْ نَفْسَكَ. فَقَالَ: وَاللهِ لَوْ أَنَّ شِفَائِي أَنْ أَمْسَحَ شَحْمَةَ أُذُنِي، أَوْ أُوتَى بِطِيبٍ فَأَشُمَّهُ مَا فَعَلْتُ. فَقِيلَ لَهُ: هَؤُلَاءِ بَنُوكَ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلَا تُوصِي لَهُمْ بِشَيْءٍ ; فَإِنَّهُمْ فُقَرَاءُ؟ فَقَالَ ﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾ وَاللهِ لَا أُعْطِيهِمْ حَقَّ أَحَدٍ، وَهُمْ بَيْنَ رَجُلَيْنِ ; إِمَّا صَالِحٌ فَاللهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَإِمَّا غَيْرُ صَالِحٍ فَمَا كُنْتُ لِأُعِينَهُ عَلَى فِسْقِهِ وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَا أُبَالِي فِي أَيِّ وَادٍ هَلَكَ. وَفِي رِوَايَةٍ: أَفَأَدَعُ لَهُ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، فَأَكُونَ شَرِيكَهُ فِيمَا يَعْمَلُ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ. ثُمَّ اسْتَدْعَى بِأَوْلَادِهِ فَوَدَّعَهُمْ وَعَزَّاهُمْ بِهَذَا، وَأَوْصَاهُمْ بِهَذَا الْكَلَامِ، ثُمَّ قَالَ: انْصَرِفُوا عَصَمَكُمُ اللهُ، وَأَحْسَنَ الْخِلَافَةَ عَلَيْكُمْ. قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَحْمِلُ عَلَى ثَمَانِينَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَانَ بَعْضُ أَوْلَادِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ كَثْرَةِ مَا تَرَكَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ يَتَعَاطَى وَيَسْأَلُ مِنْ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِأَنَّ عُمَرَ وَكَلَ وَلَدَهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وجلَّ، وَسُلَيْمَانُ وَغَيْرُهُ إِنَّمَا يَكِلُونَ أَوْلَادَهُمْ إِلَى مَا يَدَعُونَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الْفَانِيَةِ، فَيَضِيعُونَ وَتَذْهَبُ أَمْوَالُهُمْ فِي شَهَوَاتِ أَوْلَادِهِمْ."(١)

كلنا ذاك العبد، إنسانٌ يبيع ويشتري؛ يَغش في بيعه وشرائه -عافانا الله وإياكم-،

---

(١) أورده ابن كثير في " البداية والنهاية " (١٢/ ٧١٥)

وعلى أتم الاستعداد لأن يُقسِم أيمانـًا كاذبةً على أن ما يبيعه شئٌ جيدٌ وهو من أردأ ما يكون.

وقد حدثني أخٌ من إخواني أنه اشترى سيارةً من إنسانٍ فاضلٍ، سأله هل السيارة جيدةٌ يا فلان؟ قال له: والله ما فيها شيءٌ للإصلاح إلا ربما أمرٌ تافهٌ يساوي مائةً وخمسين ريالاً، يقول الأخ: بعدما اشتريت ووثقت فيه، فظاهره على خيرٍ ومن أهل الصلاح، وأول ما ركبت السيارة وما تحركت إلا اثنين كيلومتراً؛ وإذا بعداد الحرارة ارتفع جداً، اتصلت به يا فلان حدث كذا، فقال لي هذه هي المائة وخمسون ريالاً التي أخبرتك بها، فهي ليست محتاجة إلا إلى سلكٍ للعداد، قال الأخ : فتوجست فقلت أذهب بها للفحص، فإذا الفحص يكشف عن إصلاحاتٍ بتكلفة خمسة عشر ألف ريالٍ.

ومثل هذا كثيرٌ جداً، إلا من رحم الله عزَّ وجلَّ وعصم، ولذلك **عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بُورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحق بركة بيعهما»**.(١)

لذلك أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ربى أولاده على الصواب، وعلى العقيدة الصحيحة، وعلى الدين المتين، ورسَّخ في نفوسهم أن هذه الدنيا دار ممرٍ، وأننا لم نُخلق لأجل البقاء فيها، والسعيد الذي يخرج منها إلى الدار الآخرة بالزاد، ولذلك ورد أن ابْنُ عُيَيْنَةَ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ العَزِيْزِ بنِ عُمَرَ: مَا آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَبُوْكَ؟

---

(١) **(متفق عليه)**؛أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٠٨٢)، ومسلم في " صحيحه " (١٥٣٢).

فَقَالَ: كَانَ لَهُ مِنَ الوَلَدِ: أَنَا، وَعَبْدُ اللهِ، وَعَاصِمٌ، وَإِبْرَاهِيْمُ، وَكُنَّا أُغَيْلِمَةً، فَجِئْنَا كَالمُسَلِّمِيْنَ عَلَيْهِ، وَالمُوَدِّعِيْنَ لَهُ.

فَقِيْلَ لَهُ: تَرَكْتَ وَلَدَكَ لَيْسَ لَهُ مَالٌ، وَلَمْ تُؤْوِهِمْ إِلَى أَحَدٍ!

فَقَالَ: مَا كُنْتُ لأُعْطِيَهُم مَا لَيْسَ لَهُم، وَمَا كُنْتُ لآخُذَ مِنْهُم حَقّاً هُوَ لَهُم، وَإِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ فِيْهِم، الَّذِي يَتَوَلَّى الصَّالِحِيْنَ، إِنَّمَا هُمْ أَحَدُ"(١)،

ولذلك كان بَعْضُ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَحْمِلُ عَلَى ثَمَانِينَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَانَ بَعْضُ أَوْلَادِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ كَثْرَةِ مَا تَرَكَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ يَتَعَاطَى وَيَسْأَلُ مِنْ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِأَنَّ عُمَرَ وَكَلَ وَلَدَهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وجلَّ.

فالحرام لا يبقى للعبد أبداً، فماذا يعني أن يكون العبد مسئولاً؛ ويستغل ذلك فيظلم الناس ويحوز المال، ويجمعه من الحلال والحرام، ويسجن هذا، ويهدم بيت هذا، ويأخذ أمواله ليصادرها ويأخذها لنفسه ولأولاده، لعلمه أن لا أحد من أهل الدنيا يُحاسبه، لكن ربنا تعالى يوم القيامة يُحاسب على الفتيل والنقير، كما قال تعالى: ولا تظلمون فتيلا وقال تعالى: ولا يظلمون نقيرا وقال جلَّ جلاله: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾

فعلينا أن ننتبه لهذه المسألة جيداً، فيتصدق العبد بما يسر الله له، كل يومٍ إن استطاع فيستعين بالله، على الحديث، **عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ قَالَ: حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ**

(١) ذكره الذهبي في " سير أعلام النبلاء " (٥/ ١٤٠).

قَالَ يَزِيدُ: فَكَانَ أَبُو الْخَيْرِ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ لَا يَتَصَدَّقُ مِنْهُ بِشَيْءٍ، وَلَوْ كَعْكَةً وَلَوْ بَصَلَةً"[١]

راوي الحديث يقول منذ أن سمعت هذا الحديث وأنا لا يمر عليَّ يومٌ إلا وأتصدق بصدقةٍ مما يسَّر الله لي، وإن لم أجد صدقةً لا ديناراً ولا درهمـاً، ولا ريالاً يتصدق به، يذهب إلى بيته فيأخذ بصلةً ويذهب بها إلى جاره؛ يا فلان اقبل هذه مني، فيتصدق ببصلةٍ لأنها ما يجد.

فلذلك، صح في الحديث **عن عبد الله بن الشخير ﵁، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: " يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟"**[٢]

وقفةٌ: ماذا يبقى للعبد من ماله؟ فهل يبقى للعبد ما أكل، وهو مع عظم شراهةٍ إلا أنه لا يتعدى حدود معدته، وربما إذا ملأها اصابته تخمةٌ،

أخٌ من إخواني يحدثني؛ يقول يا شيخ كنا نشتهي اللحم المشوي- الكباب-، فقلت للأولاد سنذهب للمحل فنأكله، يقول يا شيخ ظللت ثمانية عشر ساعةً أتنفس بصعوبةٍ.

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في " مسنده " (١٧٣٣٣)، وابن خزيمة في " صحيحه " (٢٤٣١)، وابن حبان في " صحيحه " (٣٣١٠) والحاكم في " المستدرك " (١٥١٧)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع "(٤٥١٠).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٥٨)، و الترمذي في "سننه" (٣٣٥٤) ، والنسائي في "السنن الكبرى" (٦٤٠٧).

لكن الأمر في الآخرة مختلفٌ، فمولانا يقول: كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون، وعن **أبي سعيدٍ الخدري، وأبي هريرة ﵄، عن النبي ﷺ قال: " ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً" فذلك قوله عز وجل:** ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾.(١)

وأيضـًا **عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا"**(٢)

هذا لسان البخيل الذي يمسك عن الفقراء والمساكين وذوي الرحم، وكثيرٌ منهم والعياذ بالله يبخل عن نفسه، وعن أولاده -سبحان الله- ماذا يفعل بهذا المال؟

ذكر بعض رواة الأحداث قصةً حقيقيةً لبعض أغنياء العالم في أوروبا، وهي حقيقيةٌ موجودةٌ حدثت في عصرنا هذا، وكانت البنوك الكبرى تستدين منه، وكان له خزينةٌ عظيمةٌ جداً لا يمكن لأحدٍ أن يدخلها إلا هو؛ وتُفتح بكلمة سرٍّ أو ببصمةٍ أو ما شابه ذلك، ودخل خزينته هذه التي تستدين منه البنوك الكبرى، وإذا بالباب يُغلق ولا يستطيع أن يخرج منه، ومات في وسط ماله، ولم يجد كسرة خبزٍ يأكلها حتى يخرج،

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٣٧)، والترمذي في"سننه" (٣٢٤٦)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١١١٢٠).

(٢) **(متفق عليه)**؛أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤٤٢)، ومسلم في " صحيحه " (١٠١٠).

وما استطاع أن يخرج، -فسبحانك ربي ما أعظمك-.

ولذلك في الحديث، **عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خيرٌ لك، وأن تمسكه شرٌّ لك، ولا تلام على كفافٍ، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»**(١)، الكفاف هو أن ييسر الله لك رزقك، كما ورد **عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتاً»**(٢) والقوت هو الكفاف، وهو أن ييسر الله للعبد ما يحتاجه هو وأولاده وأهله ومن يعول ولا يكون عنده فائضٌ، فلا يُلام على شيءٍ، فاللوم كما قال النبي ﷺ **" إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك"**.

فلذلك قول مولانا جلَّ جلاله: ﴿**ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ**﴾ هنيئاً لهم، آمنوا وأنفقوا، حققوا الإيمان على الوجه الأكمل، وأنفقوا وتصدقوا، قال مولانا: ﴿ **لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ**﴾

وقفةٌ: حينما ترى رجلاً غنياً كريماً، سخي النفس، محباً لأمته، محباً لإخوانه، عنده مالٌ وقد منَّ الله عليه بملياراتٍ، يسمع أن هذا إنسانٌ مدينٌ لا يستطيع الوفاء؛ يقضي دينه، يسمع أن هذا يتيمٌ؛ يكفله- ولسان حاله لعل الله أن يحشرني مع رسول الله محمدٍ ﷺ يوم القيامة-، يسمع أن بنتاً من عائلته خُطبت مثلاً، وأبوها لا يستطيع أن

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٠٣٦)، والترمذي في " سننه " (٢٣٤٣)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٢٦٥).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٦٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٥٥).

يُجهِّز هذه البنت -وكم من مثل هذا في زماننا-؛ فيتصل به يا فلان جهاز ابنتك عندي، ويرسل له جهازها كاملاً- وهذا يحدث ولله الحمد-، يصل إخوانه الفقراء، وأولى الناس به أهله وأقربائه وأحبابه وأولاده، فيبدأ بمن يعول، كما **عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رجلٌ: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك»**[(١)] ﷺ،

فمثل هذا الرجل يأتي يوم القيامة ولهم أجورٌ الله أعلم بها، فلا يمكن للعبد أن يتخيل الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى لذلك العبد الذي أنفق ماله يبتغي وجه الله،

ولذلك قال الحافظ ابن كثير: " ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله، عز وجلَّ، ولم يكن لأحدٍ عنده نعمةٌ يجزيه بها. "[(٢)]، حتى قال رسول الله ﷺ والحديث في الصحيح: **«مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ»**[(٣)]،

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٥٤٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٥٤٨) واللفظ له

(٢) ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٤)

(٣) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٦٦١)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٥٦٦١ -١٨٢٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني لن نستطيع أن نُوفِّي حق أبي بكرٍ،

بعض الناس تقف أمام أعماله العظيمة، وتقول لا أستطيع أن أوفيه إنما يوفيه الله، فتقول له جزاك الله خيراً، هذه التي أملكها لك، فأنت تملك له الدعاء، فهو سباقٌ إلى كل خيرٍ، ما من باب برٍ يعلمه، أو تدله عليه، فلا يتوانى أبداً، فمثل هذا الصنف عزيزٌ في هذه الأمة المباركة.

فلذلك ربنا تعالى يقول: ﴿**فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ هذا الأجر الكبير هو الجنة، هو رضوان الله عزَّ وجلَّ للعبد في الجنة، فأعظم نعيمٍ هو رضوان الله، كما قال الله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ ورضوانٌ من الله أكبر، أي رضوان الله أكبر من كل نعيمٍ في الجنة، اللهم ارض عنَّا جميعـًا يا رب العالمين، ولا تسخط علينا أبداً.

ثم مولانا يقول: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**﴾ ما المانع لكم من الإيمان يا قوم، ﴿**وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ**﴾ والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى الإيمان بالله تعالى، ﴿**وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ وصحَّ عن النبي ﷺ حديثٌ بمجموع طرقه، **عَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: أَيُّ الْخَلْقِ أَعْجَبُ إِيمَانًا؟ قَالُوا: الْمَلائِكَةُ، قَالَ: الْمَلائِكَةُ كَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ؟ قَالَ: النَّبِيُّونَ، قَالَ: النَّبِيُّونَ يُوحَى إِلَيْهِمْ فَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ؟ قَالُوا: الصَّحَابَةُ، قَالَ: الصَّحَابَةُ يَكُونُونَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ، فَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ، وَلكن أَعْجَبَ النَّاسِ إِيمَانًا: قَوْمٌ يجيؤون مِنْ**

بَعْدِكُمْ، فَيَجِدُونَ كِتَابًا مِنَ الْوَحْيِ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَتَّبِعُونَهُ، فَهُمْ أَعْجَبُ النَّاسِ، أَوِ الْخَلْقِ، إِيمَانًا. "(١)-نسأل الله أن يجعلنا منهم-، والمقصود بهؤلاء الذين تعجب منهم ﷺ الأمة المحمدية التي جائت بعد زمان الصحابة، فالله لا يحرم هذه الأمة الخير أبداً

الصحابة رضي الله عنهم هؤلاء هم سادات الأمة، وأفضل هذه الأمة وخيرها كلها، كما في الصحيحين، **عن عبد الله-ابن مسعودٍ- رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**"(٢)،

فمن جاء بعد القرون المفضلة الثلاثة، ينطبق عليهم هذا الحديث العظيم ، **عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْخَلْقِ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ، قَالَ وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالُوا: فَالنَّبِيُّونَ قَالَ وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟**

قَالُوا: فَنَحْنُ قَالَ: وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ أَعْجَبَ الْخَلْقِ إِلَيَّ إِيمَانًا لَقَوْمٌ يَكُونُونَ بَعْدَكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا فِيهَا كِتَابٌ يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا." وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ مَوْصُولًا. "(٣)،

---

(١) **(صحيح)** أخرجه البزار في " مسنده " (٧٢٩٤)، والبيهقي في " دلائل النبوة " (٦/ ٥٣٨)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٣٢١٥).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٦٥١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٥٣٣).

(٣) **(ضعيف)** أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة للبيهقي" (٦/ ٥٣٨)، وضعفه الألباني في "السلسلة

نحن ولله الحمد -وهذا من توفيق ربنا لنا- نؤمن بأن هذا القرآن كلام الله، تكلم الله به حقيقةً، ونؤمن بكل ما فيه؛ فنؤمن بكل خبرٍ وكل أمرٍ وكل نهيٍ، وكل حرفٍ وكل كلمةٍ، آمنا بما أنزل الله، ونؤمن بأن هذه سنة الرسول ﷺ، آمنا بها، ولم نر الرسول ﷺ، ولم نرى ربنا جلَّ جلاله، وآمنا بالله لأننا وجدنا خبراً عن الله عزَّ وجلَّ في كتابه، ووجدنا خبراً عن رسول الله ﷺ في سنته، أخبرنا عن الله جلَّ جلاله وعن صفاته الجليلة، وكما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ"[(١)] ، لذلك كان أعجب المؤمنين إيمانـًا قومٌ يجيئون بعد الصحابة، يجدون صحفـًا يؤمنون بها، فيؤمنون بأن هذا كلام الله، وهذه سنة رسول الله ﷺ، ويعملون بها ويرفعون راية الإسلام، هؤلاء أعجب المؤمنين إيمانـًا، وهذه بشرى للمؤمنين بعد الصحابة.

قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ**﴾ ذكر عددٌ من أهل العلم أنه مبايعة الصحابة للرسول ﷺ،

فالرسول ﷺ كان يبايع أصحابه؛ مثل بيعة العقبة، ومثل بيعة الرضوان؛ الذين بايعوا الرسول ﷺ على الموت، ومثل بيعة النساء[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا**﴾، ومثل البيعة -أيضـًا- التي

=الضعيفة" (٦٤٨).

(١) ذكره ابن قدامة في " لمعة الاعتقاد " ص (٧)

(٢) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١١).

قال عنها **عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ** رضي الله عنه: «**بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لاَ نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ**»(١).

وأما الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله إمام أهل التفسير فقد بيَّن أن قوله تعالى: وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ هذا الميثاق هو الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، وهم في صلب آدم، أن لا يشركوا بالله شيئاً، كما قال الله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾(٢).

﴿**وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ يعني إن كنتم تريدون الإيمان يوماً ما؛ فهذا رسول الله محمدٌ ﷺ دعاكم للإيمان فآمنوا خيراً لكم.

قال الله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩**﴾ تبيِّن هذه الآية أن الله جلَّ ذكره أنزل على عبده ورسوله محمدٍ ﷺ آياتٍ بيناتٍ، ودلائل واضحاتٍ، وبراهين قاطعاتٍ، أنزلها رب الأرض والسماوات على حبيبه ﷺ، تدل على وحدانية الله جل جلاله، وعلى صدق رسالة الله عز وجل.

آيات ومعجزات النبي محمد ﷺ:

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٨)، ومسلم في "صحيحه " (١٧٠٩).

(٢) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٨٩) وقد أخذ ميثاقكم، قيل: عني بذلك؛ وقد أخذ منكم ربكم ميثاقكم في صلب آدم، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، وأخرجه عن مجاهد.

١ - أعظم هذه الآيات كلها القرآن الكريم، الذي تحدى الله به الإنس والجن، وهذا التحدي كان ولازال وسيظل إلى يوم القيامة.

٢ - وكذلك من هذه الآيات العظيمة انشقاق القمر، ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر: ١].وقد جاء ذلك في الحديث **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** ﵁، «**أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ القَمَرَ شِقَّتَيْنِ، حَتَّى رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا**»[١]

٣ - وكذلك نَبْعُ الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ، لما كان في سفر، وأتي بركوة فيها ماء، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، **فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ** ﵄، **قَالَ: "عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ، فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: «مَا لَكُمْ؟» قَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلاَ نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، كَأَمْثَالِ العُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً."**[٢]

٤ - ومنه تسليم الحجر عليه ﷺ، **عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ** ﵁، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»**.[٣]

٥ - وأيضـًا حنين الجزع له ﷺ، **عَنِ ابْنِ عُمَرَ** ﵄، **"كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى**

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٨٦٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٠٢).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٥٧٦)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٥٦).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٢٧٧)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣١٧٠٥)، والترمذي في "سننه" (٣٦٢٤)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٨٢٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٤٨٢).

جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ المِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ."[(١)]

وكذلك سجود الغنم له ﷺ، **فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَال: " دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَائِطًا لِلأَنْصَارِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَرِجَالٌ مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ وَفِي الْحَائِطِ غَنَمٌ فَسَجَدَتْ لَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّجُودِ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْغَنَمِ فَقَالَ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدَ أَحَدٌ لأَحَدٍ وَلَو كَانَ يَنْبَغِي أَن يسجد أحد لحد لأمرت الْمَرْأَة أَن تسجد لزَوجهَا."**[(٢)]

وكذلك كلام الحيوان له، كما في قصة الجمل الذي شكا إلى النبي ﷺ أن صاحبه يدئبه في العمل، ويجيعه ولا يطعمه، **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا، أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟»، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: «أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا**

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٥٨٣)، والترمذي في "سننه" (٥٠٥)، والدارمي في "سننه" (٣١)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٥٠٦)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٥٥٦).

(٢) **(حسن)** أخرجه أبو نعيم في "دلائل النبوة " (٢٧٦)، والآجري في "الشريعة" (١٠٧٢)، والمقدسي في "المختارة" (٢١٢٩) إِسْنَاده حسن.

إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ»(١)، إلى غير ذلك من هذه الآيات العظيمة.

ربنا تعالى يقول: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ يعني آياتٍ واضحاتٍ،(٢) هذه الآيات ﴿**لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ أي بها يخرجكم رب العزة جل جلاله من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، فيعبد المرء ربه على بينة وعلى نور وهداية.(٣)

قال المراغي رَحِمَهُ اللَّهُ: " هو الذي ينزل على رسوله دلائل واضحاتٍ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، ولرأفته بكم مكّن لكم من النظر فى الأنفس والآفاق، لتهتدوا إلى معرفته على أتم وجهٍ، وأهون سبيلٍ."(٤)

وذلك لأن القرآن الكريم نورٌ مباركٌ، كما قال تعالى: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا**﴾ [التغابن: ٨]، فهو نورٌ يضيئ للعبد حياته، ويضيئ له عقيدته، ومعاملاته، وأخلاقه، ويضيئ له في قبره وعلى الصراط،كما في قوله ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا**﴾ [النساء: ١٧٤]، تبارك الله رب العالمين، وكذلك قوله تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ**

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٥٤٩)، وأحمد في "مسنده" (١٧٥٤)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب " (٢٢٦٩).

(٢) ذكره الشوكاني في "فتح القدير" (٥/ ٢٣٧).

(٣) أورده الألوسي في "روح المعاني" (٢٦/ ٤٠٧).

(٤) ذكره المراغي في "تفسيره" (٢٧/ ١٦٥).

الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله جل ذكره: ﴿**وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢]، فنسأل الله أن يهدينا بهداه.

يقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ أي: في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبه[١]، حيث نبهنا بالرسول والآيات، ولم يقتصر على ما نصب لنا من الحجج العقلية.[٢]

فمن رحمته ورأفته جلَّ جلاله -وهو أرحم بعباده من أمهاته- أنه أنزل هذه الآيات على رسوله ﷺ، وبعث رسوله ﷺ، ولم يترك الناس هملاً، فمن عظيم رحمة الله تعالى ورأفته بعباده أن بعث فيهم نبيهم ﷺ وأنزل عليه هذا الكتاب المبارك، وجعله الله تعالى نوراً، يُخرِج الله تعالى به من شاء من عباده من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وهنا ينبغي على كل داعية إلى الله عز وجل أن يذكر الناس بالآيات الواضحات، كقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾، وقوله ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ**﴾ [غافر: ١٣]، وقوله جل ذكره: ﴿**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الجاثية: ٦]، وقوله تعالى:

---

(١) أورده ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ١١).

(٢) أورده البيضاوي في "أنوار التنزيل" (٥/ ١٨٦).

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وأيضـاً ينبغي على العبد أن يتذكر قوله جل ذكره: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فالعبد يُذكِّر نفسه وإخوانه بنور القرآن الكريم، وبهذه الآيات البينات التي أنزلها الله جلَّ ذكره، ليستفيد وينتفع بها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ربنا جلَّ ذكره يقول: أنفقوا يا عباد الله، وما الذي يمنعكم أن تنفقوا في سبيل الله؟ لماذا لا تنفقون؟ أتخشون فقراً؟ أتخشون إقلالاً؟ فبعد أن وبخهم تعالى على ترك الإيمان، وبخهم على ترك الإنفاق، وأبان أنه لا معذرة لهم في ذلك.(١)

فكأنه تعالى يقول: أنفقوا ولا تخشوا من ذي العرش إقلالاً جلَّ جلاله، فإن الذي تنفقون في سبيله هو مالك السماوات والأرض، وبيده مقالدهما، وعنده خزائنهما، صدق الله حيث قال: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]، المقاليد يعني الخزائن، والمقاليد يعني المفاتيح، فربنا جلَّ جلاله عنده وبيده خزائن السماوات والأرض، فنسأل الله أن يفتح علينا من خزائن علمه وعافيته يا رب العالمين.

قال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ: " ولما كان قد أمرهم بالإيمان والإنفاق ، ثم ترك تأنيبهم على ترك الإيمان مع حصول موجبه ، أنبهم على ترك الإنفاق في سبيل الله مع قيام

---

(١) ذكره المراغي "تفسيره" (٢٧/ ١٦٥).

الداعي لذلك، وهو أنهم يموتون فيخلفونه . ونبه على هذا الموجب"[١]

فربنا تعالى يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠]، أي أنفقوا، ولا تَخشَوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السماوات والأرض، وبيده مقالدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى سبحانه جلَّ جلاله، وقد قال الكريم: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وكلمة شيءٍ هنا نكرةٌ، يعني أي شيءٍ تنفقه في سبيل الله قلَّ أو كثر، في السر أو في العلن، الله تعالى يخلفه عليك، وهو خير الرازقين سبحانه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفقةً واجبةً، أو مستحبةً، على قريبٍ، أو جارٍ، أو مسكينٍ، أو يتيمٍ، أو غير ذلك"[٢]

وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، ما عندك من أموالٍ يفنى وينفد، وما عند الله يبقى بكرمه ومنِّه تعالى.

ولذلك الله تعالى يخبر بهذه الآيات، ليزرع في قلب العبد اليقين والتوكل على الله، فإن من توكل على الله؛ أنفق ولم يخش إقلالاً من ربه سبحانه، متيقناً واثقاً في خلف الله تبارك وتعالى عليه.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ

---

(١) أورده أبو حيان في "البحر المحيط" (٨/ ٢١٨).

(٢) أورده السعدي في "تيسير الكريم الرحمن " (٦٨١).

أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، والفتح هنا المراد به فتح مكة عند جماهير العلماء.(١) وبعض السلف كالزهري والشعبي رحمهما الله قالوا بأن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية(٢)،

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "واختلف الناس في الْفَتْحِ المشار إليه في هذه الآية. فقال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والشعبي: هو فتح الحديبية. وقد تقدم في سورة «الفتح» تقرير كونه فتحـًا، ورفعه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية. وقال قتادة ومجاهد وزيد بن أسلم: هو فتح مكة الذي أزال الهجرة.

قال القاضي أبو محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا هو المشهور الذي قال فيه رسول الله ﷺ: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيةٌ". "(٣)

واختاره السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره، فقال " المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريشٍ مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارضٍ،

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٣٩٢) عن مجاهد وقتادة وزيد بن أسلم، والبغوي في "معالم التنزيل" (٨/ ٣٣) و ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ١٢) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ٢٤٠)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٦/ ٢٨).

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٣٩٣) عن الشعبي وأبي سعيد الخدري ورفعه.

(٣) ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٥٩)، وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ١٦٣).

فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجـًا، واعتز الإسلام عزاً عظيمـًا، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يُؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجةً وأجراً وثوابـًا ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح".[١]

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيل المراد بالفتح فتح مكة، وبه قال أكثر المفسرين، وقال الشعبي والزهري : فتح الحديبية، قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك وكذا قال مقاتل"[٢]

فالشاهد أن قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ**﴾ أي لا يستوي منكم من أنفق من قبل فتح مكة على رأي جماهير العلماء، ويدخل فيهم أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعمر وعثمان وأهل بدرٍ وأهل الحديبية، فهؤلاء تشملهم الآية لا شك.

قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، قيل : نزلت في أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣] ، إذ كان أول من أسلم وهاجر وأنفق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكذا من تابعه في

---

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (٨٣٨).

(٢) ذكره الرازي في "التفسير الكبير" (٥/ ٢٣٣).

(٣) أورده ابن الجوزي في "زاد المسير" (٨/ ١٦٣)، وينظر الواحدي في "أسباب النزول" (٤٠٦)

السبق في ذلك "[١]

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله، عز وجل، ولم يكن لأحدٍ عنده نعمةٌ يُجزيه بها."[٢]

ولذلك **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ».**[٣]

وأما الحديث **عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : كنت عند النبي - ﷺ - وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءةٌ قد خلها في صدره بخلالٍ ، فنزل جبريل فقال : مالي أرى أبا بكرٍ عليه عباءةً قد خلها في صدره بخلالٍ ؟ فقال: " أنفق ماله عليَّ قبل الفتح " قال: فإن الله يقول : اقرأ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقل له : أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخطٌ ؟ فقال رسول الله : " يا أبا بكر ، إن الله يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخطٌ ؟ " فقال: أبو بكر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أسخط على ربي عز وجل ؟ ! إني عن ربي**

=وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٣٣).

(١) ذكره أبو حيان في "البحر المحيط" (٨/ ٢١٨).

(٢) أورده ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ١٤).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٦٧٣)، ومسلم في "صحيحه" (٢٥٤١).

راضٍ".(١)، فهذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه .(٢)

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الحديد: ١٠]، فالله تبارك وتعالى سيرث هذا الملك كله، كما قال الله: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فالواجب على العباد أن يُكثروا من الاستغفار، ويُكثروا من الصدقة، فإن الصدقة تُطفئ غضب الرب جل جلاله، وكذلك صدقة السر تقي مصارع السوء. كما عند الطبراني **عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»**(٣)

فلذلك قال الله: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ**

---

(١) أخرجه ابن المقرئ في "معجمه" (١٦٦)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٧/ ١٠٥)، وابن شاهين في " شرح مذاهب أهل السنة " (١٢٤)، والبغوي في "معالم التنزيل" (٨/ ٣٤)، والثعلبي في "الكشف والبيان" (٢٦/ ٣٤).

(٢) قال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٤) هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه.، وقال ابن حبان في "المجروحين" (٢/ ١٨٥) فيه: العلاء بن عمرو شيخ يروي عن أبي إسحاق الفزاري العجائب لا يجوز الاحتجاج به بحال.، وقال الذهبي في "ميزان الاعتدال" (٣/ ١١٣) وهو كذب.

(٣) **(حسن)** أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٨٠١٤)، وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٨٨٩).

الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، وهذا فاصلٌ عظيمٌ بين السادة الكرام أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا قبل الفتح، والصحابة ممن أسلم بعد فتح مكة رضي الله عنهم وأرضاهم.

قال الرازي رحمه الله: "واعلم أن الآية دلت على أن من صدر عنه الإنفاق في سبيل الله والقتال مع أعداء الله قبل الفتح يكون أعظم حالاً ممن صدر عنه هذان الأمران بعد الفتح"(١)

قال عطاء رحمه الله: "درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها"(٢)، وقال مقاتل بن حبان رحمه الله: "يقول كانت نفقتهم وجهادهم مع النبي - ﷺ- أعظم أجرًا ودرجاتٍ من درجات من أنفق وقاتل بعد الفتح؛ فتح مكة"(٣)

وقال القاسمي رحمه الله: "في الآية دليلٌ على أن للصحابة مراتب، وأن الفضل للسابق، وعلى تنزيل الناس منازلهم، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين، لأن الأجر على قدر النصب. "(٤)

وروى ابن جريرٍ الطبري رحمه الله **عن أبي سعيد الخدريّ، قال، قال لنا رسول الله ﷺ عام الحديبية: " يُوشكُ أنْ يأتي قَوْمٌ تَحْقِرُونَ أعمالَكُمْ مَعَ أعمالِهِمْ، قلنا: من هم يا**

---

(١) أورده الرازي في "التفسير الكبير" (١٩/ ١٩١).

(٢) أورده البغوي في "معالم التنزيل" (٨/ ٣٤).

(٣) ذكره الواحدي في "البسيط" (٢١/ ٢٨١).

(٤) ذكره القاسمي في "محاسن التأويل" (٩/ ١٤٣) وفي (الإكليل).

رسول الله، أقريش هم؟ قال: لا وَلَكنْ أهْلُ اليمَن أرَقُّ أفْئِدَةً وألْيَنُ قُلُوبا، فقلنا: هم خير منا يا رسول الله، فقال: لَوْ كانَ لأحَدَهِمْ جَبَلٌ مِنْ ذَهَب فأنْفَقَهُ ما أدْرَكَ مُدّ أحَدِكُمْ وَ لا نَصيفَهُ، ألا إنَّ هَذَا فَصْلُ ما بَيْنَنَا وَبَينَ النَّاس، ﴿لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ ... الآية، إلى قوله: ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ ".(١)

وقفةٌ: هذه الآية العظيمة تدلل على فضل السابقين بالإيمان، وربنا تعالى في هذه الآية يدلل لنا على أنه يجب أن نُنزل الناس منازلهم، ﴿ **لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ**﴾ فالعبد الذي آمن وترك المعاصي وترك الشرك بالله، وسبق إلى الله عز وجل، لا يستوي مع من تأخر عنه، وكذلك الإنسان في هذا الزمان إذا تاب إلى الله تعالى، وأقلع عن المعاصي، وأقبل على كتاب الله وسنة رسول الله؛ ليتعلم ويتفقه، ويجالس العلماء، وقد سبق إخوانه بعشر سنواتٍ، أو بخمس سنواتٍ؛ فلا شك أن هذا له مكانةٌ، وله منزلةٌ، ولا بد أن يعي العبد -دونه- هذه المكانة وهذه المنزلة، ولهذا ورد **عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا».**(٢)

---

(١) **(حسن)** أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٣٩٤)، وحسنه الشيخ مصطفى العدوي في "التسهيل لتأويل التنزيل" -تفسير جزء الذاريات (٥٣٥).

(٢) **(صحيح)** أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٣٥٥)، وأبو داود في "سننه" (٤٩٤٣)، وأحمد في "مسنده" (٦٧٣٣)، وهناد بن السري في "الزهد" (٢/ ٦١٥)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٠٠).

وعَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَا وَصَاحِبٌ لِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا الْإِقْفَالَ مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ لَنَا: «إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَأَذِّنَا، ثُمَّ أَقِيمَا، وَلْيَؤُمَّكُمَا أَكْبَرُكُمَا».[١]

وقال مالك رَحِمَهُ اللهُ: يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حالته حسنةٌ، وإن للسن حقاً[٢]

وهكذا قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ، قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: "لأن الإمامة منزلة اتباعٍ واقتداءٍ، فاقتضى أن يكون متحملها كامل الأوصاف المعتبرة فيها، فإن لم تجتمع في واحدٍ فأحقهم بالإمامة من اختص بأفضلها، وأولها الفقه والقراءة أولى بالإمامة، وأحق بالتقدم من الشرف والسن والهجرة....

ثم قال: والقول الثاني قاله في الجديد: إن المسن أولى من ذي النسب لرواية **مالك عن الحويرث أن النبي - ﷺ - قال للرجلين اللذين أتياه أذنا وأقيما وليؤمكما أكبركما**" وقال ﷺ: " **الشيب وقارٌ وإن الله تبارك وتعالى يقول: إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام أن أعذبهما بالنار ولأن المسن أسكن نفساً وأكثر خشوعاً لكثرة صلاته وقلة شهواته، فإن استوت أحوالهم واتفقت أصواتهم فهم في الإمامة سواء**"[٣]

وكذلك أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، قال البدر العيني رَحِمَهُ اللهُ: "فإن تساووا في القراءة والعلم

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٣٠)، ومسلم في "صحيحه" (٦٧٤).

(٢) ينظر "المدونة" (١/ ١٧٦).

(٣) الماوردي في "الحاوي الكبير" (٢/ ٣٥٢) وينظر "نهاية المحتاج" للرملي (٢/ ١٨٢)، و"مغني المحتاج" للخطيب الشربيني (١/ ٤٨٧).

والورع فأسنهم أولى بالإمامة[١]"، وقال الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولو كان للميت وليان في درجة واحدة فأكبرهما سنا أولى؛ لأن النبي - ﷺ - أمر بتقديم الأسن في الصلاة، ولهما أن يقدما غيرهما ولو قدم كل واحدٍ منهما رجلاً على حدةٍ، فالذي قدمه الأكبر أولى، وليس لأحدهما أن يقدم إنساناً إلا بإذن الآخر؛ لأن الولاية ثابتةٌ لهما إلا أنّا قدمنا الأسن لسنه."[٢]، وقال النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأعلم أحقّ بالإمامة ثمّ الأقرأ ثمّ الأورع ثمّ الأسنّ"[٣]

وذهب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من العلماء؛ أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال ﷺ: **الولاء للكبر**[٤] ولم يعن كبر السن.

وقال جماهير أهل العلم: إذا اجتمع العلم والسن في خيرين قُدِّم العلم، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما تقديم الأفاضل والكبار فهوعند التساوي في باقي الأوصاف؛ ولهذا يقدم الأعلم والأقرأ على الأسن النسيب في الإمامة في الصلاة "[٥]، وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: "ولا خلاف في تقديم الأعلم والأقرأ على سائر الناس،

---

(١) أورده العيني في " البناية شرح الهداية " (٢/ ٣٣١).

(٢) ذكره الكاساني في " بدائع الصنائع " (١/ ٣١٧).

(٣) ذكره النسفي في " كنز الدقائق " (١٦٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣١٥٥٩)، والدارمي في "سننه" (٣٠٦٥)، وسعيد بن منصور في "سننه" (٢٦٧)، والبيهقي في "الكبرى" (٢١٤٩٣) موقوفا على عُمَرَ، وَعَلِيٍّ، وَزَيْدٍ وَعُثْمَانَ وابن مسعود.

(٥) ذكره النووي في "شرح صحيح مسلم" (١٣/ ٢٠٠).

ولو كان في القوم من هو أفضل منه في الورع والسن وسائر الأوصاف.(١)"

وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين، فمن قدم في الدين قدم في الدنيا.(٢) وفي الحديث، **عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»**(٣) ومن الحديث الثابت في الأفراد، **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ»**.(٤)

قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾، أي أن الله تبارك وتعالى تحرَّز في هذه الآية حتى لا يظن أحدٌ أن من أسلم بعد الفتح ليس فيه خيرٌ، ولكن الله جل ذكره أخبر أن الجميع أعدَّ لهم جناتٍ ونهراً، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ،

وأيضا مما يدلك على هذا قوله تعالى: ﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ**

---

(١) ينظر "الموسوعة الفقهية الكويتية" (٦/ ٢٠٧).

(٢) القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠/ ٢٤٢)، وينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤/ ١٧٩).

(٣) **(حسن)** أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٢٧٥٥)، والشاشي في "مسنده" (١٢٧٣)، والطبراني في "مكارم الأخلاق" (١٤٧)، وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (١٠١).

(٤) **(ضعيف)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٠٢٢)، والطبراني في "الأوسط" (٥٩٠٣)، والبيهقي في "الآداب" (٣٨)، ضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٥٠١٢).

إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، وقوله: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ خبيرٌ بأعمال عباده سبحانه.(١)

ثم يقول الله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فربنا جلَّ جلاله يضاعف أعمال العباد في أصل أعمالها إلى عشر حسناتٍ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وجاءت أدلةٌ بالتضعيف إلى سبعمائة ضعفٍ، مثل قول الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ».(٢)

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي

(١) أورده السعدي في" تيسير الكريم الرحمن " (٨٣٨).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤١٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٠١٤).

الْجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: " فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَهَا مِرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ. أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا"(١)

كيف يكون القرض حسناً؟

قد فسره بعضهم بقوله: والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس، يبتغي به وجه الله دون الرياء والسمعة، وأن يكون من الحلال، ومن أطيب مال، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وأن يتصدق وهو صحيحٌ يأمل الغنى، كما **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: " أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ".**(٢)

وأيضا يخفي الصدقة ما استطاع لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده" (١٢٤٨٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٧١٥٩)، والحاكم في "المستدرك" (٢١٩٤)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٣٣٤)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٩٦٤).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٤٨)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٣٢).

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ويحذر المنَّ، قال الله: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾** [البقرة: ٢٦٤].

وأن يستحقر كل ما يُعطي، لأن الدنيا قليلةٌ في جنب الله سبحانه.

وأن تكون النفقة من أحب أمواله إليه **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** [آل عمران: ٩٢]

وأن يكون المال كثيراً ما استطاع، **فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ»، قُلْتُ: فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَعْلاَهَا ثَمَنًا، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ ضَايِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ»،: قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ»**". (١)

قال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقال أهل العلم: القرض الحسن أن يجمع أوصافًا عشرة وهي: أن تكون من الحلال، وأن تكون من أكرم ما تملكه دون أن تقصد إلى الرديء للإنفاق. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ وأن تتصدق به وأنت تحبه وتحتاج إليه، بأن ترجو الحياة، وأن تضعه في الأخل الأحوج الأولى بأخذه، ولذلك خص الله تعالى أقوامًا بأخذ الصدقات وهم أهل السهمان. وأن تكتمه ما أمكن؛ لأن الله تعالى قال: **﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٥١٨)، ومسلم في "صحيحه" (٨٤).

وأن لا تتبعه منًّا وأذىً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾

وأن تقصد به وجه الله ولا ترائي بذلك؛ لأن المرائي مذمومٌ على لسان الشرع.

وأن تستحقرها، تعطي وإن كثر؛ لأن ذلك قليلٌ والدنيا كلها قليلةٌ.

وأن تكون من أحب مالك إليك، قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فهذه أوصاف عشرة إذا استكمَلَتها الصدقة كانت قرضًا حسنًا إن شاء الله"(١)

يقول تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فيضاعف له أضعافا لا يعلم مداها إلا الله، وله أجر عظيم ألا وهو الجنة، نسأل الله من فضله.

وقال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ -مبينـاً الأقوال-: فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أن القرض الحسن هو أن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله والله أكبر، رواه سفيان عن ابن حيان.

الثاني: أنه النفقة على الأهل، قاله زيد بن أسلم.

الثالث: أنه التطوع بالعبادات، قاله الحسن.

---

(١) ذكره الواحدي في "التفسير البسيط" (٢١/ ٣٨٣)، وينظر القشيري في "لطائف الإشارات" (٣/ ٥٣٦). وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ٢٤٤) وينظر "التفسير الوسي" (٤/ ٢٤٧)، و"التفسير الكبير" للرازي (٢٩/ ١٩٣).

الرابع: أنه عمل الخير، والعرب تقول لي عند فلانٍ قرض صدقٍ أو قرض سوءٍ إذا فعل به خيراً أو شراً

الخامس: أنه النفقة في سبيل الله قاله مقاتل بن حيان" (١)

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرجحـاً: "والصحيح أنه أعمُّ من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنيةٍ خالصةٍ وعزيمةٍ صادقةٍ، دخل في عموم هذه الآية؛ ولهذا قال: ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ**﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ **أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾**﴾ أي: جزاءٌ جميلٌ ورزقٌ باهرٌ -وهو الجنة- يوم القيامة. "(٢)

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم

(١) أورده الماوردي في "النكت والعيون" (٥/ ٤٧٢).

(٢) ذكره ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ١٤).

﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

للمتدبر أن ينتبه أن الله تعالى قال في الآية السابقة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴿١١﴾﴾ ثم قال: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ يعني أن الله تعالى يخبر عن المؤمنين المتصدقين المنفقين، أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم إلى عرصات القيامة بحسب أعمالهم، -نسأل الله أن يُعظم نورنا يا رب العالمين-.

عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «يُؤْتَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ كَالنَّخْلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ كَالرَّجُلِ الْقَائِمِ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا عَلَى إِبهَامِهِ يُطْفَأُ مَرَّةً وَيَقِدُ مَرَّةً»(١)

وهذا يدل على أن الله فاوت بين العباد في الآخرة؛ وذلك ليعلم العبد يقيناً أن التفاوت في الآخرة على قدر التفاوت في الدنيا، يُعطى المؤمن نوراً يوم القيامة يعبر به على الصراط في ظلماتٍ حالكةٍ -نسأل الله أن يسترنا في الدنيا والآخرة-، هذا النور الذي يُكرَم العبد به يوم القيامة في عرصاتها، هذا النور على قدر إيمانه ويقينه وعمله في الحياة الدنيا، الناس متفاوتون في الدنيا في الإقبال على الله، والمسارعة لأمره، والاستجابة لداعي الله عزَّ وجلَّ، وفي تعظيم حرمات الله، فعلى قدر إقبال العبد على

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصفنه" (٣٤٥٥٨)، والحاكم في "المستدرك" (٣٧٨٥)، والطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٩٨).

ربه، ومسارعته في طاعته، واجتنابه ما حرَّم الله عليه، على قدر ما يُعظم الله له النور، فكلما كان إقبال العبد أكثر وأكبر، كلما كان نوره أعظم، ولذلك ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما قال منهم من نوره مثل الجبل، نورٌ عظيمٌ لأنه سابقٌ في الخيرات ومسارعٌ إليها، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرةً ويُطفئ مرةً.

وعَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللهُ، قَوْلَهُ: ﴿**يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ**﴾ الْآيَةَ، **ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُضِيءُ نُورُهُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى عَدَنَ أَبْيَنَ فَصَنْعَاءَ فَدُونَ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُضِيءُ نُورُهُ إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ»**".[(١)]

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ، عن حصين، عن مجاهد عن جنادة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم، وسيماكم وحلاكم، ونجواكم ومجالسكم، فإذا كان يوم القيامة قيل: يا فلان، هذا نورك. يا فلان، لا نور لك. وقرأ: ﴿**يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾"[(٢)]، وهذا الذي لا نور له، أو نوره في إبهامه يُوقد مرةً ويُطفئ مرةً، هذا لأنه لم يكن مسارعـاً في الخيرات -نسأل الله اللطف والسلامة-.

وقال الضحاك رَحِمَهُ اللهُ: "ليس لأحدٍ إلا يُعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يُطفأ نورهم كما طُفئ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٣١٥٦)، والطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٩٨).

(٢) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٥).

نور المنافقين، فقالوا: ربنا، أتمم لنا نورنا."[١]

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾يعني: على الصراط."[٢]

والضحاك قال: يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم أي وبأيمانهم كتبهم[٣]، وهذا اختاره الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إمام أهل التفسير قال يسعى نورهم بين أيديهم على الصراط، وبأيمانهم كتبهم، يعني أخذوا كتبهم بأيمانهم، وهذا عنوان الكرامة، ثم يسعى نور أعمالهم بين أيديهم يضئ لهم ظلمات الصراط، اللهم اجعلنا منهم يا رب العرش العظيم أنت الكريم جلَّ جلالك.[٤]

---

(١) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥٣١٧)، وينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ١٥).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٩٨) عن الضحاك، وينظر "التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٢٤٨)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٦/ ٤٠).

(٤) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " جامع البيان " (٢٢/ ٣٩٨): "وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرناه عن الضحاك، وذلك أنه لو عنى بذلك النور الضوء المعروف، لم يخص عنه الخبر بالسعي بين الأيدي والأيمان دون الشمائل، لأن ضياء المؤمنين الذي يؤتونه في الآخرة يضيء لهم جميع ما حولهم، وفي خصوص الله جل ثناؤه الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم دون الشمائل، ما يدل على أنه معني به غير الضياء، وإن كانوا لا يخلون من الضياء فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا: وكلا وعد الله الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات

و ثبت عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسندٍ حسنٍ، فيما رُوي عن سليم بن عامرٍ قال: خرجنا على جنازةٍ في باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزلٍ تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزلٍ آخر، وهو هذا -يشير إلى القبر- بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمرٌ من الله، فتبيض وجوهٌ وتسود وجوهٌ، ثم تنتقلون منه إلى منزلٍ آخر فتغشى الناس ظلمةٌ شديدةٌ، ثم يُقسَّم النورُ فيُعطى المؤمن نوراً ويُترك الكافر والمنافق فلا يُعطَيَان شيئًا، وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه، قال: ﴿**أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ**﴾ ، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿**ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا**﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿**يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ**﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قُسِّم فيه النور، فلا يجدون شيئًا فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسورٍ له بابٌ، ﴿**بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ**﴾"[1]،

=يسعى ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم تتطاير.

(١) أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (٢/ ١٠٨)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (١٠١٥)، والحاكم في "المستدرك" (٣٥١١)، وينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ١٦).

والقبر -فعلاً- "بيت الوحدة"؛ فلا زوجةٌ تكون مع العبد، ولا ابنٌ، ولا أبٌ، ولا أخٌ حبيبٌ، ولا شيءٌ، وليس معه إلا عمله، هو الملازم له في قبره إن خيراً أو شراً، فهو بيت الوحدة،

وهو كذلك "بيت الظلمة"، كما رُوي عن أبي هريرة، أن امرأةً سوداء كانت تَقُمُّ المسجد - أو شابـًا - ففقدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها -أو عنه - فقالوا: مات، قال: «أفلا كنتم آذنتموني» قال: فكأنهم صغروا أمرها -أو أمره - فقال: «دلوني على قبره» فدلوه، فصلى عليها، ثم قال: «إن هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً على أهلها، وإن الله عز وجلَّ ينورها لهم بصلاتي عليهم»[(١)]،

فمن الناس من قبره مليءٌ بالخيرات والنور والبركات، ومن الناس من قبره ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ، فهو بيت الظلمة، "وبيت الدود"،

"وبيت الضيق"؛ فيضيق القبر على العبد حتى تختلف أضلاعه، أما العبد الصالح فيُفسح له في قبره مدَّ بصره إلى ما وسع الله، فالقبر يضيق إلا ما شاء الله أن يُوسِّع عليه،

"تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة"، فالعبد ليس مخلداً في القبر، بل القبر برزخٌ بين دار الدنيا ودار الآخرة، نسأل الله العافية.

فلذلك ينبغي على العبد أن يستعد لذلك، كما رُوي **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: " اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ،**

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٩٥٦)، وابن حبان في " صحيحه " (٣٠٨٦).

وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"[١]، ولا يركن لهذه الدنيا، فما دامت الدنيا لعبدٍ من العباد أبداً، ولو كانت بقيت لأحدٍ لبقيت لرسول الله ﷺ، فلا تبقى الدنيا على حالٍ، والسعيد الذي يأخذ فعلاً من صحته لمرضه، ويأخذ من غناه لفقره، فيُقدِّم عملاً صالحـًا يجده بين يدي ربه ومولاه.

قال سليم بن عامر" فما يزال المنافق مغتراً حتى يُقسَّم النور، ويميز بين والمؤمن المنافق"[٢] نسأل الله العافية،

المنافقون كثرٌ- لا كثَّرهم الله-، تجدهم يتكلمون في أذية الإسلام وأهله، وفي إلحاق السوء بالمسلمين، ولا تُكتم أصواتُهم حتى يأتي هذا اليوم العظيم، وإذا بهم يُخدَعون خِدعةً عظيمةً، جزاءً وفاقـًا لخداعهم أهل الإيمان في الحياة الدنيا.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَوْلَهُ: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ**﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: " بَيْنَمَا النَّاسُ فِي ظُلْمَةٍ، إِذْ بَعَثَ اللهُ نُورًا؛ فَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ النُّورَ تَوَجَّهُوا نَحْوَهُ، وَكَانَ النُّورُ دَلِيلًا مِنَ اللهِ إِلَى الْجَنَّةِ؛ فَلَمَّا رَأَى الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَدِ انْطَلَقُوا، تَبِعُوهُمْ، فَأَظْلَمَ اللهُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، فَقَالُوا حِينَئِذٍ:

---

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي الدنيا في " قصر الدنيا " (١١١)، والحاكم في " المستدرك " (٧٨٤٦)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (٩٧٦٧)، وصححه الألباني في" صحيح الجامع " (١٠٧٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٨٨٢١)، وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٧).

انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا؛ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: ارْجِعُوا مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ، فَالْتَمِسُوا هُنَالِكَ النُّورَ"[(١)] يعني ذاك العبد الذي يُضيء نوره له فهذا – إن شاء الله– دليله إلى الجنان– نسأل الله من فضله–.

﴿**يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ**﴾ يعني بشراكم يا معشر المؤمنين، وهنيئًا لكم هذه البشرى العظيمة من الله، ﴿**جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ**﴾ في الجنة أنهارٌ كثيرةٌ، أنهارٌ من خمرٍ، أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ، أنهارٌ من عسلٍ مصفىً، أنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه، وفيها النيل والفرات، وفيها سيحان وجيحان، وهي أنهارٌ عظيمةٌ، وفيها الكوثر، وفيها حوض الرسول ﷺ،– نسأل الله الكريم أن يجعلنا من سادات عباده، ومن سادات أوليائه–.

﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ**﴾ خالدين فيها أي ماكثين في هذا النعيم أبد الآباد، لا انقطاع لها، لا يبغون عنها حولاً، ولا يخافون أن يخرجوا، فهم آمنون، وهم في نعيمٍ دائمٍ أبداً،

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤٠١)، والبيهقي في "البعث والنشور" (٤٢٧).

الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾"(١)، اللهم اجعلنا خالدين في النعيم المقيم يا رب العالمين، وربنا كريمٌ يجبر خاطر الضعفاء والمساكين، فإن علم الله حب عبده له، واستجابته لأمره، ومسارعته في طاعته، واجتنابه ما حرم الله عليه، فالله يُعظم له أجره، ويُعظم له نوره يوم القيامة، ويقبل الحسنات ويتجاوز عن السيئات سبحانه.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ انظرونا أي انتظرونا، وهذا والله بلاءٌ عظيمٌ يَحلُّ على المنافقين،

وقفةٌ: للعبد أن يتخيل هذه الصورة القرآنية؛ أن المؤمنين والمنافقين معهم، الكل مشى ومعه نورٌ، والمنافقون قد أخذوا نوراً في جملة المؤمنين، وإذا بهم يرون أعداداً هائلةً من المؤمنين قد مروا أمامهم بنورهم على الصراط، والناس أمامهم يمرون؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح المرسلة، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل وغير ذلك(٢)- ولا تتخيل الصراط أنه شيءٌ يسيرٌ، بل نار جهنم تحته، وهو صراطٌ دقيقٌ، و الكل لا بد أن يمرَّ عليه-، ولما جاء المنافقون ووصلوا إلى الصراط وأرادوا أن يعبروا، إذا بنورهم يُطفئ ، فيقفون في حيرةٍ شديدةٍ، وفي ظلمةٍ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٧٣٠)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٤٩).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١١٢٧)، ومسلم في "صحيحه " (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه **"فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم"**

عظيمةٍ، فعندها ينادي المنافقون أهلَ الإيمان الذين كانوا يعرفونهم في الدنيا، ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ سبحان الله، يا فلان يا فلان انتظرونا ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ انتظرونا لعلنا نعبر الصراط في نوركم، لعلنا نمر ونمضي على الصراط في النور الذي معكم، ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ أي انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ﴾ نأخذ ﴿مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ ارجعوا إلى أرض المحشر لعلكم تجدون نوراً تأخذونه، أو ارجعوا إلى الحياة الدنيا لو كنتم تستطيعون فتعملون عملاً صالحاً تأخذون به نوراً، وهذه بليةٌ عظيمةٌ تَحلُّ على هؤلاء المنافقين، نسأل الله العافية.

قال الله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ يمتثلون لخدعة المؤمنين لهم فيرجعون إلى أرض المحشر لعلهم يأخذون نوراً، فيجدون الحسرة والندامة والألم، حينها يرجعون إلى الصراط، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ﴾، هذا السور حاجزٌ بين أهل الجنان وبين أهل النيران، كما قال ربنا تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ فهذا السور كما قال الحسن وقتادة حائطٌ بين الجنة والنار، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ من قبل أهل الجنة، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ١٣﴾ من قبل أهل النار، نعوذ بالله عزَّ وجلَّ من عذابه.(١)

وهنا قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد قيل أن ذلك السور هو سور بيت المقدس، عند

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في " جامع البيان " (٢٢/ ٤٠١) يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَضَرَبَ اللهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِسُورٍ، وَهُوَ حَاجِزٌ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وأخرجه عن مجاهد وقتادة وابن زيد.

وادي جهنم، ثم قال وساق بسنده عن أبي العوام مؤذن بيت المقدس، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ يقول: إن السور الذي ذكره الله في القرآن: فضرب بينهم بسور له باب هو السور الشرقي، باطنه المسجد الأقصى وما يليه، وظاهره وادي جهنم، ثم روى ابن جرير عن عبادة ابن الصامت وكعب الأحبار وعلي بن الحسين زين العابدين، نحو ذلك[١]،

قال الحافظ ابن كثير ﵀ " وهذا محمولٌ منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك، لا أن هذا هو الذي أُريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم؛ فإن الجنة في السموات في أعلى عليين، والنار في الدركات أسفل سافلين. "[٢]

أراد ابن كثيرٍ ﵀، أن بعض السلف ممن ذكرنا؛ مثل عبادة بن الصامت وعبد الله ابن عمرو ﵃ من الصحابة، وكعب الأحبار، وزين العابدين علي بن الحسين، كانوا يمثلون للناس السور بسور المسجد الأقصى، والوادي بوادٍ قريبٌ بجوار المسجد الأقصى يقال له وادي جهنم، فيقال لهم هذا سورٌ فاصلٌ بين أهل الإيمان وأهل النيران، وليس هذا بعينه وإنما أرادوا تقريب المعنى للناس، فضربوا لهم مثلاً .

(١) قال الطبري ﵀ في "جامع البيان" (٢٢/ ٤٠٢) وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ السُّورَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ عِنْدَ وَادِي جَهَنَّمَ وأخرجه عن ابن عباس وعبادة بن الصامت وعبدالله بن عمرو بن العاص وكعب نحوه ﵃.

(٢) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٨).

ولكن قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقول كعب الأحبار: إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد، فهذا من إسرائيلياته وترهاته. وإنما المراد بذلك: سورٌ يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفرٍ وجهلٍ وشكٍ وحيرةٍ"[١] نسأل الله العافية، اللهم اجعلنا من المؤمنين الصادقين.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين، يا فلان ألم أكن معك في الدنيا، ألم نكن معكم يا فلان ويا فلان، ألم نكن معكم في الحياة الدنيا، نصلي معكم الجماعات، ونشهد معكم الجُمُعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر الغزوات، -فقد كان المنافقون في زمان الرسول يجاهدون، وكانوا يصلون الجماعة، وينفقون أموالهم، سبحانك ربي ما أعظمك!- ونؤدي معكم سائر الواجبات ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين لهم بلى قد كنتم معنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال بعض السلف الصالح فتنتم أنفسكم باللذات والشهوات والمعاصي[٢]، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ التربص هو التأخر، تربصتم أي أَخَّرتم التوبة[٣]، وأيضـًا

---

(١) المصدر السابق

(٢) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٨).

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٨) ﴿وَتَرَبَّصْتُم﴾ أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت، وينظر "بحر العلوم" للسمرقندي (٣/ ٤٠٥).

وتربصتم أي تربصتم بحلول البلاء على أهل الإيمان– والعياذ بالله – ، وعن قتادة قال «تَرَبَّصُوا بِالْحَقِّ وَأَهْلِهِ»(١)،

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم في البعث بعد الموت، أي ما كان عندكم يقينٌ في البعث بعد الموت، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ يعني عندهم أماني عظيمةٌ؛ وذلك بقولهم: سيغفر لنا(٢) ، كما قال الله تعالى جلَّ جلاله: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾

وقفةٌ: فليحذر العبد الأماني، لأن الشيطان يزين للإنسان الوقوع في الحرام، والوقوع في معصية الرحمن ويزين له أن يُقصِّر في الواجب، ويقول: ربنا ربٌ غفورٌ رحيمٌ، وهذا لا شك فيه ؛ فلا شك أن الله غفورٌ رحيمٌ، ولكن على العبد أن يُؤدي أمر سيده، ويجتنب ما حرم عليه مولاه، ويسارع في الطاعات، ويرجو عفو الله عنه بعد ذلك، أما أن يجلس بلا عملٍ وينتهك الحرام، ويقول ربنا ربٌ غفورٌ؛ فلا شك أن هذا من الأماني التي قال الله عنها: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان " (٢٢/ ٤٠٥)، وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ٢٧٤).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٨) ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: قلتم: سيغفر لنا.

إذن لا بد لنا من العمل حتى ننجو بفضل الله تعالى، ولذلك قال قتادة كانوا -أي المنافقين- على خدعةٍ من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار"[١]، -نعوذ بالله، ونسأل الله العافية والسلامة-.

لذلك الواجب على العبد أن يكون عاقلاً، كَيِّساً فَطِناً متنبها لدينه، حريصاً على مرضاة ربه ومولاه، فلا يكون عنده كسلٌ في مرضاة الله، ولا جريئاً على انتهاك ما حرم الله جلَّ جلاله، بل الواجب على العبد أن يكون مسارعاً في الخيرات ما استطاع، وكذلك مجتنباً للمحرمات ما استطاع وقدر على ذلك.

ربنا جلَّ جلاله يقول: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي جائكم الموت وأنتم على هذه الأماني[٢]، وأيضاً ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ١٤﴾ الشيطان الرجيم، غركم فجعلكم تقعون في الحرام، ولذلك العاقل الذي يجاهد نفسه لله، ولا يتبع خطوات الشيطان، لأن الشيطان ينقله من معصيةٍ إلى معصيةٍ أكبر منها وهكذا، حتى يخسر المرء دينه -نسأل الله العافية والسلامة-، وقال ربنا تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٤٠٦)، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٣٦)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢١/ ٢٩٠).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما زلتم في هذا حتى جاء الموت.

مولانا جلَّ جلاله قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ١٥﴾ وهذه هي الحسرة العظيمة، فيوم القيامة عندما يُطفئ نورهم ويرون أنهم قد ذهبت أعمالهم هباءً منثوراً، ولا أجر لها، ولا بقاء لحسنةٍ واحدةٍ من أعمالهم، يتمنون لو أنهم كانت لهم الدنيا بأسرها، يفتدون بها، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ يعني وإن دفعت أي فديةٍ مهما دفعت لا يُقبل منها، وقال الله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ١١ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ١٣ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ وقال تعالى: وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ نسأل الله العافية.

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، **عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: " يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك – أحسبه قال: ولا أدخلك النار – فأبيت إلا الشرك "**[1] نعوذ بالله من الخذلان، ونسأل الله العافية والسلامة.

وهذا الأمر العظيم الذي أخبرنا الله تعالى به، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٣٤)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٠٥).

مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ المنافقون نفاق اعتقادٍ هم كفارٌ، لا يؤخذ منهم فديةٌ يفتدون بها، فإذا كان المرء يوم القيامة يتمنى أن لو له الدنيا لافتدى بها، ولعله في الدنيا أكل حرامـًا، وأكل رشوةً، وأكل أموال الناس بالباطل، ووقع في الزنا، وأشرك مع الرحمن، وفعل وفعل،

فنحن الآن في مهلةٍ طيبةٍ، وفي عافيةٍ -ولله الحمد-، فالعبد يفتدي نفسه الآن، ويشتري نفسه من ربه، فيحذر أن يأكل الحرام، بل يحذر الحرام كله، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **"أيُّما لحمٍ نبت من سحتٍ فالنارُ أولى به"**(١)

فما الذي يدفع العبد أن يُؤَخِّر أمر الله؟ حتى إذا جاء يوم القيامة تمنى أن لو كانت له الدنيا بأسرها، لافتدى بها!، فالأمر هيِّنٌ الآن بالنسبة للعبد، أن يحجب نفسه عن ما حرم الله، وأن يسارع في طاعته، أن يُخرج من ماله شيئـًا يسيراً مما يسر الله له، فيفدي نفسه بماله، ويفدي أهله وأحبابه ما استطاع، فلا يُؤخر العبد أمره حتى إذا جاء ولقى الله عزَّ وجلَّ ، يكون يومـًا عسيراً عليه نسأل الله العافية،

﴿**مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ**﴾ مصيركم إلى النار يا أيها المنافقون والعياذ بالله ﴿**هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ**﴾ الذي تصيرون إليه.

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٦١٤)، وابن حبان في "صحيحه " (٥٥٦٧)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب" (١٧٢٩) **عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ** ﵁، **قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُعِيذُكَ بِاللهِ يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ مِنْ أُمَرَاءَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي** وفيه: **يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»**

﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾

ثم ذكر الله هذه الآية التي تخلع قلوب أهل الإيمان، لو عقلوا عن الله أمره، ، فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ مولانا يعاتب عباده، يعاتب أهل الإيمان، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما " أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنةً من نزول القرآن".[١]

بل صح عن عون بن عبد الله، عن أبيه، أن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: " ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين "[٢]،

وقفةٌ: أربع سنواتٍ مرت عليهم في الإسلام، ومولانا الجليل يعاتبهم ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ ونحن ولا حول ولا قوة إلا بالله، يمر علينا أربع ثم أربع إلى أن يصيروا أربعين، أربعون عاما تمر على العبد وما لان قلبه، هذه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في "التفسير" (١٠/ ٣٣٣٨)، وذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٥/ ٤٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٣٠٢٧)، والنسائي في " الكبرى " (١١٥٠٤)، والحاكم في " المستدرك " (٣٧٨٧).

مصيبةٌ عظيمةٌ، وجب على العبد منا أن يأخذ بأسباب رقة القلب، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾

وهذه الآية لها قصةٌ عظيمةٌ مع بعض الأئمة، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى " وَهَذِهِ الْآيَةُ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ كَانَتْ سَبَبُ تَوْبَةِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَابْنِ الْمُبَارَكِ رحمهما الله تَعَالَى. ذَكَرَ أَبُو الْمُطَرِّفِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَرْوَانَ الْقَلَانِسِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ ابن رَشِيقٍ، قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ يَعْقُوبَ الزَّيَّاتُ، قَالَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامٍ، قَالَ حَدَّثَنَا زكريا ابن أبي أبان، قال حدثنا الليث بن الحرث قَالَ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ دَاهِرٍ، قَالَ سُئِلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ بَدْءِ زُهْدِهِ قَالَ: كُنْتُ يَوْمًا مَعَ إِخْوَانِي فِي بُسْتَانٍ لَنَا، وَذَلِكَ حِينَ حَمَلَتِ الثِّمَارُ مِنْ أَلْوَانِ الْفَوَاكِهِ، فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا حَتَّى اللَّيْلَ فَنِمْنَا، وَكُنْتُ مُولَعًا بِضَرْبِ الْعُودِ وَالطُّنْبُورِ، فَقُمْتُ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ فَضَرَبْتُ بِصَوْتٍ يُقَالُ لَهُ رَاشِينَ السَّحَرِ، وَأَرَادَ سِنَانٌ يُغَنِّي، وَطَائِرٌ يَصِيحُ فَوْقَ رَأْسِي عَلَى شَجَرَةٍ، وَالْعُودُ بِيَدِي لَا يُجِيبُنِي إِلَى مَا أُرِيدُ، وَإِذَا بِهِ يَنْطِقُ كَمَا يَنْطِقُ الْإِنْسَانُ- يَعْنِي الْعُودَ الَّذِي بِيَدِهِ- وَيَقُولُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قُلْتُ: بَلَى وَاللهِ! وَكَسَرْتُ الْعُودَ، وَصَرَفْتُ مَنْ كَانَ عِنْدِي، فَكَانَ هَذَا أَوَّلُ زُهْدِي وَتَشْمِيرِي. وَبَلَغْنَا عَنِ الشِّعْرِ الَّذِي أَرَادَ ابْنُ الْمُبَارَكِ أَنْ يَضْرِبَ بِهِ الْعُودَ:

أَلَمْ يَأْنِ لِي مِنْكَ أَنْ تَرْحَمَا ... وَتَعْصِ الْعَوَاذِلَ وَاللُّوَّمَا
وَتَرْثِي لِصَبٍّ بِكُمْ مُغْرَمٌ ... أَقَامَ عَلَى هَجْرِكُمْ مَأْتَمَا
يَبِيتُ إِذَا جَنَّهُ لَيْلُهُ ... يُرَاعِي الْكَوَاكِبَ وَالْأَنْجُمَا

وَمَاذَا عَلَى الظبي لَوْ أَنَّهُ ... أَحَلَّ مِنَ الْوَصْلِ مَا حَرَّمَا" [١]،

وعبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ هذا سيدٌ من سادات المسلمين، ضرب في كل خيرٍ بأعظم سهمٍ، عبد الله بن المبارك كان مجاهداً في سبيل الله، معلياً لراية الإسلام، وكان إماما ثبتًا من أئمة العلم والعمل، إمامًا من أئمة الحديث الكبار، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غنيًا ذا مالٍ كثيرٍ، يتصدق وينفق على الفقراء والمساكين، كان من أزهد خلق الله، وسيرته تقف معها فتراتٍ طويلةً جداً،

وعن ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم عليه فضلًا إلا بصحبتهم النَّبِيّ ﷺ وغزوهم معه. [٢]، وهذا الذي سمعنا عنه، أنه كان يضرب العود، وليس من أهل الصلاح ولا الرشاد، وإنما كان شابًا فاسقًا، شاء الله له السعادة والهداية والكرامة.

هداية الفضيل بن عياض: أما الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ ذُكر له في هذه الآية سببان:

السبب الأول: قول ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَأَمَّا الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ فَكَانَ سَبَبُ تَوْبَتِهِ أَنَّهُ عَشِقَ جَارِيَةً فَوَاعَدَتْهُ لَيْلًا، فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْتَقِي الْجُدْرَانَ إِلَيْهَا إِذْ سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فَرَجَعَ الْقَهْقَرَى وَهُوَ يَقُولُ: بَلَى وَاللهِ قَدْ آنَ فَآوَاهُ اللَّيْلُ إِلَى خَرِبَةٍ وَفِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ السَّابِلَةِ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ:

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) أخرج الخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " (١١/ ٤٠٠) وينظر " سير أعلام النبلاء " للذهبي (٨/ ٣٩٠) و" تاريخ دمشق " لابن عساكر " (٣٢/ ٤١٥).

إِنَّ فُضَيْلًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ. فَقَالَ الْفُضَيْلُ: أَوَّاهُ! أَرَانِي بِاللَّيْلِ أَسْعَى فِي مَعَاصِي اللهِ، قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَخَافُونَنِي! اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تُبْتُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْتُ تَوْبَتِي إِلَيْكَ جِوَارَ بَيْتِكَ الْحَرَامِ."(١)

وذُكرت له قصةٌ أخرى وكلاهما صحيحتان، كان الفضيل بن عياضٍ قاطع طرقٍ، كان يقطع الطريق ولكنه كان يقطع الطريق على الحجاج، فيطلع عليهم بالليل ويأخذ ما معهم من مالٍ، ومن لم يُخرج ماله يفعل به ويفعل، فإذا به في يومٍ من الأيام يختبئ في خَرِبةٍ بالليل، للحجاج حتى إذا مروا يقطع طريقهم، قال فإذا جماعةٌ من الحجاج تعبوا فجاؤوا يستندون إلى هذه الخربة، وإذا بواحدٍ منهم يقول للآخر ننصرف الآن قبل أن يطلع علينا الفضيل، ، فيقطع علينا طريقنا، فأثَّرت فيه جداً، فقال: أواه أراني بالليل أسعى في معاصي الله ، وقوم من المسلمين ذاهبون إلى بيت الله الحرام يخافون الفضيل، يا رب قد تبت إليك، فتاب إلى الله عزَّ وجل"(٢)،

وكان الفضيل ابن عياضٍ الإمام العلم، إماماً في الخوف من الله، فانظر بعد قسوة القلب والجفاء الشديد، صار من سادات أولياء المؤمنين، ورزقه الله ابنـاً مثله،

وهو علي بن الفضيل بن عياض؛ الذي توفي بسبب سماع آيةٍ، سمع أباه يصلي بالمسلمين ويقرأ سورة الأنعام ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ فأُغشي عليه ومات بسبب سماع هذه

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٥٦).

الآية[١]،

فتخيل هذا الوالد؛ الذي من قسوة قلبه كان يقطع الطريق على الحجاج، ويفسق، ويفجر مع البنات، وغير ذلك، ويشاء الرب الجليل أن يأخذ بناصيته ويصير سيداً من سادات الدنيا قاطبةً، فالدنيا كلها تُجمع على جلالة قدره،

حتى نعلم أن العبد لا يبقى على حالٍ، فمن الممكن أن يكون العبد في مبدأ أمره إنسانــاً شارداً عن الله بعيداً، والبيئة التي يحيا فيها تُعينه على الشرِّ والمعاصي، وإذا به ينتقل إلى بيئةٍ أخرى، ويشاء الله فيصير وليــاً من سادات الأولياء.

ربنا تعالى يقول: ﴿**أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ**﴾ أعظم ما يرقق القلب كتابٌ الله، كتاب الله جلَّ جلاله يرقق القلوب؛ قرآءته، وتدبره، وتعلم تفسيره، ومعانيه، والمراد منه، وأعظم ما يكرم الله به العبد رقة القلب بالعمل بالقرآن، والعمل بآياته، والدعوة إليه ﴿**وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ**﴾ اليهود والنصارى، ﴿**فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ**﴾ يعني طالت عليهم المدة بينهم وبين نبيهم، كاليهود طال عليهم الزمن بينهم وبين موسى، ﴿**فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ**﴾ كذلك النصارى طال الزمن بينهم وبين عيسى، فكلما بعد الناس عن زمان

(١) أخرج الخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " (٥/ ٤٥٤) إِبْرَاهِيمَ بنَ بَشَّارٍ يَقُوْلُ: الآيَةُ الَّتِي مَاتَ فِيْهَا عَلِيُّ بنُ الفُضَيْلِ فِي الأَنْعَامِ: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ**﴾ ، مَعَ هَذَا المَوْضِعِ مَاتَ، وَكُنْتُ فِيْمَنْ صَلَّى عَلَيْهِ -رَحِمَهُ اللهُ، وينظر " سير أعلام النبلاء " للذهبي (٨/ ٤٤٦).

النبوة، قست القلوب[١]،

فربنا تعالى يحثُّ هذه الأمة ألا تكون كأهل الكتاب، لأن في هذه الأمة ربانيين، وعلماء، وقُرَّاء، وحملةً للشريعة على مدار الزمان إلى آخر الدنيا بتمامها، فترق القلوب بسماع القرآن، وبسماع سنة الرسول ﷺ، وبسماع المواعظ، ولذلك الواجب علينا ألا يترك العبد منا قلبه حتى يقسو، بل الواجب أن يتعاهد المرء قلبه، بسماع المواعظ وسماع القرآن، وتلاوة القرآن وتلاوة السنة، حتى يخشع قلبه،

﴿**وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ**﴾ هذا ردٌّ على الجهلة من أهل زماننا، رب العزة يقول كثير من أهل الكتاب فسقةٌ كفرةٌ فجرةٌ، وهذا هو المراد، فالفاسق خارجٌ عن طاعة الله تعالى، والمراد هنا فاسقون أي كافرون، فسقةٌ منتهكون للحرام، وكثيرٌ من أهل زماننا يقولون إن الأوروبيين أحسن من المسلمين!!!، من قال هذا؟ لا يقول هذا إلا إنسانٌ غير منصفٍ، وإنسانٌ مغمىً عليه، أو منبهرٌ بما عندهم من مادياتٍ ودنيا، ولا ينظر إلى ميزان الشريعة، ومنهم من يقول في أمريكا ما شاء الله مبهور بهذه الحضارة الزائلة، نعم عندهم تقدمٌ دنيويٌّ، ولكنهم حُرِموا أعظم نعمةٍ وهي نعمة الإيمان، ومولانا يقول: ﴿**وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾**﴾ ولذلك في غير ما آيةٍ قال الله: ﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ لو وجدت منهم إنسانـًا عدلاً ستجد

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤٠٩)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٥٤).

أكثر من مليون إنسانٍ ظالمٍ جبارٍ، ظالمٍ يحيد عن طريق الله، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ قليلٌ منهم أهل أمانةٍ، فكثير منهم لا يؤدي الأمانة إلا من أجل الإعلام، إنما همهم أن يأخذوا الخيرات التي هي عند المسلمين، كذلك رب العزة يقول: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ اعْلَمُوا أيها الناس أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ الميتة الجدبة التي لا تنبت شيئًا، بَعْدَ مَوْتِهَا يعني: بعد بوارها ودروسها[1]، فكما أن الله يحيي الأرض بالنبات فهو قادرٌ على أن يلين القلوب بعد قسوتها، ببراهين القرآن ودلائله، قد أوضحنا لكم الآيات والحجج، كي تتدبروها، وتعقلوا ما فيها من المواعظ، وتعملوا بموجب ذلك.[2]

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ، تَعَالَى، يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا، ويَهدي الحَيَارى بَعْدَ ضَلتها، ويفرِّج الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الهتَّان الْوَابِلِ كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الْإِضْلَالِ، وَالْمُضِلِّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ، اللَّطِيفُ الخبير الكبير المتعال."[3]

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٢/ ٤١١).

(٢) ينظر "التفسير المنير" للزحيلي (٢٧/ ٣١٦).

(٣) "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير(٨/ ٢١)،و"حدائق الروح والريحان" للأرمي (٢٨/ ٤٦١)

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَقَالَ صَالِحٌ الْمُرِّيُّ: الْمَعْنَى يُلَيِّنُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسَاوَتِهَا. وَقَالَ جعفر ابن مُحَمَّدٍ: يُحْيِيهَا بِالْعَدْلِ بَعْدَ الْجَوْرِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى فَكَذَلِكَ يُحْيِي الْكَافِرَ بِالْهُدَى إِلَى الْإِيمَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ بِالْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ. وَقِيلَ: كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى مِنَ الْأُمَمِ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْخَاشِعِ قَلْبُهُ وَبَيْنَ الْقَاسِي قَلْبُهُ."(١)

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ قد أظهرنا لكم المواعظ الواضحات التي لا ينكرها عقلٌ ولا ترفضها فطرةٌ، ومن ذلك أن إِحْيَاءُ اللهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا دَلِيلٌ عَلَى أن الله قديرٌ على إحياء الموتى من الأبدان ومن القلوب.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١٩﴾

قال تعالى: **﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾** نسأل الله أن يجعل لنا ولكم الفضل الكريم بفضله وكرمه، إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ يعني المتصدقين والمتصدقات الذين ينفقون أموالهم لا يريدون إلا وجه الله، ولا يريدون جزاءً ممن أعطوه المال ولا شكوراً، هؤلاء الذين ينفقون أموالهم لله تعالى، **﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨﴾**

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٠/ ٢٥٦)، و"النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٤٧٨)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٢٦٤).

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أقرضوا الله جلَّ جلاله قرضـًا حسنـًا، يعني أخرجوا المال لله يريدون وجهه، أخرجوا من مالهم الطيب الحلال، ولم يتبعوا هذه الصدقة لا بالمنِّ ولا بالأذى، ولا يريدون جزاءً ولا شكوراً، وهذه صفاتٌ يجب أن تجتمع في المتصدق، إذا أراد أن تُقبل صدقته، فينفقها ويخرجها يريد وجه ربه والدار الآخرة، فهذا ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾ تُضاعف له الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، كما ثبت في الصحيح عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه ، قال: جاء رجلٌ بناقةٍ مخطومةٍ، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبع مائةٍ ناقةٍ كلها مخطومةٌ»(١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ؟ قَالَ: «رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفِ، فَتَصَدَّقَ بِهَا»(٢)"،

وقال ﷺ **"ما نقص مالٌ من صدقةٍ"**(٣)، الصدقة لا تُنقص المال أبداً، بل تزيده

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٩٢)، والنسائي في " المجتبى " (٣١٨٧)، وفي " الكبرى " (٤٣٨١)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٦٤٩).

(٢) **(حسن)** أخرجه النسائي في " المجتبى " (٢٥٢٧)، وفي " الكبرى " (٢٣١٨)، وأحمد في " مسنده " (٨٩٢٩)، وابن خزيمة في " صحيحه " (٢٤٤٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٣٣٤٧)، وحسنه الألباني في " صحيح الجامع " (٣٦٠٦).

(٣) تقدم تخريجه .

وتُنميه وتبارك فيه، مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ في هذه السورة أيضـًا،

وفي قصة أبي الدحداح ﵁ لما سمع هذه الآية وقال أقرضت ربي حائطي، حائطٌ به ستمائة نخلةٍ، ويخرج ويذهب إلى زوجته وهي في الحائط يا أم الدحداح، لبيك يا أبا الدحداح، اخرجي من حائطي فإني أقرضته ربي عزَّ وجلَّ، فتقول له ربح البيع يا أبا الدحداح.[1]

ومن وثق في الله عزَّ وجلَّ، ووثق في خَلَفه، وكان أوثق فيما عند الله، أشد من ثقته فيما عند نفسه، يُخرج المال ونفسه طيبةٌ، لأنه يثق أنه ما أنفق من شيءٍ إلا ويخلفه الله، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه أي شيءٍ؛ قليلٍ كثيرٍ، في السر في العلن، للغريب للقريب، للمسلم للكافر، وإن كانت هذه الصدقة وقعت في يد من لم يستحق،

في الحديث الثابت في الصحيح، **عن أبي هريرة ﵁ ، عن النبي ﷺ قال: " قال رجلٌ لأتصدقن الليلة بصدقةٍ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانيةٍ، فأصبحوا يتحدثون تُصدق الليلة على زانيةٍ، قال: اللهم، لك الحمد على زانيةٍ، لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقتهِ فوضعها في يد غنيٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق على غنيٍ، قال: اللهم، لك الحمد على غنيٍ، لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق على سارق، فقال: اللهم، لك الحمد على زانيةٍ، وعلى غنيٍ، وعلى**

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده" (١٢٤٨٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٧١٥٩)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٣٣٤)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٩٦٤).

سارقٍ، فأُتي فقيل له: أمَّا صدقتك فقد قُبلت، أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته "(١)، فنسأل الله أن يجعلنا من أهل النفقة.

ما أكرم أصحاب النفقة وأهل الجود على الله!، فكفى بالمتصدق فخراً وشرفـًا قول الحبيب ﷺ **"المرء في ظل صدقته يوم القيامة، حتى يقضي الله بين العباد"**(٢)، فيوم القيامة الناس في كرباتٍ والمتصدق في ظل صدقته،

كم من عبدٍ من عباد الله لئن يتصدق بالصدقة أحب إليه من أن يبقيها لنفسه، هناك أناسٌ جبلهم الله على الكرم، وجبلهم على محاسن الأقوال والأعمال، فهؤلاء أجرهم عن الله في قوله: ﴿**إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ**﴾ وقوله: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾، وقول الحبيب ﷺ **"من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب"**(٣) حتى يدلنا على أن الإنسان لو تصدق بالربا لا يقبله الله فليس بصدقةٍ متقبلةٍ لأنه من كسب خبيثٍ، كذلك لو تصدق بمالٍ ربحه من الغشِّ في التجارة فلن يقبله الله منه، فلا يقبل الله إلا الطيب، لذلك قال النبي ﷺ **" فإن الله يقبلها بيمينه، ويربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه،**

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤٢١)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٢٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

حتى تكون اللقمة مثل الجبل" فاللقمة الواحدة، والتمرة الواحدة تكون مثل الجبل العظيم يوم القيامة- نسأل الله من فضله الكريم يا رب العالمين-، فمن عرف ثمار الصدقة لا يمر عليه يومٌ إلا وينفق ما استطاع،

أحد الرواة من ضمن من روى حديث **"المرء في ظل صدقته يوم القيامة"** يحكي عن راوٍ آخر، فيقول: فَكَانَ أَبُو الْخَيْرِ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ لَا يَتَصَدَّقُ مِنْهُ بِشَيْءٍ، وَلَوْ كَعْكَةً وَلَوْ بَصَلَةً"

فمن اعتقد ذلك تصدق ما استاطع، وهو عندما يقرأ قول الله تعالى: ﴿**وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ**﴾ لأنه عندما ذهب إلى الدار الآخرة، علم عظيم ثواب الصدقة، وفي الحديث **عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال:" سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ...، ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تُنفق شماله"**[١] ، هذا السعيد لا يرائي في صدقته، إنما يخفيها؛ يرجو وجه الله والدار الآخرة، يريد ما عند الله، ما عندكم ينفد، والله لو عند الإنسان ملياراتٍ ستنفد، لو عنده مال قارون فإنه ينفد، وقد نفد مال قارون بالفعل، ألم ينفد؟ بلى نفد، وذهب قارون ولم يأخذ منه شيئًا، فالله جلَّ جلاله يقول لنا: ما عندكم ينفد وما عند الله باق فنحن نُصدِّق الله ، و نرجوا من الله أن نُصدِّق بقلوبنا وبأعمالنا، وأن أعمالنا تصدق ما في القلوب، ونسأل الله التوفيق والسداد.

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٦٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٣١).

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ما أجمل القرض الحسن حينما يخرج لله تعالى، أبو طلحة والحديث في الصحيح، **عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ، يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحى، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيبٍ، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** [آل عمران: ٩٢] **قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: إن الله يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحى، وإنها صدقةٌ لله، أرجو بِرَّها وذُخرها عند الله، فضعها، يا رسول الله، حيث شئت، قال رسول الله ﷺ: «بخٍ، ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، قد سمعت ما قلت فيها، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه"**[١]، وفي روايةٍ" **ذلك مالٌ رايحٌ** "[٢]، رايحٌ يعني رايحٌ عائده عليك، فالفائدة ترجع للمتصدق على الحقيقة.

فكانوا يخرجون لله أحب شيءٍ إلى أنفسهم، لأن المتصدق يخرجه لنفسه على الحقيقة، فلا تظن أنك عندما تُخرج الصدقة أنك أبعدتها عن مالك، وما استمتعت بها، بل أنت المنتفع الأول بهذه الصدقة،

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ الكريم

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤٦١)، ومسلم في " صحيحه " (٩٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤٦١).

يضاعف لهم أجر الصدقة، فلا يعلم أحدٌ مدى الأجر الذي يكرم الله به المتصدق إلا الله، ﴿**وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ فوق المضاعفة، وهي الجنة أعدها الله ثواباً للمتصدقين، للمؤمنين المتقين[(١)]، اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ**﴾ اللهم اجعلنا منهم يا ذا الجلال والإكرام، ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ**﴾ الإيمان لا يصح إذا كان فيه شكٌ، وآمنوا أي صدَّقوا، وعندهم يقينٌ، وعندهم تصديقٌ جازمٌ بأنه لا إله إلا الله، لا إله لهذا الكون إلا الله رب العالمين، وآمنوا بالرسل جميعهم، لا يفرقون بين أحدٍ منهم، ويؤمنون أن سيدهم وخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ، ﴿**آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾ الصديقون أعلى منزلةٍ في الأمم بعد الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ الشهداء يأتون بعد الصديقين، الصديقون أعلى درجةٍ من الشهداء، وهذا شيءٌ عظيمٌ، فأهل الجنة درجاتٌ، كما جاء في الحديث العظيم؛ وهو ثابتٌ في الصحيحين، **عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال «بلى، والذي**

---

(١) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤١٢).

نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(١)

قوله ﷺ **"إن أهل الجنة"** نسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة بلا حسابٍ، ومن أهل الدرجات العلى يا رب، الناس في الجنة لو افترضنا أنهم جلوسٌ مثل جلوسنا، يقول لنا ﷺ، **" إن أهل الجنة ليتراءون"** ينظرون إلى أعلى السماء، **"يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق"** نجمٌ ساطعٌ بعيدٌ في الأفق، هؤلاء الذين فوق هم أهل الغرف، والذين أسفل هم أهل الجنة، فقال حبيبنا ﷺ **"لتفاضل ما بينهم"** ما هو التفاضل الذي بينهم وبأي شيءٍ يكون؟ هل هو تفاضلٌ بالنسب؟ بالمال؟ أم أن ذاك كان رئيساً وذاك مرؤوساً؟، بل يتفاضلون بالإيمان، والأعمال الصالحة، **"قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: لا والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين"** يا رب اجعلنا منهم، ورجالٌ ها هنا خرجت مخرج الغالب، فمن الممكن أن يكون منهم نساءٌ، كما **عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**(٢)، فهناك -أيضاً- من النساء مَن كملن، وهناك نسوةٌ -ما شاء الله- المرأة بألف رجلٍ، فيدخلن في قول النبي ﷺ **" رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين"** هؤلاء أصحاب درجاتٍ عالياتٍ، بفضل الله جلَّ جلاله وتباركت أسماءه.

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٥٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٣١).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤١١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٤٣١).

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ اللهم إنا نسألك الشهادة في سبيلك بعد طول عمرٍ وحسن عملٍ يا رب العرش العظيم، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»**[1]، وفي رواية أخرى **"مات ميتةً جاهلية"**[2]،

والشهداء لهم أجرٌ لا يعلمه إلا الله، ومن هذا الأجر العظيم ما ثبت في الصحيحين، **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فَقَالَ: " أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَأُخْبِرْنَا أَنَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالعَرْشِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَسْتَزِيدُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ قَالُوا رَبَّنَا: وَمَا نَسْتَزِيدُ وَنَحْنُ فِي الجَنَّةِ نَسْرَحُ حَيْثُ شِئْنَا؟ ثُمَّ اطَّلَعَ عَلَيْهِمُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: هَلْ تَسْتَزِيدُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يُتْرَكُونَ قَالُوا: تُعِيدُ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَنُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى"**[3] فعندها قوله جلَّ جلاله لَهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٩١٠)، وأبو داود في " سننه " (٢٥٠٢)، والنسائي في " المجتبى " (٣٠٩٧)، وفي " الكبرى " (٤٢٩٠).

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في " تفسير القرآن العظيم " (١/ ٥٧٣) قلت: ولهذا ثبت في الصحيح "من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية"

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٨٨٧)، وأبو داود في "سننه" (٣٠١١)، وابن ماجه في

أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ أي هؤلاء الشهداء لهم أجرهم ونورهم يوم القيامة، نورٌ تامٌ كاملٌ، لأنه بذل نفسه لله عزَّ وجلَّ.

قال أهل العلم هل الجملة من أول قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَنُورُهُمۡۖ﴾ جملةٌ واحدةٌ، أم أن الكلام تم عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ثم هنا وقف الكلام وتمَّ المعنى، ويبدأ معنىً جديدٌ ببيان أجر الشهيد؟

بعض العلماء قال المعنى كله واحدٌ، يرجع إلى أن أهل الإيمان هم أهل الصدق والتصديق، وكذلك هم الشهداء الذين يشهدون عند الله يوم القيامة، ولهم أجرهم عند ربهم، فالكلام كله متصلٌ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: " اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ مُنْفَصِلٌ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَالْخَبَرُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ، مُتَنَاهٍ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] وَالصِّدِّيقُونَ مَرْفُوعُونَ بِقَوْلِهِ: هُمْ، ثُمَّ ابْتُدِئَ الْخَبَرُ عَنِ الشُّهَدَاءِ فَقِيلَ: وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ، وَالشُّهَدَاءُ فِي قَوْلِهِمْ مَرْفُوعُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ وأخرجه عن ابن عباس ومسروق وأبي الضحى والضحاك ."(١)،

ثم قال: " وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى الْأَقْوَالِ عِنْدِي فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ:

="سننه"(٢٨٠١)

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤١٢).

الْكَلَامُ وَالْخَبَرُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، مُتَنَاهٍ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾ [الحديد: ١٩] وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿**وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ [الحديد: ١٩] خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ عَنِ الشُّهَدَاءِ وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ ذَلِكَ أَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَغْلَبُ مِنْ مَعَانِيهِ فِي الظَّاهِرِ، وَإِنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ مُوجِبٍ فِي الْمُتَعَارَفِ لِلْمُؤْمِنِ اسْمَ شَهِيدٍ لَا بِمَعْنَى غَيْرِهِ، إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ شَهِيدٌ عَلَى مَا آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ وَجْهًا، وَإِنْ كَانَ فِيهِ بَعْضُ الْبُعْدِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ مَعَانِيهِ، إِذَا أُطْلِقَ بِغَيْرِ وَصْلٍ، فَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿**وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾ [الحديد: ١٩] إِذَنْ وَالشُّهَدَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ هَلَكُوا فِي سَبِيلِهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، لَهُمْ ثَوَابُ اللهِ إِيَّاهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَنُورُهُمْ"(١)،

خصال الشهيد عند الله:

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ للشهيد عند الله ست خصالٍ، الواحدة منهن خيرٌ من الدنيا وما فيها، كما في الحديث عند الترمذي، **عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**"(٢)، إلى غير ذلك مما

---

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤١٥).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (١٦٦٣)، وابن ماجه في " سننه " (٢٧٩٩)، وأحمد في " مسنده " (١٧١٨٢)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٣٨٣٤).

ذكر صلوات الله وسلامه عليه، فالشهيد لأنه بذل نفسه لله عزَّ وجلَّ، فمولانا يكافؤه مكافأةً شديدةً عظيمةً، وأجراً عظيمـًا، لذلك مولانا تعالى قال: ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾ وفي يوم أحدٍ لما استشهد الصحابة رضي الله تعالى عنهم، منهم عبد الله بن عمرو بن حرامٍ والد جابرٍ، في الحديث **عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **" لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ "، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ "**[١]

فالشهيد ليس بميتٍ، والشهيد لا يحاسب في القبر، فالشهيد له أجرٌ لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، كما رُوي **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه **، أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ: «لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»**.[٢]

على من يُطلق لفظ الشهيد:

أول ما يطلق لفظ الشهيد على شهيد المعركة، ولكن هذه الأمة حباها الله تعالى

---

(١) (حسن) أخرجه أبو داود في " سننه " (٢٥٢٠)، وأحمد في " مسنده " (٢٣٨٨)، والحاكم في " المستدرك " (٢٤٤٤)، وحسنه الألباني في " صحيح سنن أبي داود " (٢٥٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٨٠)، وأبو داود في " سننه " (٢٧٥٧)، والترمذي في " سننه " (١٦٥١)، وأحمد في " مسنده " (١٢٥٥٦)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٣٩٨).

أجر الشهادة لأمورٍ كثيرةٍ، منها ما ورد **عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ، أَوْ دُونَ دَمِهِ، أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»**[(١)]،

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تُعدون الشهيد فيكم؟» قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيدٌ، قال: «إن شهداء أمتي إذا لقليلٌ»، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قتُل في سبيل الله فهو شهيدٌ، ومن مات في سبيل الله فهو شهيدٌ، ومن مات في الطاعون فهو شهيدٌ، ومن مات في البطن فهو شهيدٌ»، قال ابن مقسم: أشهد على أبيك في هذا الحديث أنه قال: **«والغريق شهيدٌ»**[(٢)]،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: المَطْعُونُ، وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللهِ "[(٣)]

وعن جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَ يَعُودُ عَبْدَ اللهِ بْنَ ثَابِتٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ غُلِبَ، فَصَاحَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يُجِبْهُ فَاسْتَرْجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: غُلِبْنَا عَلَيْكَ يَا أَبَا الرَّبِيعِ، فَصَاحَ النِّسْوَةُ، وَبَكَيْنَ فَجَعَلَ ابْنُ عَتِيكٍ يُسَكِّتُهُنَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٧٧٢)، والترمذي في " سننه " (١٤٢١)، والنسائي في " المجتبى " (٤٠٩٤)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٧٠٨).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨٢٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٩١٥) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٨٢٩)، والترمذي في "سننه" (٢٨٢٩)، والنسائي في "الكبرى " (٧٤٨٦)، وأحمد في "مسنده" (٨٣٠٥)، وابن حبان في "صحيحه" (٣١٨٨).

ﷺ: «دَعْهُنَّ، فَإِذَا وَجَبَ فَلَا تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ» قَالُوا: وَمَا الْوُجُوبُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الْمَوْتُ» قَالَتِ ابْنَتُهُ: وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ شَهِيدًا، فَإِنَّكَ كُنْتَ قَدْ قَضَيْتَ جِهَازَكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَوْقَعَ أَجْرَهُ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ، وَمَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ؟» قَالُوا: الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ "(1)

والمبطون شهيدٌ -عافانا الله والمسلمين أجمعين، ونسأل الله أن يشفي كل مريضٍ- وهو كل من مات بداءٍ في بطنه من كبدٍ وكلىً وغير ذلك، ، وصاحب الهدم شهيدٌ، وهو من وقع عليه جدارٌ أو سقفٌ فمات، أو يكون في سيارته -عافانا الله- ويموت في حادثٍ فهو شهيدُ بإذن الله تعالى، والمرأة تموت بِجُمْعٍ يعني المرأة تموت عند الولادة شهيدةٌ، وصاحب الحريق شهيدٌ، والغريق شهيدٌ، بفضل الله وهذا كرامةٌ من الله، ولا شك أن له أجراً عظيمـًا، ولكن أعظمهم أجراً هذا الشهيد الذي بذل نفسه وروحه وماله لله رب العالمين جلَّ جلاله.

قال الله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ**

---

(1) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٣١١١)، والنسائي في "المجتبى" (١٨٤٦)، ومالك في "الموطأ" (١/ ٢٣٣)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٧٥٣)، وابن حبان في "صحيحه" (٣١٨٩)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب " (١٣٩٨).

عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الناس أقسامٌ متفاوتون، عموم الخلق كلهم بينهم تفاوتٌ فمنهم مؤمنٌ وكافرٌ، وأهل الإيمان بينهم تفاوتٌ في درجات إيمانهم وما يليق بهذه الدرجات يوم القيامة، فبيَّن الله تعالى أهل الإيمان ومنزلتهم العالية، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ فبيَّن أن منهم صديقين ومنهم شهداء، ثم بيَّن الله القسم الثالث ألا وهم الكفرة الفجرة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ وهم أهل النار الملازمون فيها؛ الذين لا يخرجون منها -نسأل الله العافية والسلامة-، ولذلك أخبر تعالى أنهم أصحاب الجحيم، والرابط بين الآيات واضحٌ جداً، كأنه من الممكن أن يضل العبد بنفسه، أو يبخل بماله؛ محبةً لبقائه في الدنيا، ورغبةً فيما بين يديه عما عند الله،

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

فيقول الله تعالى بعد ذلك مباشرةً: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ﴾ يعني لماذا لا تبذلون أموالكم لله؟،

ولماذا لا تنفقون في سبيل الله؟ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ لا حقيقة لها، وحاصلها أنها دنيا لعبٍ، ولهوٍ، وزينةٍ ، وتفاخرٍ بين العباد، فليست حقيقةً؛ ولذلك جاءت أدلة الشرع بالحثِّ على الزهد في هذه الحياة الدنيا، و أن يعرف العاقل قدرها، فلا يغتر بها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ هي الحياة الحقيقية لو كانوا يعلمون، وربنا جلَّ جلاله يقول: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ وقال ربنا أيضـًا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵁ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ فِي السُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ ذَلِكَ لَهُمْ ثَلَاثًا، فَقَالُوا: لَا وَاللهِ، لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ عَيْبًا فِيهِ أَنَّهُ أَسَكُّ - وَالْأَسَكُّ: الَّذِي لَيْسَ لَهُ أُذُنَانِ - فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ قَالَ: «فَوَاللهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مَنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»[١].

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٩٥٧)، والبخاري في " الأدب المفرد " (٩٦٢)، وأحمد في "مسنده" (١٤٩٣٠)، وابن المبارك في "الزهد" (٩٨٣).

ولذلك قال النبي ﷺ **"إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ"** والحديث رواه الإمام مسلمٌ في صحيحه(١)،

وقفةٌ: لا يظن أحدٌ أنه أتى إلى هذه الحياة الدنيا للبقاء، بل إننا جئنا للدنيا للاختبار، وسنعبر كما عَبَرَ آباؤنا من قبلنا، والسعيد الذي يخرج منها بزادٍ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، **وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**(٢)،

ونحن نرى أن الكفار؛ لعل أرزاقهم أوسع بكثيرٍ من المسلمين، وأسباب الدنيا عندهم أكثر مما عند المسلمين، فهل معنى ذلك أن رب العزة يحبهم أكثر منَّا؟، بالطبع لا؛ لأن الدنيا ليس لها قيمةٌ عند الله، **فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجلَّ يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين، فقد أحبه»**(٣)

وقدر الدنيا في الآخرة قليلٌ؛ **عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ،**

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٣٢٠)، وابن ماجه في " سننه " (٤١١٠)، والحاكم في " المستدرك " (٧٨٤٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٦٨٦).

(٣) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٣٦٧٢)، والحاكم في " ألمستدرك " (٩٤)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٧١٤).

قَالَ: «مَا مَثَلُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخِلُ رَجُلٌ إِصْبَعَهُ فَبِمَ يَرْجِعُ»(١) فهذه القطرة التي علقت بإصبعه قطرةٌ من بحرٍ، فهي لا شيء بالنسبة لما في البحر كله،

وعَنْ أَنَسٍ، ﷺ، قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَاقَةٌ تُسَمَّى العَضْبَاءَ، لاَ تُسْبَقُ، قَالَ حُمَيْدٌ: أَوْ لاَ تَكَادُ تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ، فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ، فَقَالَ: حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ وَضَعَهُ."(٢)، ما ارتفع شيءٌ من الدنيا إلا وضعه الله جلَّ جلاله، ولذلك **عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ، قال: «الدنيا متاعٌ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»** والحديث في صحيح الإمام مسلمٍ رحمه الله عزَّ وجل(٣)،

فعندما يأتي العبد ونفسه تدفعه للحرام، وأبواب الشهوات تفتح أمامه يتق الله ويعلم أنه في سجنٍ يوشك أن يخرج منه إلى النعيم المقيم، وإلى الفسحة الحقيقية، وإلى النزهة الباقية، وإلى النعيم الباقي الذي لا ينفد، **عن أبي هريرة ﷺ ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»**(٤) والحديث في سنن الإمام

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٥٨)، وأحمد في " مسنده " (٤١٠٨)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٣٣٠)، والحاكم في " المستدرك " (٦٥١٠).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨٧٢)، وأبو داود في " سننه " (٤٨٠٤)، وأحمد في " مسنده " (١٢٠٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٤٦٧)، والنسائي في " المجتبى " (٣٢٣٢)، و " الكبرى " (٥٣٢٥)، وابن ماجه في " سننه " (١٨٥٥)، وأحمد في " مسنده " (٦٥٦٧).

(٤) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٥٦)، والترمذي في "سننه" (٢٣٢٤)، وابن ماجه في "سننه"

الترمذي، وكذلك رواه ابن ماجه وهو حديثٌ صحيحٌ،

"الدنيا سجن المؤمن" فنفسه تأمره بالحرام، عينه تريد أن تنظر، أذنه تريد أن تسمع، لكنه يحكم نفسه، ويُلزم نفسه أمر الله، ويجتنب ما حرم الله عليه، فيحيا في سجنٍ؛ ولكن ما أطيب هذا السجن إذا كان في طاعة الله،

وقفةٌ: رجلٌ نَفسُه تشتهي الغنى؛ وهو محاسبٌ فيكتب بدل العشرة آلافٍ مائة ألفٍ، وهذا حدث؛ بعض المحاسبين يقول: أنا آخر السنة أجهز حساباتٍ لفلانٍ مدير الشركة الفلانية، فبدلاً من يكون الناتج مائة ألفٍ أستطيع أن أضع صفراً فقط أمام الرقم - حتى يأخد أموالاً من الدولة -فيصيروا مليونـًا، أو بدلاً من كون الناتج مليونـًا أضع صفراً فيكون الناتج عشرة ملايين، وهذا وبالٌ وشرٌّ مستطرٌ، ماذا يفعل حين يلقى الله؟، ومثل هذا يجد عقوبته في الدنيا قبل الآخرة، لأن هذه حقوق الغير وأموال الناس، وأموال الناس حرامٌ، **عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»**[(١)]، سواءً أخذ درهمـًا أو ديناراً أو مليونـًا أو مليونين أو ملياراً، فهو حرامٌ كله قليله وكثيره.

=(٤١١٣)، وأحمد في " مسنده " (٨٢٨٩).

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٣٧)، والنسائي في " الكبرى " (٥٩٣٩)، وابن حبان في "صحيحه" (٥٠٨٧)، وابن خزيمة في "التوحيد" (٢/ ٨٤٦)، والبيهقي في "الكبرى" (٢٠٧١٠).

ولذلك يأتي الحديث الجميل الذي يريح العبد جداً، فبه يسعد ويهنأ، **عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»**(١)، صدق رسول الله، والقناعة كنزٌ لا يفنى(٢)،

لعل منَّا أناسٌ كُثُرٌ يظنون أنفسهم فقراء، ويرون أنهم لا يملكون شيئًا، لكن النظرة تختلف إذا ما قارن العبد نفسه بمن هو دونه في أمور الدنيا، كما رُوي **عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله"**(٣)،

أقل نعمة لدى العبد أنه مستورٌ، وغير محتاجٍ لأحدٍ -ولله الفضل والمنة-، فضلاً عن أن أكثرنا بحمد الله مَنَّ الله عليه وستره وأفاض عليه عن حاجته، غيرك، طالما يجد قوت يومه، وقوت عائلته وأسرته، من أولادٍ وزوجةٍ وأمٍ وأبٍ وغير ذلك؛ فالحمد لله.

---

(١) **(حسن)** أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٣٠٠)، والترمذي في " سننه " (٢٣٤٦)، وابن ماجه في " سننه " (٤١٤١)، والحميدي في "مسنده" (٤٤٣)، وحسنه الألباني في " السلسلة لصحيحة" (٢٣١٨).

(٢) **(ضعيف جدا)** أخرجه الطبراني في الأوسط" (٦٩٢٢)، وابن شاهين في "الترغيب في فضائل الأعمال" (٣٠٦)، والعقيلي في "الضعفاء" (٢/ ٢٣٣)، والبيهقي في "الزهد الكبير" (١٠٤) واللفظ له، وضعفه الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب" (٥٠٠)، عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «القناعة كنز لا يفنى»

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٩٠)، ومسلم في " صحيحه " (٢٩٦٣).

"من أصبح منكم آمنـاً في سربه" ولله الحمد أصبحنا وأمسينا في أمنٍ وأمانٍ- أدامه الله علينا وعلى المسلمين أجمعين، وفرج عن المسلمين كرباتهم يا رب العالمين.

"معافـاً في بدنه" ولله الحمد و إن كنت مريضـاً، ولكن الحمد لله ما زال الأمر مُيسراً فتذهب إلى عملك وترجع، وتذهب إلى بيت الله وترجع، وتقضي حاجات أولادك، وإن كان بك تعبٌ، وإن كان بك بعض الشئ فمولاك يريد أن يعظم لك أجرك، وهاك قول حبيبك صل عليه وسلم، صلوات ربي وسلامه عليه **«مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»**(١)،

كيف يريد المرء لنفسه أن لا يشكو من شيءٍ في هذه الدنيا؛ صحيحـاً معافـاً تمامـاً، وقد مرض رسول الله ﷺ، ومرض أبو بكر رضي الله عنه، وعموم الصحابة الكرام مرضوا، واشتد البلاء على رسول الله ﷺ، ولذلك **عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»**"(٢)، لذلك لا يغتر المؤمن بما عند الناس من الحياة الدنيا، فيدفعه ذلك إلى أن

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٦٤١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٥٧٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه.

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٣٩٨)، والنسائي في " الكبرى " (٧٤٣٩)، وابن

يزدري نعمة الله عليه، فليس هذا حال العبد الصالح المحب لربه، ولذلك قال مولانا لنا جميعا: ﴿**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ فالعبد يحمد الله على ما هو فيه، فهو خيرٌ من ملايين من الخلق، وما عنده يحلم به أناسٌ كثرٌ، بل يحلم بمعشاره أناسٌ كثرٌ، فالحمد لله رب العالمين.

ربنا تعالى يقول: اعلموا فهو تعالى الذي يأمرنا بالعلم؛ ثم يكشف لنا عن العلم الذي ينبغي أن نهتم بتعلمه، فما أشرف هذا العلم! وما أنفعه للناس!

لو جاء إلينا إنسانٌ -مثلاً- في مادةٍ من المواد أو في علمٍ من العلوم، سواءٍ كان طبيباً بارعاً كأن يكون طبيباً على مستوى العالم، يشار إليه بالبنان في مهنته، أو مهندساً أو مخترعاً عظيمً، ثم قال اعلموا أن المسألة الفلانية علاجها كذا وكذا، فمثل هذا الكلام يصير الناس في شغفٍ لسماعه، بل يحفظونه ويطبقونه، فما بالنا وهذا كلام ربنا بين أيدينا؛ يقول لنا ﴿**ٱعۡلَمُوٓاْ**﴾ يا عبادي ﴿**أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ**﴾ لهوٌ يلهو به، كالصبيان عندما يلعبون ويلهون، وَزِينَةٌ تتزين بها الدنيا من الزخرف لأنها في ذاتها قبيحةٌ وَتَفَاخُرٌ والتفاخر مذمومٌ، كما روى مسلمٌ **عن أبي مالك الأشعري، حدثه أن النبي ﷺ قال: " أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة "**[1] -نسأل الله العافية والسلامة -

---

=ماجه في " سننه " (٤٠٢٣)، وأحمد في " مسنده " (١٤٨١)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٤٣).

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٩٣٤)، وابن ماجه في " سننه " (٢٢٩٠٣)، وأحمد في " مسنده "

، فهذا الفخر والتفاخر من أعمال الجاهلية، والأولى ما ورد **عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»**[١] لماذا يفخر المرء على إخوانه؟ هل يفخر بكثرة ماله، أو بمنصبه، أو بحسبه ونسبه؟ لماذا يفخر العبد بشيءٍ قد ملكه الله إياه؟ لا يجوز للعبد أبداً أن يفخر على أحدٍ من إخوانه، فالتفاضل لا يكون إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]

ثم قال الله تعالى: ﴿**وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ**﴾ وقد مرَّ معنا في سورة التكاثر[٢] كلامٌ جميلٌ، في تفسير قوله تعالى: ﴿**أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢**﴾ [التكاثر: ١-٢] والمعنى: شغلكم التكاثر بصنوف الدنيا وما فيها من لذاتٍ، ورافقكم هذا الانشغال طوال عمركم؛ إلى آخر يومٍ، وإلى آخر نفسٍ؛ حتى صرتم من أهل المقابر،

وعن أنسٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: " يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر "[٣]، فلربما بلغ من العمر أرذله، ومازال

= (٢٢٩٠٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٣١٤٣).

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٦٥)، والبخاري في " الأدب المفرد " (٤٢٨)، وأبو داود في " سننه " (٤٨٩٥)، وابن ماجه في " سننه " (٤١٧٩).

(٢) نور البيان في تفسير آي القرآن (تفسير جزء عم) (٥٢٦).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٢١)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٤٧) واللفظ له

حريصٌ على الدنيا، ومازال يأمل فيها ويرجو- نسأل الله جلَّ جلاله أن يرزقنا الأمل فيما بين يديه جلَّ جلاله-.

ثم ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا هذه ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ كمثل مطرٍ ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ جماهير أهل العلم من أهل التفسير على أن الكفار هنا هم الزُّرَّاع، الزارع سُمِّي كافراً لأنه يغطي الحب ويكفره في الارض، فالكفار هم الزراع الذين يكفرون الحب ويغطونه في الأرض، ، والكفر في معناه اللغوي مأخوذٌ من التغطية،فقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ يعني يعجب الزراع نباته؛ فالزارع يزرع الأرض، فيُخرج الله نباتها، فيُعجب النبات الزراع،

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ ثم يهيج النبات ويضطرب حال نموه فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً فييبس

ومن مارس الزراعة عرف هذا جيداً، فهو يرى بعينه بعدما وضع الحبة الصغيرة وكفرها في الأرض، ثم يرى عوداً صغيراً يشق طريقه من الحبة ليخرج ظاهراً على سطح الأرض، ثم يكبر العود ويقوى ويصير طويلاً، وترى الأرض مُخضرةً، تخرج ثمارها، ثم بعد شهرٍ أو شهرين يصير الزرع حطاماً تزروه الرياح- صدق الله-، ويتسائل العاقل: أين الزهرة والخضرة، والنضرة التي كانت في الأرض؟ لقد ذهبت، وهكذا الدنيا تزهو لأهلها، فإذا حلت أوحلت، وإذا يعني اطمأن الإنسان إليها أذهبت به -ونسأل الله اللطف والعافية والسلامة، يا رب العرش العظيم-.(١)

---

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٦١) ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الْكُفَّارُ

لذلك ربنا يضرب هذا المثل للكفار ولأهل الدنيا الذين يركنون إليها، من تغرهم الدنيا ويُعجبون بها، ويركنون إليها ويطمئنون ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾

وقفةٌ: ربما كان الرجل متمكنـاً من الدنيا، عنده فيها سطوةٌ، وعنده ملكٌ، وعنده خدمٌ وحشمٌ، وعنده أموالٌ لا حصر لها، وهو في حاله هذا لا يخطر على باله شيءٌ، ثم يأخذه الله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ، فيذهب من الدنيا بلا شيءٍ؛ بلا حسنةٍ، بلا برٍ ولا إحسانٍ، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ عذابٌ شديدٌ لمن ركن إلى الحياة الدنيا واطمئن إليها، ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ لأولياء الرحمن، الذين علموا أن الدنيا ما هي إلا دارُ ممرٍ فتزودوا منها للآخرة، أخذوا الحلال وتركوا الحرام، والحلال الذي أخذوه تقربوا به لربهم جلَّ جلاله، أدوا الفرائض واستعانوا بذلك على طاعة ربهم، ووصلوا الأرحام، وأنفقوا على الفقراء والمساكين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ فالدنيا متاعٌ لكنه متاعٌ يغرُّ من لم يتقرب لربه؛ فتلهيه وتشغله، فنعوذ بالله تعالى من متاع الغرور.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

=هُنَا: الزُّرَّاعُ لِأَنَّهُمْ يُغَطُّونَ الْبَذْرَ. وَالْمَعْنَى أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَالزَّرْعِ يُعْجِبُ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ لِخُضْرَتِهِ بِكَثْرَةِ الْأَمْطَارِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ هَشِيمًا كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَإِذَا أَعْجَبَ الزُّرَّاعَ فَهُوَ غَايَةُ مَا يُسْتَحْسَنُ.

لطيفةٌ: في الفرق بين المسارعة والمسابقة:

الله تعالى يقول هاهنا في سورة الحديد سابقوا وفي آية سورة آل عمران: وسارعوا إلى مغفرة فأمر الله بالمسابقة وأمر الله بالمسارعة،

قال أبو جعفر الغرناطي رَحِمَهُ اللهُ: " المسارعة إلى الشئ قبل مسابقته قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٦١] وقد أوضحنا فى كتاب البرهان أن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين، وأما ترتيب الآى فلا توقف فيه، وأن ذلك كله معتمدٌ فيه على غير ترتيب النزول، وإذا ثبت هذا فوجه تقديم لفظ "سارعوا " تقديم المسارعة ووجه تأخير سابقوا بناء المسابقة على المسارعة، ألا ترى أن المسارع إلى الشئ قد يحصل له ما سارع إليه وقد لا يحصل ولا يقال فى الغالب سبق إلا فيمن تحصل له مطلوبه هذا هو الأكثر والمسارعة متقدمة فى الرتبة قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٦١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى ثبتت وحقت لهم، وعن عليٍ رضى الله عنه: سبق رسول الله ﷺ وثنى أبو بكر وثلث عمر ..."(١)

وقال ابن عرفة رَحِمَهُ اللهُ: "والمسارعة تستلزم المسابقة؛ لأن من أسرع إلى الشيء فهو يسبق غيره إليه، ولا بد بخلاف المسابقة فإنه قد يسبق إليه من غير إسراعٍ، وقال أبو جعفر الزبير: أنما قال هنا -يعني آل عمران-: سَارِعُوا وفي سورة الحديد: سَابِقُوا لتقدم

(١) ينظر "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل" لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٩٠).

المسارعة في التوبة على المسابقة فقدمت عليها في التلاوة؛ ولأن من سابق فقد سارع، ومن أسرع فقد سبق، وقد ... فعله سبق، وهو نصٌ في حصول المقصود، وسارع من أسرع، وليس بنصٍ في حصول المقصود؛ لأنه قد يُسرع ولا يتصل بالغرض."(١)

والخلاصة: أن المسابقة هي العدو والتنافس، فيجري العبد بكل قوةٍ ليسبق إلى مرضاة ربه، والمسارعة هي المبادرة وسرعة الابتداء؛ فيبتدر العبد الخير، ويحرص أن يكون أول من يبدأ، وكذلك يُسابق مع المتسابقين، ويسبقهم إلى فعل الخيرات،

وينبغي أن ننتبه إلى الارتباط الوثيق بين هذه الآيات الجليلة، الآية السابقة ربنا تعالى زهدنا في الدنيا، فقال: ﴿**ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ**﴾ إلى آخر الآية الكريمة، ثم بعدها يقول لنا: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ أي دَعُوا الحياة الدنيا و الركون إليها، و ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ سابقوا إلى الأقوال والأعمال التي تُوجب لكم الغفران،

من أسباب المغفرة:

١ – التوبة إلى الله؛ فمن تاب إلى الله تاب الله عليه.

٢ – الاستغفار بقولك اللهم اغفر لي، أو أستغفر الله وأتوب إليه، أو أي صيغةٍ تسأل الله بها أن يغفر لك، ولا تغفل عن الثلث الأخير–أسأل الله أن يحيينا في هذا الوقت المبارك الشريف لمناجاة مولانا–، كمارُوي **عن أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ، قال:" ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل**

(١) ينظر " تفسير ابن عرفة " (١/ ٤١١).

الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له".[١]

٣ – وكذلك الصلوات الخمس والمواظبة عليها توجب بإذن الله للعبد المغفرة.

٤ – وكذلك الجمعة، والغريب أن كثيراً من المسلمين- إلا من رحم الله- يتأخرون عن الجمعة؛ فمنهم من يأتي والخطيب في آخر الخطبة، ومنهم من يأتي والخطيب يصلي، ومنهم من لا يصلي الجمعة، وفي الحديث **عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ رضي الله عنه -وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا، طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ».**[٢]

وعن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهم، أنهما سمعا رسول الله ﷺ، يقول على أعواد منبره: **«لينتهينَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِم الجُمُعات، أو ليختمنَّ الله على قلوبهم، ثم ليكوننَّ من الغافلين»**[٣]،

٥ –صيام رمضان، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣٢١)، ومسلم في " صحيحه " (٧٥٨).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٠٥٢)، والنسائي في " المجتبى " (١٣٦٩)، و " الكبرى " (١٦٦٨)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٦١٤٣).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٨٦٥) والنسائي في " الكبرى " (١٦٧٠) وأحمد في " مسنده " (٢١٣٢).

رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[١] – اللهم بلغنا رمضان يا رب العالمين، اللهم بلغنا ولا تجعلنا من المحرومين –، **عن أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»**[٢]

٦ – وكذلك من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، **عن حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ، رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِإِنَاءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى كَفَّيْهِ ثَلاَثَ مِرَارٍ، فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الإِنَاءِ، فَمَضْمَضَ، وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاَثًا، وَيَدَيْهِ إِلَى المِرْفَقَيْنِ ثَلاَثَ مِرَارٍ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلاَثَ مِرَارٍ إِلَى الكَعْبَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**.[٣]

٧ – ومن ذلك قوله سبحان الله وبحمده مائة مرةٍ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ "**[٤]، فيقولها العبد في دقائق يسيرةٍ فيحوز هذا الأجر العظيم.

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٨)، ومسلم في " صحيحه " (٧٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٣٣)، والترمذي في " سننه " (٢١٤)، وأحمد في "مسنده" (٨٧١٥)، وابن خزيمة في "صحيحه" (٣١٤).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٥٩)، ومسلم في " صحيحه " (٢٢٦).

(٤) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٠٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٩١).

٨ – وكذلك أن يعامل العبد الناس بالغفران، فيغفر لعباد الله، ويعفو عسى الله أن يعفو عنه،

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».(١)

فهذه أمورٌ يسيرةٌ سهلةٌ جداً، نسأل الله أن يكرمنا بها، ويجعلنا في عداد الصالحين، لأن أعظم ما يخافه العبد على نفسه ذنوبه، لذلك ينبغي عليه أن يأخذ بأسباب المغفرة.

وقفةٌ: مولانا يأمرنا بالمسابقة إلى مغفرته: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ**﴾ وسلفنا الصالح عقلوا هذا جيداً، فلذلك تجد الواحد منهم كان فِعْلُ الخير بالنسبة إليه أعظم من كل محبوبٍ، لأنه يتقرب به إلى حبيبه جلَّ جلاله، وتباركت أسماؤه، ولذلك كانوا يتنافسون في فعل الخيرات، عملاً بقول الله تعالى: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ وعملا بقوله جلَّ جلاله: سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي،

---

(١) **(صحيح)** أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٣٨٠)، وأحمد في "مسنده" (٦٥٤١)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (٣٢٠)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٦٨٤٤)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢٢٥٧).

ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم» قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «تسبحون، وتكبرون، وتحمدون، دبر كل صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين مرة» قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»"(١)

وقد ورد الحديث بروايةٍ عند أبي داود فيها أن السائل هو أبو ذرٍ، **عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَصْحَابُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فُضُولُ أَمْوَالٍ يَتَصَدَّقُونَ بِهَا، وَلَيْسَ لَنَا مَالٌ نَتَصَدَّقُ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ تُدْرِكُ بِهِنَّ مَنْ سَبَقَكَ، وَلَا يَلْحَقُكَ مَنْ خَلْفَكَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ بِمِثْلِ عَمَلِكَ؟» قَالَ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «تُكَبِّرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ، ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَخْتِمُهَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»**(٢)

ومن فوائد ذلك الحديث:

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٨٤٣)، ومسلم في " صحيحه " (٥٩٥).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود (١٥٠٤) واللفظ له، وابن حبان في "صحيحه" (٢٠١٥)، والطبراني في "الأوسط" (٢٩٩)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٠٠).

١ – أن فضل مال الأغنياء كانوا ينفقونه في أنواع البر؛ في الصدقة، وفي الجهاد، وفي العمرة، وفي الحج،

٢ –قول النبي ﷺ : **«تسبحون، وتكبرون، وتحمدون، دبر كل صلاةٍ ثلاثـًا وثلاثين مرةً»**، وهذه من السنن التي يستهين بها كثيرٌ من الناس، كثيرٌ من إخواننا الكرام إذا صلى سلم وانصرف، فلو جلس ثلاث دقائق أو أربع، وصَبَّر نفسه لله حتى يعلم هذا الخير،

٣– حرص الصحابة والصالحين على أن لا يسبقهم أحدٌ إلى الله ، حتى ولو امتازوا عليه بمزية، فقد سمع الأغنياء بما فعله الفقراء ففعلوا مثلهم،

٤ – قوله ﷺ: **"ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"** ،أن التوفيق للطاعات بيد الله عزَّ وجلَّ –نسأل الله من فضله–.

سلفنا الصالح ما كانوا يقصرون أبداً في شيءٍ يقربهم إلى الله، ومن عجيب ما قرأت أن عبد الله بن الزبير الذي تربى على الإيمان منذ نعومة أظفاره؛ فنعم التربية هذه، ربته أمه أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنهما ذات النطاقين، ورباه أبوه الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري رسول الله ﷺ، وكذلك ربى عبد الله بن الزبير أبناءه على نحو هذه التربية، فرُوي عن عامر ان عبد الله بن الزبير، ومن شابه أباه فما ظلم، كان أبوه تقيـًا ورعـًا يخشى على نفسه من الحرام، والولد صار مثل أبيه، وهذه نعمةٌ مِن نعم الله عزَّ وجلَّ على العبد، فعامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين وهو من كبار التابعين، تعب ومَرِضَ مَرَض وفاته، وما كان يتخلف عن الجماعة، وفي آخر أيامه؛ بل في آخر ساعاته، أذَّن المؤذن للمغرب

قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: "سَمِعَ عَامِرٌ المُؤَذِّنَ وَهُوَ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: خُذُوا بِيَدِي. فَقِيْلَ: إِنَّكَ عَلِيْلٌ!

قَالَ: أَسْمَعُ دَاعِيَ اللهِ، فَلاَ أُجِيْبُهُ. فَأَخَذُوا بِيَدِهِ، فَدَخَلَ مَعَ الإِمَامِ فِي المَغْرِبِ، فَرَكَعَ رَكْعَةً، ثُمَّ مَاتَ."(١)،

هنيئًا له، -اللهم توفنا مثل هذ الميتة الجميلة يا رب العالمين، اجعل وفاتنا على التوحيد والسنة، واجعلها آيةً لأهل السنة؛ أننا عشنا عليها ومتنا عليها يا حي يا قيوم، اللهم استجب يا كريم-.

ينبغي أن نعرض أنفسنا على كلام النبي ﷺ وماذا قال؛ حتى نعرف من أين أتى هذا الكسل الرهيب، والفتور صعب الذي عندنا، ينبغي على العبد أن يسابق إلى الطاعات، أين المسابقون إلى صلاة الفجر، أين المسابقون لحضور مجالس العلم، أين المسابقون في قراءة القرآن وحفظ القرآن، ولذلك في الحديث الذي في صحيح الإمام مسلمٍ، **عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**(٢)

وقفةٌ: هناك مِن الناس مَن يبيع دينه من أجل أن يُوظَّف في وظيفةٍ، أو يبيع دينه من

---

(١) أورده الذهبي في " سير أعلام النبلاء " (٥/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١١٨)، والترمذي في " سننه " (٢١٩٥)، وأحمد في " مسنده " (٨٠٣٠)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٧٠٤).

أجل ألف ريالٍ، أو ألف دولارٍ، أو ألف جنيهٍ، أو يبيع دينه من أجل التقرب إلى ظالمٍ أو غير ذلك، أو يبيع دينه من أجل شهوةٍ فيقع في الفسق والفجور، والرسول ﷺ يحثُّنا على المبادرة بالأعمال وأنها ستكون هناك فتنٌ تشغل العباد، ونحن الآن وقعنا في فتنٍ الله بها عليمٌ، وما كان المرء يحلم أن يحيا حتى يُدرك هذه الأيام التي نعيش فيها، قد تغيرت قواميس العباد، وتغيرت المقدسات عند الناس، والثوابت صارت متغيراتٍ، والمحترمون والمقدسون صاروا ليس لهم تقديسٌ وليس لهم احترامٌ، نسأل الله أن يثبتنا في هذا الزمان يا رب العالمين.

لذلك ينبغي علينا أن نمتثل وأن نبادر بالأعمال الصالحات، نسابق إلى الله بركعتين، بقراءة قرآنٍ، بصيام يوم، باستغفارٍ - نسأل الله الإعانة-، بمثل هذا نثبت على الحق بإذن الله، فقول النبي ﷺ **"بادروا بالأعمال فتناً"**، يعني بادروا بالأعمال قبل وقوع الفتن، أو قبل أن تكون فتنٌ كقطع الليل المظلم، وهي فتنٌ لا يهتدي فيها الناس، ولكن الراسخون في العلم يوفقهم مولاهم جلَّ جلاله، ويعصمهم، و يهديهم بهداه جلَّ جلاله ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ اللهم اجعلنا منهم يا كريم.

وفي سنن الترمذي والحديث ضعفه عدد كبير من أهل العلم، وبعضهم يحسنه، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تُنْظَرُونَ إِلَّا إِلَى فَقْرٍ مُنْسٍ، أَوْ غِنًى مُطْغٍ، أَوْ مَرَضٍ مُفْسِدٍ، أَوْ هَرَمٍ مُفَنِّدٍ، أَوْ مَوْتٍ مُجْهِزٍ، أَوِ الدَّجَّالِ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةِ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ»** (١) يعني بادروا بالأعمال الصالحة قبل أن

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣٠٦)، والحاكم في "المستدرك" (٧٩٠٦)، وضعفه

يحلَّ عليكم واحداً من هذه السبع:

"فقراً منسياً" -عافانا الله-، كم من شابٍ صالحٍ، وكم من إنسانٍ محبٍ للخير، محبٍ للمساجد، محبٍ للقرآن، لكن رزقه ضيقٌ؛ تجده يلهث في الدنيا؛ يعمل ثمانية عشر ساعةٍ أو خمسة عشر ساعةٍ، من أجل أن يكون آخر الشهر مستوراً براتبه، فلا يعجب من هذا من كفاه مولاه، ويسر رزقه، وبسط له في الأرزاق ولعل عنده ما يفيض عن حاجته، فليحمد الله؛ فهذا ما الذي يمنعه من العمل الصالح؟، فإذا لم يكن فقيراً ماذا ينتظر؟،

"أو غناً مطغياً" هل ينتظر العبد حتى يطيع ربه ويعمل من الصالحات أن يغنيه الله فينشغل ويلهيه الغنى؟، وهذا هو غالب حال الخلق، كما قال تعالى: ﴿**كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ**﴾ [العلق: ٦] متى ؟ ﴿**أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ**﴾ [العلق: ٧] رأى نفسه استغنى بالمال والحسب والنسب والمنصب العالي، فلا يذهب ليصلي جماعةً، ولا يختلط بالمصلين الفقراء والمساكين في المسجد، بل لو صلي يصلي في أي مكانٍ.

"أو مرضاً مفسداً" فالأمراض تفسد حياة الإنسان، فلا يستطيع المشي، ولا يستطيع الركوع، ولا يستطيع السجود، وكم من إنسانٍ حال المرض بينه وبين طاعة الله عزَّ وجلَّ، لذلك المرض يفسد على العبد حياته، فلا يستمتع بطعامٍ ولا بشرابٍ ولا

=الألباني في " السلسلة الضعيفة " (١٦٦٦) وقال فيه الترمذي هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مُحَرَّرِ بْنِ هَارُونَ، وقال الحاكم (فَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

بزوجةٍ، ولا بأولادٍ ولا بمالٍ ولا بشيءٍ، وكل ما يرجوه السلامة والعافية- نسأل الله العافية-، فمن مَنَّ الله عليه بالعافية، والمقصود أنه وإن اشتكى من تعبٍ فلا يخلو الإنسان من منغصاتٍ في الصحة لكن طالما لا يعوقه تعبه عن طاعة الله بصورةٍ طيبةٍ؛ فيستطيع أن يذهب من بيته للمسجد، ويستطيع أن يذهب من بيته لعمله، ويستطيع أن يذهب لقضاء حاجات الأولاد ومتطلباتهم؛ فهذه نعمةٌ، فمن كان هذا حاله فليبادر بالأعمال الصالحة قبل أن يُقدِّر الله مرضـًا -نسأل الله أن يديم علينا وعليكم العافية-،

"أو هرمـًا مفندًا" الهرم هو الكبر، وهو الحال الذي ذكره الله في قوله: ﴿**وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً**﴾ نعوذ بالله من هذا،

فالمؤمن يبادر بما استطاع من الأعمال الصالحة، وكان هذا حال سيد المرسلين ﷺ، كما في هذا الحديث، ومن لطيف المناسبة أن الحديث رواه الإمام البخاري **عن أبي سروعة عُقْبَةَ بن الحارث رضي الله عنه ، قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ العَصْرَ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ، فَقَالَ: «ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ»**(١)

التبر شيءٌ من ذهب، وقيل الذهب المكسور، فهو شيءٌ يسيرٌ من ذهب، تذكر الرسول ﷺ أنه موجودٌ عنده، وكان قد أعده للصدقة فخشي أن تقبض روحه والصدقة

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٨٥١)، والنسائي في "المجتبى" (٨٥١)، و في " الكبرى " (١٢٩٠)، وأحمد في " مسنده " (١٦١٥١)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٤٧٦).

لم تخرج لصاحبها، وكان من عادته أن يصلي ويمكث في مكانه يذكر الله، وإذا به يصلي ويقوم يتخطى رقاب الناس، ليعجل بإخراج الصدقة، ويقول: أمرت بإخراجها فكرهت أن يحبسني.

عن أي شيءٍ تحبسه؟ تحبسه عن دخول الجنة، حتى يُسئل عنها عليه الصلاة وأتم السلام. فكم علمت فقيراً تستطع أن تساعده وما فعلت؟ كم علمت من ذوي رحمك ويمكن أن تكشف عنهم ضراً وترفع عنهم بلاءً وما فعلت؟ كم علمت من يتيمٍ يمكن أن تواسيه بما يسَّر الله لك وما فعلت؟

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أتى رسول الله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم؟ فقال: " أن تصدق وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، ألا وقد كان لفلانٍ"(١)

فلا ينتظر أحدٌ حتى تبلغ الروح الحلقوم، فيقول يا بني تصدق بصدقةٍ لعمك فلانٍ، وأعطي اليتيم فلانـًا، ولكن أخرج في حياتك، واستمتع بمالك، وانتفع به في أخراك.

وعن أنسٍ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أخذ سيفـًا يوم أُحدٍ فقال: «من يأخذ هذا السيف؟» فأخذه قومٌ فجعلوا ينظرون إليه، فقال: «من يأخذه بحقه؟» فأحجم القوم،

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤١٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٣٢).

فقال أبو دجانة سماك: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق هام المشركين"[١]، فمن يسارع إلى الخير فيستعمل نعم الله في طاعته فذلك حقها.

عَنْ سهل بن سعد رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيُّهم يعطاها، قال فلما أصبح الناس غدواً على رسول الله ﷺ، كلهم يرجون أن يُعطاها، فقال أين علي بن أبي طالبٍ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال فأرسلوا إليه، فأُتيَ به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌ: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: «انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم»[٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه رسول الله ﷺ، قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه» قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال فتساورت لها رجاء أن أدعى لها، قال فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٢٢٣٥)، والحاكم في " المستدرك " (٥٠١٨)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٣٢٧)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٢٣٢)، وصححه الألباني في " تحقيق فقه السيرة " للغزالي ص ٢٥٢

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٧٠١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٤٠٦).

طالب، فأعطاه إياها"[١]

فانظر كيف كان سلفنا الصالح يتسابقون في الخيرات، ويرجون ما عند الله.

عن أنس بن مالكٍ ﷺ، قال: "بعث رسول الله ﷺ بسيسةٍ عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان، ... فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدرٍ، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتى أكون أنا دونه»، فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض»، قال: - يقول عُمَير بن الحمام الأنصاري: - يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمراتٍ من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلةٌ، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِل".[٢]

ما عرفنا في حياتنا -أبداً- مسارعةً في الخيرات بمثل المسابقة التي كانت عند سلفنا الصالح، **أبو طلحة ﷺ لما نزل قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا**

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٤٠٥)، والنسائي في "الكبرى" (٨٣٥٠)، وأحمد في " مسنده " (٨٩٩٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٩٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٩٠١)، وأحمد في " مسنده " (١٢٣٩٨)، والحاكم في " المستدرك " (٥٧٩٨).

تُحِبُّونَ﴾ جاء إلى النبي ﷺ وقال يا رسول الله أنزل الله عليك هذه الآية وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء وهي صدقةٌ لله أرجو بِرَّها وذُخرها عند الله تعالى، وهذه صدقةٌ عظيمةٌ؛ فبيرحاء حديقةٌ عظيمةٌ أمام مسجد النبي ﷺ وكان بها بئرٌ به ماءٌ عذبٌ، كان رسولنا الكريم ﷺ يدخل ليشرب منه، فجعل الحبيب ﷺ يقول "بخٍ بخٍ ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ"، وفي روايةٍ**" ذلك مال رايحٌ"**، ذلك يعني رايح عائدته عليك، رضي الله عنه، **"وأرى أن تجعلها في الأقربين، فقسمها على أقربائه."**(١)

وكما قال الله تعالى: ﴿**وَهُمْ لَهَا سَابِقُوْن**﴾، **وعن عُمَرَبْنَ الْخَطَّابِ، رضي الله عنه يَقُولُ: " أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا"**.(٢)

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ وأنا معه وأبو بكر، على عبد الله بن مسعود وهو يقرأ، فقام فتسمع قراءته، ثم ركع عبد الله وسجد، قال: فقال رسول الله ﷺ: «سل تعطه، سل تعطه»، قال: ثم مضى رسول الله ﷺ وقال: «من سره أن يقرأ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) (حسن) أخرجه أبو داود في " سننه " (١٦٧٨)، والترمذي في " سننه " (٣٦٧٥)، والدارمي في "سننه" (١٧٠١)، وابن أبي عاصم في "السنة" (١٢٤٠)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٣٢)، وحسنه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٦٠٣٠).

القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه من ابن أم عبد» ، قال: فأدلجت إلى عبد الله بن مسعود لأبشره بما قال رسول الله ﷺ، قال: فلما ضربت الباب - أو قال لما سمع صوتي - قال: ما جاء بك هذه الساعة؟ قلت: جئت لأبشرك بما قال رسول الله ﷺ، قال: قد سبقك أبو بكر، قلت: إن يفعل فإنه سباق بالخيرات، ما استبقنا خيرا قط إلا سبقنا إليها أبو بكر "(١)

وفي روايةٍ أن ابن مسعودٍ رضي الله عنه ركع وسجد فقال ﷺ : **"سل تعط"**(٢)، وفي رواية **أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " اللهم إني أسألك نعيما لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة النبي محمد في أعلى جنة الخلد" قال الرسول ﷺ: "آمين"**(٣)، أمن على دعائه شيء عظيم،

وهذا من أدلة أهل السنة والجماعة في عقيدتهم على أن أبا بكرٍ هو أفضل هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ ، فلا يوجد في الأمة أفضل من أبي بكرٍ أبداً، هو أفضلهم بعد رسولهم ﷺ ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وكذلك حتى نعلم كيف جاءت فضيلته لأنه سباق إلى كل خيرٍ وكل برٍ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٦٥)، وابن خزيمة في " صحيحه " (١١٥٦)، والحاكم في " المستدرك " (٢٨٩٣)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٣٠١).

(٢) سبق في الحديث الذي قبله

(٣) أخرجه النسائي في "الكبرى" (١٠٦٣٩)، وابن حبان في "صحيحه" (١٩٧٠)، والحاكم في "المستدرك" (١٩٢٨)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٦/ ٢٥٧).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟» قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازةً؟» قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: أنا، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟» قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ، إلا دخل الجنة»"(١).

فالأمر ليس بالتمني، ولا أن يجلس الإنسان فيقول: ربنا رب قلوبٍ وأنا الحمد لله قلبي طيبٌ وطاهرٌ، لا؛ بل طهارة القلب وطيبته تظهر في مسارعته للأعمال الصالحة، فلو أن القلوب طاهرة لدفعت الجوارح إلى العمل.

وهذا بلالٌ رضي الله عنه يسبق إلى الجنة، كما الحديث في الصحيح، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبِلاَلٍ: «عِنْدَ صَلاَةِ الفَجْرِ يَا بِلاَلُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الإِسْلاَمِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الجَنَّةِ» قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا، فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ "**(٢)،

قال ابن القيم رحمه الله: "وأما تقدم بلال بين يدي رسول الله ﷺ في الجنة فلأن بلالاً كان يدعوا إلى الله أولاً في الأذان فيتقدم أذانه بين يدي رسول الله ﷺ فتقدم دخوله بين

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٠٢٨)، والنسائي في " الكبرى " (٨٠٥٣)، وابن خزيمة في " صحيحه " (٢١٣١).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١٤٩)، ومسلم في " صحيحه " (٢٤٥٨).

يديه كالحاجب والخادم." (١) فلا أحد يتقدم على الرسول ﷺ لأفضليته عليه بعمله لأنه سيد ولد آدم ﷺ، وهو أول من تفتح له أبواب الجنة، نسأل الله من فضله الكريم يا رب العالمين.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»(٢)، يعني سابق بالخير، ولو بغرس الشجر، أو زرع النبات فلك فيه أجرٌ، كما جاء **عَنْ أَنَسٍ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ.**"(٣)

فسلفنا الصالح كانوا يبادرون لعلمهم أن التؤدة في فعل الخير ليست مطلوبةً، **عن سعد رضي الله عنه قَالَ، قال ﷺ: « التُّؤَدَةُ فِى كُلِّ شَىْءٍ إِلاَّ فِى عَمَلِ الآخِرَةِ »** والحديث رواه أبو داود والحاكم وصححه العلامة الألباني رحمه الله تعالى.(٤)،

---

(١) ذكره ابن القيم في " حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح " (١١٦).

(٢) (صحيح) أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (٤٧٩)، وأحمد في "مسنده" (١٢٩٠٢)، وأبو داود الطيالسي في " مسنده " (٢١٨١)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٢١٦)، وصححه الألباني في " صحيح الأدب المفرد " (٤٧٩).

(٣) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٣٢٠)، ومسلم في " صحيحه " (٣٩٧٤).

(٤) (صحيح) أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٨١٢)، والحاكم في " المستدرك " (٢١٣)، والبيهقي في "الزهد الكبير" (٧١٤)، وأبو يعلى في "مسنده" (٧٩٢)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٧٩٤).

فلا يتوانى العبد عن فعل الخير، لأن الشيطان يريد منه التوانى لتفتر همته، ويفوت منه العمل الصالح.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَؤُهَا»(١)،

وعنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ نَبِيُّكُمْ ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»(٢) حتى نبتدر فعل الخيرات.

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، إِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ»(٣) بوجه طلقٍ فيه بشاشةٌ، ولو أن تفرغ من دلوك في في إناء أخيك، هذا صدقة.

وعَنْ سُلَيْمِ بْنِ جَابِرٍ الْهُجَيْمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُحْتَبٍ فِي بُرْدَةٍ، وَإِنَّ هُدَّابَهَا لَعَلَى قَدَمَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «عَلَيْكَ بِاتِّقَاءِ اللهِ، وَلَا

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٤٦٦)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٦٦)، والحاكم في " المستدرك " (٢٠٣٠)، وصححه الألباني في " صحيح سنن أبي داود" (١٣١٧).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠٠٥)، والبخاري في " الأدب المفرد " (٢٣٣)، وأبو داود في "سننه" (٤٩٤٧)، وابن حبان في " صحيحه " (٣٣٧٨)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٣٧٠).

(٣) **(حسن)** أخرجه الترمذي في "سننه" (١٩٧٠)، والبخاري في "الأدب المفرد " (٣٠٤)، وأحمد في "مسنده" (١٤٨٧٧)، وحسنه الألباني في " صحيح الأدب المفرد " (٣٠٤).

تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ لِلْمُسْتَسْقِي مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَائِهِ، أَوْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَلَا يُحِبُّهَا اللهُ، وَإِنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ مِنْكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِشَيْءٍ تَعْلَمُهُ مِنْهُ، دَعْهُ يَكُونُ وَبَالُهُ عَلَيْهِ، وَأَجْرُهُ لَكَ، وَلَا تَسُبَّنَّ شَيْئًا» ، قَالَ: فَمَا سَبَبْتُ بَعْدُ دَابَّةً وَلَا إِنْسَانًا "[١] .

الصحابة الكرام كانوا يبتدرون الأعمال الصالحة لعلمهم أنها من أحب الأعمال إلى الله، والمسارعة في الخير هذا من أحب ما يتقرب به العبد إلى ربه، ولذلك كانوا يسألون النبي عن ما يحبه الله من الناس ومن الأعمال، **فعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَئِنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ "**.[٢]

---

(١) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (١١٨٢)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٢٢)، والطبراني في "الدعاء" (٢٠٥٩)، وابن المبارك في "الزهد" (١٠١٧)، وصححه الألباني في " صحيح الأدب المفرد " (١١٨٢).

(٢) **(حسن)** أخرجه الطبراني في " المعجم الأوسط " (٦٠٢٦)، و" المعجم الصغير " (٨٦١)،

والناظر إلى الصحابة يجد أنهم ضربوا في كل طاعةٍ بسهمٍ ما استطاعوا، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:" لم يكن أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ذو مقدرة إلا وقف ."[١]، فالوقف يوقفه العبد في حياته لنفسه بعد مماته، فيجد هذا البر وهذا الخير في ميزانه يوم القيامة، لذلك ينبغي على العبد منا أن يتسابق في أعمال الخير.

وأبواب الخير في ديننا عظيمةٌ وكثيرةٌ جداً، ومن ذلك ما جاء **عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، أنه قال: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقةٌ، فكل تسبيحةٍ صدقةٌ، وكل تحميدةٍ صدقةٌ، وكل تهليلةٍ صدقةٌ، وكل تكبيرةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»**[٢] كل سلامى يعني العظم والمفاصل.

=وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٠٦).

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في " المجموع شرح المهذب " (١٥/ ٣٢٣) على أن الوقف عند أكثر أهل العلم من السلف ومن بعدهم على القول بصحته.

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ في " المغني " (٨/ ١٨٥) وأكثر أهل العلم من السلف ومن بعدهم على القول بصحة الوقف قال جابر : لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف .والأثر أخرجه أبو بكر الخصاف في " أحكام الأوقاف " (١٥) وينظر " التحجيل في تخريج ما لم يخرج من الأحاديث والآثار في إرواء الغليل " ص ٢٥١ للشيخ عبد العزيز بن مرزوق الطّريفي.

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٢٠)، وأبو داود في " سننه " (١٢٨٥)، والنسائي في "الكبرى" (٨٩٧٩)، وأحمد في "مسنده" (٢١٤٧٥)، وابن خزيمة في "صحيحه" (١٢٢٥).

وفي روايةٍ **"خلق ابن آدم على ثلاثمائة وستين مفصلا"**[١] يعني في الإنسان ثلاثمائةً وستين مفصلاً، يحتاج أن يتصدق عنها كل يوم بصدقة.

وفي حديث **أبي موسى** رضي الله عنه **عن النبي** ﷺ **قال: «على كل مسلمٍ صدقةٌ» قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال «يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق» قال قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف» قال قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يأمر بالمعروف أو الخير» قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «يمسك عن الشر، فإنها صدقة»"**.[٢]

فانظر لهذا الدين وكيف يحث على عمارة الدنيا لله، فمن تصدق بفضل الله تعالى فهذا خيرٌ، ومن كَّف نفسه فهذه صدقةٌ عظيمةٌ، فمن لم يجد، فسعى وبحث وقدم في الوظائف ولم يُسر له، يغيث ذا الحاجة الملهوف، فإن لم يجد، فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها صدقةٌ منه على نفسه.

و هناك بيتٌ جميلٌ للمتنبي يقول فيه:

إذا كانت النُّفوسُ كِباراً تَعِبَت في مُرادِها الأجسامُ[٣]

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٠٠٧)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٦٠٥) وابن حبان في " صحيحه " (٣٣٨٠)، وأبو الشيخ في "العظمة" (٥/ ١٦٢٠).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤٤٥)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٠٨) عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده، به.

(٣) من قول المتنبي، ينظر " شرح ديوان المتنبي " للواحدي (ص ١٩٣).

كثيرٌ من مشايخنا الكرام نراهم دائماً شاحبي اللون، يُجهَدون، يؤدون محاضراتهم ودروسهم في قمة التعب، وتجد عندهم إعانةً عظيمةً عجيبةً، فقد كنا نتعجب كيف؟ فالشيخ يؤدي دروساً في الصبح، والظهر، والعصر، والعشاء، ويُفتي، ويُقيم الليل، ويصوم الاثنين والخميس، ويُكرم الضيف، نتعجب!!!، إنما هي بركةٌ من بركات الله يجعلها لمن عمل لشرعه، تجد عنده بركةً في حياته وفي وقته، ببركة أنه أقبل على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فعمل بها، وربنا تعالى يقول: فاستبقوا الخيرات وقال: فاسعوا إلى ذكر الله.

يقول الله جلَّ جلاله: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ**﴾ هذه الجنة تنُال بأصول الدين وفروعه، فلا بد للعبد أن يُسابق إلى أصول الدين ويصحح عقيدته، ويسارع في فروع الدين في كل خيرٍ وبرٍ، كما ورد عَنْ أَبِي وَائِلٍ، **عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»**[1]، جنةٌ قال لنا ربنا عنها: ﴿**عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ**﴾ قال القرطبي:" وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لَوْ وُصِلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

قَالَ الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني جميع السموات وَالْأَرَضِينَ مَبْسُوطَتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٨٨)، وأحمد في "مسنده " (٣٦٦٧)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٦١).

صَاحِبَتِهَا. وَقِيلَ: يُرِيدُ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ أَيْ لِكُلِ وَاحِدٍ جَنَّةٌ بِهَذِهِ السَّعَةِ."[١]، ولا شك أن هذا تقريبٌ،

وفي الحديث عَنْ عَبِيدَةَ، **عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا، فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي - أَوْ: تَضْحَكُ مِنِّي - وَأَنْتَ المَلِكُ " فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَقُولُ: «ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً»**[٢]، سبحانك ربي ما أعظمك!

جنةٌ عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ[٣]، فلماذا يكسل العبد عن عمل الخير الذي يقربه من الله ويوجب الله له به الجنة؟!

وأعظم ما يوجب للعبد الجنة هو الإيمان بالله، كما في حديث **أبي ذرٍ -الذي مرَّ،**

---

(١) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٦٢).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٨٨)، ومسلم في " صحيحه " (١٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٤٤)، والنسائي في "الكبرى" (١١٠١٩)، وابن ماجه في "سننه" (٤٣٢٨)، وأحمد في "مسنده" (٨١٤٣) من حديث أبي هريرة.

قلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله، قال: "الإيمان بالله، والجهاد في سبيله".[(١)]

كما قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة، فهؤلاء -على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح -لهم جنات الفردوس."[(٢)]

يشمل وصف الإيمان أصول الدين وفروعه، فكل الدين يتقرب العبد به إلى الله، وعنوان ذلك أن يكرمه الله بالإحسان، فيما بينه وبين الله، والإحسان فيما بينه وبين المخلوق، وهذا من أعظم ما يتفضل به عليه، حتى يفتح له أبواب الجنة، فيُكرم بالإحسان فيما بينه وبين الرحمن، وأن يُحسن إلى الخلق، فيُعاملهم معاملة المحسن.

فلذلك ربنا تعالى يقول: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ**﴾ ينبغي أن نستفيد من القرآن، ربنا قال: وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالأَرْضِ أعدت لمن؟ ﴿**لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ**﴾ ليس بالله ورسوله فقط، بل ورسله؛ فهذه الجنة تُعدُّ لمن آمن بالله حق الإيمان، ووحد الله حق التوحيد، فلم يشرك مع الله شيئًا لا في ربوبيته، ولا في إلهيته، ولا في أسمائه وصفاته، ويؤمن بجميع الرسل.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) ذكره السعدي في " تيسير الكريم الرحمن" (ص ٤٨٨).

وبناءً على ذلك؛ هل اليهود من أهل الجنة؟ بل هم من أهل النار، وكذلك النصارى، فمنذ بعثة الرسول ﷺ من لم يؤمن ويدخل في دين الإسلام فهو كافرٌ، وهو من أهل النار، إذن لأنهم لم يؤمنوا بالله ورسله أيضـًا، يعني من آمن منهم بموسى وكفر بعيسى وكفر بالنبي محمدٍ ﷺ، فهو كافرٌ، ومن آمن بموسى وآمن بعيسى وكفر برسول الله محمدٍ ﷺ، فهو كافرٌ أيضـًا، فمن كفر برسولٍ واحدٍ فقد كفر بجميع الأنبياء، قال الله تعالى: كذبت قوم نوحٍ المرسلين ولم يكن هناك رسولٌ إلى أهل الأرض قبل نبي الله نوحٍ، لكن من كذب رسولاً فقد كذب بجميع الأنبياء.(١)

والله تعالى أخذ العهد والميثاق على الأنبياء جميعـًا لو بعث رسول الله ﷺ وهم أحياء أن يؤمنوا به ويتبعوه، وأيضا بشر موسى وعيسى عليهما السلام برسول الله محمدٍ ﷺ ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ فما صدقوا عيسى فآمنوا بمحمدٍ لما بُعث ﷺ.

فاليهود والنصارى الذين علموا ببعثة النبي محمدٍ ﷺ ولم يؤمنوا به كفارٌ؛ وهذا

---

(١) قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تيسير الكريم الرحمن" (ص٥٩٤) يذكر تعالى، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع فقال: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ**﴾ جميعهم، وجعل تكذيب نوح، كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم، اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم، تكذيب، بجميع ما جاءوا به من الحق.

قولٌ فصلٌ نقطع به ألسنة السفهاء الذين يُلبسون عل الناس دينهم، قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ**﴾، وعن **أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»**"(١) ، وهذا قولٌ واحدٌ لا خلاف فيه بين علماء الأمة قديماً وحديثاً، ولم يشذ عنه إلا جاهلٌ.

فلا يجوز لعبدٍ من عباد الله الآن أن يقول أن اليهود دينهم حقٌ، أو النصارى على دين الحق، بل لهم دينهم ولنا دينٌ، ونحن لا نُكرههم على الدخول في الإسلام، فلا يجوز لأحدٍ أياً كان هو ، حاكماً، أميراً، غير ذلك، لا يجوز لأحدٍ أن يُكره أحداً من اليهود والنصارى على الدخول في الدين، لكن هذا لا يعني أن دينهم حقٌ، بل دينهم باطلٌ، وهم حرَّفوه منذ زمنٍ، فهو محرفٌ من قبل رسول الله ﷺ، وظل محرفاً في أيامه ﷺ ، واستمر التحريف بعده ﷺ إلى الآن.

قال الله تعالى: ﴿**أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ**﴾ نحن كمسلمين نؤمن بالله ورسل الله جميعاً لا نفرق بين أحدٍ منهم، ولكننا نعتقد أنهم جميعاً أنبياء الله، وأنهم رسل الله أرسلهم الله تعالى، ولكننا نؤمن أن المتَّبع فيهم والمعظم هو رسول الله محمدٌ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٥٣)، وأحمد في " مسنده " (٨٢٠٣)، وابن منده في "الإيمان" (٤٠١)، و اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " (٢٢٠٢).

ﷺ، فلا يجوز لي كمسلمٍ أن أتبع موسى أو عيسى -عليهما السلام-، بل يجب عليَّ أن أتبع رسول الله محمداً ﷺ، فلا يجوز لي أن أتبع شريعةً جاءت قبل شريعة الإسلام، فقد جائنا رسول الله ﷺ بكل خيرٍ، وبدينٍ أكمله ربي جلَّ وعلا، فقال الله: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾

قال الله تعالى: ﴿**أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ**﴾ هذه الجنة العظيمة والفضل العظيم، وبيان طرقها هذا فضل الله جلَّ جلاله، يختص ربي به من شاء من عباده، ﴿**وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١**﴾ حتى يعلم العبد أنه مهما اجتهد في العمل، فهذا فضل الله عليه، وأنه لا يستحق الجنة بعمله، فلا يقولن أحدٌ: أنا أصوم النهار وأقوم الليل وأفعل وأفعل، فإن خير من عبد ربه جلَّ جلاله رسول الله محمدٌ ﷺ نفى ذلك عن نفسه، **عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ"**.(١)

ذلك لنعلم أن الله جلَّ جلاله يؤتي فضله لمن هو أهلٌ لذلك ﴿**وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١**﴾ سبحانه عزَّ وجلَّ، فالله أعلم بمن يصطفي ومن يجتبي، ومن يستعمله لدينه، فمن كان أهلاً لهذا الخير اختصه الله به- أسأل الله أن يرزقنا وإياكم من فضله العظيم يا رب العالمين-،

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٦٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨١٦).

ثم يقول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ يقرر الله جلَّ جلاله لنا هذه العقيدة الصحيحة السليمة التي يجب أن يعتقدها كل مسلمٍ؛ وهي أن المصائب سواءٍ كانت في النفوس، أو في الأرض، أو في الجو، أو في البر، أو في البحر، أو في البهائم، أو في المياه، أو في الكون، أو في طبقات الجو، أو في أي شيءٍ، هذه المصائب قدرها الله منذ الأذل.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ في الأرض كالجدب، والقحط، وقلة النبات، وغور المياه، وعدم إنبات الزروع والثمار، وكذلك في الأرض كما قال نص السادة العلماء الحروب التي تقع في الأرض، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتَّصِلُ بِمَا قَبْلُ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هَوَّنَ عَلَيْهِمْ مَا يُصِيبُهُمْ فِي الْجِهَادِ مِنْ قَتْلٍ وَجَرْحٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُخَلِّفُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ مِنَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَمْوَالِ وَمَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ خُسْرَانٍ، فَالْكُلُّ مَكْتُوبٌ مُقَدَّرٌ لَا مَدْفَعَ لَهُ، وَإِنَّمَا عَلَى الْمَرْءِ امْتِثَالُ الْأَمْرِ".[(١)]

فكل المصائب التي تحدث قد كتبها ربنا في كتابٍ عنده، قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنةٍ، **عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات و الأرض بخمسين ألف سنةٍ، قال: وعرشه على الماء"**[(٢)]، ليس قبل أن يخلقنا نحن؛ بل قبل ان يخلق

---

(١) ينظر" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٦٤)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٨/ ٤٩٣).

.(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٥٣)، والترمذي في " سننه " (٢١٥٦)، وأحمد في "مسنده "

السماوات والأرض قدر الله تعالى المقادير، وكما عند الترمذي **عن عبادة بن الصامت** رضي الله عنه، **قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ "**(١)

وهذا شيءٌ لو تفكر الإنسان فيه يكاد عقله أن يطيش، قدر الله كل همسةٍ، كل حركةٍ، كل سكنةٍ، كل أخذٍ، كل عطاءٍ، كل إنسانٍ يولد، كل درهمٍ يُؤخذ أو يُعطى، كل همٍ، كل مصيبةٍ، كل مرضٍ، كتبه الله جلَّ جلاله في كتابٍ، هذا يدلنا على تمام علم الله عزَّ وجلَّ.

وقفةٌ: إذا أيقن العبد بهذه العقيدة استراح، فمعرفته بقول الله: ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ**﴾ في نفسه من فقد عزيزٍ، أو مرضٍ، أو حتى شوكةٍ، أو همٍ، أو تسليط ظالمٍ عليه، أي مصيبةٍ في النفس، أي مصيبةٍ في الأرض، أي مصيبةٍ في الكون-عافانا الله- ، قال الله تعالى: ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ**﴾ ألا وهو اللوح المحفوظ، كتب الله تعالى فيه كل شيءٍ يكون، وذلك لأن ربنا جلَّ جلاله أحاط بكل شيءٍ علماً، عَلِمَ ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، تبارك الله ذو الجلال والإكرام، فكل أمور الدنيا والآخرة تقع على حسب ما علم الله وعلى حسب ما كتب عزَّ وجلَّ.

= (٦٥٧٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٦١٣٨).

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه " (٣٣١٩)، وأبو داود في " سننه " (٤٧٠٠)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٧٠٧) وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة " (١٣٣).

وهذه الآية الجليلة فيها ردٌ على القدرية النفاة للعلم، لأن هناك طائفةٌ يسمون بالقدرية، ينفون علم الله للحوادث قبل وقوعها، يوقولون الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها.

فأيُّ إنسانٍ هذا الإنسان الذي يعتقد هذه العقيدة؟!، ما الفارق إذاً بين المخلوق والخالق العظيم، أنا وأنت لا نعلم ما يكون في غدٍ، وحينما يقع نعلمه، لكن الله جلَّ جلاله الذي قال عن نفسه: قد أحاط الله بكل شيءٍ علماً وقال: يعلم السر وأخفى، وقال النبي ﷺ **"كتب الله مقادير الخلائق وما هو كائنٌ وكان عرشه على الماء"**[١] يعني قبل خلق الخلق، قبل خلق السماوات والأرض، كتب الله كل شيءٍ يكون في الكون كله إلى يوم القيامة.

ثم تأتي هذه الطائفة الضالة -القدرية- وتقول : أن رب العزة جلَّ جلاله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، ومن قال ذلك كفر بالله العظيم بإجماع العلماء، وقد ظهر أول هذه الفرقة في عهد الصحابة رضي الله عنهم،روى الإمام مسلمٌ في صحيحه **عن يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوُفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناسٌ يقرءون**

(١) تقدم تخريجه

القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنفٌ، قال: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم، وأنهم برآء مني»، والذي يحلف به عبد الله بن عمر «لو أن لأحدهم مثل أحدٍ ذهباً، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر» حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يومٍ ، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ،... وذكر حديث جبريل إلى أن ...قال النبي ﷺ "وأن تؤمن بالقدر خيره وشره" .[1]

صفات هؤلاء: **"يقرؤون القرآن"**، يكثرون من قراءة القرآن ويصومون ويصلون، فليسوا كفاراً على الظاهر، و**"يتقفرون العلم"** يبحثون عن غوامض المسائل الشرعية ويتكلمون فيها مع الناس، يتقفرون العلم ويقرؤون القرآن ولكنهم يقولون **"أن الأمر أُنفٌ"** يعني الأمر مُستأنَفٌ بالنسبة لله، ولعلم الله بالأخص، فالله-كما يزعمون- يعلم الأمور بعد وقوعها.

لابد للمؤمن أن يؤمن بقدر الله، فهذه المصائب، وهذه الهموم، وهذه الأحزان؛ من تسليط الكفار، والخلاف والشقاق، ونقص الأموال، تغير الكون وما يحدث في طبقات الجو من ضررٍ، كل ذلك قدره الله ويعلمه، عزَّ وجلَّ سبحانه سبحانه.

يقول تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٨)، والترمذي في " سننه " (٢٦١٠)، وأبو داود في " سننه " (٤٦٩٥)، والنسائي في " المجتبى " (٤٩٩٠)، وابن ماجه في " سننه " (٦٣)، وأحمد في " مسنده " (١٨٤).

كتب الله كل شيءٍ فيه قبل ذلك، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٩٦﴾﴾ [يونس: ٩٦] هذا كتابٌ قديمٌ، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥] إذن هذه عقيدةٌ لا بد لنا أن نعتقدها؛ بل لا يصح إيمان المرء إلا بها؛ أن نؤمن بالقدر خيره وشره،

وبعض السادة العلماء قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ وتنكير مصيبة في سياق نفيما من صيغ العموم، أي كل المصائب التي تصيب الخلق من الخير والشر.

فما يحدث من أي شيءٍ في الكون؛ خيرٍ أو شرٍ، إلا وقد كتبه الله سبحانه جلَّ جلاله في كتابه وهو اللوح المحفوظ، وهذا الكتاب عند الله تبارك وتعالى، قال العلامة السعدي: "وهذا شاملٌ لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خيرٍ وشرٍ، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمرٌ عظيمٌ لا تحيط به العقول، بل تُذهل عنده أفئدةُ أولي الألباب، ولكنه على الله يسيرٌ، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسَوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطرٍ وأشرٍ، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومَنِّه، فيشتغلوا بشكرٍ من أولى النعم ودفع النقم"(١)،

---

(١) ذكره السعدي في " تيسير الكريم الرحمن " (٨٤٢).

كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»(١)، وفي روايةٍ "**إن رحمتي سبقت غضبي**"(٢).

قال تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ نبرأها يعني نخلقها.

واختلف المفسرون في عود الهاء في قوله: نبرأها على قولين:

١ - بعض أهل العلم قالوا مِّن قَبْلِ أَن ﴿نَّبْرَأَهَا﴾ أي من قبل أن نخلق المصيبة، قال الرازي: "قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ هَذِهِ الْمَصَائِبَ"(٣)

٢ - وبعضهم قال من قبل أن نخلق النفس التي أصابها هذا الهم، أو هذا المرض، أو هذا البلاء، أو هذه المصيبة، فقوله: مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا أي من قبل أن نخلق الخليقة، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: " ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ يَقُولُ: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ الْأَنْفُسَ، يَعْنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَهَا يُقَالُ: قَدْ بَرَأَ اللهُ هَذَا الشَّيْءَ، بِمَعْنَى: خَلَقَهُ فَهُوَ بَارِئُهُ. "(٤)

---

(١) **(متفق عليه)**؛أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٤٥٣) و(٧٤٠٤)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٤٢٢)، والنسائي في "الكبرى" (٧٧٠٤)، وابن ماجه في "سننه" (١٨٩)، وأحمد في "مسنده" (٧٥٠٠).

(٣) ينظر " التفسير الكبير " للرازي (٢٩/ ٢٠٧)، وعزاه الماوردي في "النكت والعيون" (٥/ ٤٨٢) لسعيد بن جبير.

(٤) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٢/ ٤١٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢١/ ٣٠٦)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ١٧٣).

وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما وقتادة والحسن والضحاك وابن زيدٍ.

والصحيح أنه عائدٌ على هذا كله، فما من مصيبةٍ إلا وقد كتبها الله تعالى في كتابٍ من قبل أن تُخلق المصيبة أو النفس أو المخلوقات، كتبها تعالى منذ القدم جلَّ جلاله وتباركت أسمائه، قال القرطبي رحمه الله: "الضَّمِيرُ فِي نَبْرَأَها عَائِدٌ عَلَى النُّفُوسِ أَوِ الْأَرْضِ أَوِ الْمَصَائِبِ أَوِ الْجَمِيعِ."(١)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٢٢﴾ فتقدير مقادير الخلائق قبل خلقها يسيرٌ على الذي خلقها.

وقفةٌ: عندما يعلم العبد أن هناك كتاباً حُفظ فيه أقوال العباد وأعمالهم- كل قولٍ، وكل عملٍ، وكل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل سعادةٍ، وكل رخاءٍ، وكل حربٍ، وكل سِلْمٍ- يكاد العقل أن يطيش، ولعل ما يُقرِّب الأمر شيئاً ما، عندما تعلم -مثلاً- أن التقدم التكنولوجي الهائل الآن جعل من الممكن حفظ آلاف مؤلفة من ساعات التسجيلات الصوتية للخطب والدروس والمحاضرات، أو كتب العالم كله، على شيءٍ يسيرٍ جداً كقرصٍ ممغنطٍ صغيرٍ، أو ذاكرةٍ متنقلةٍ، وقد كان في الزمان الأول التسجيل على الأشرطة، والشريط الواحد يأخذ ثلاثين دقيقةٍ أو غير ذلك،أو بحمل أحزمةٍ من الكتب على دوابٍ أو سيارات.

فإذا تدبرت ذلك فاعلم أن الله ليس كمثله شيءٌ، وأن ما أوصلنا ربنا إليه من تقنياتٍ فهو لا يعدو قطرةً من بحر علمه عز وجلَّ بل يقل.

---

(١) ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٠/ ٢٦٣).

ولذلك ربنا العظيم الجليل قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ فكتابة المقادير والعلم بالمصائب، وكتابتها قبل أن تقع، ووقوعها على وفق علم الله جلَّ جلاله، ذلك على الله يسيرٌ؛ حتى لا يتعاظم الإنسان، ويدخله ريبٌ أو شكٌّ،

عَنْ مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ الْحَسَنِ، فَقَالَ رَجُلٌ: سَلْهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا**﴾ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَمَنْ يَشُكُّ فِي هَذَا؟ كُلُّ مُصِيبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَفِي كِتَابِ اللهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُبْرَأَ النَّسَمَةُ». (١)

وكان السلف يوصي الواحد منهم أبنائه بالإيمان بالقدر، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ: "دَخَلْتُ عَلَى أَبِي وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَقُلْتُ: أَوْصِنِي فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْأَيْمَانِ، وَلَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: قُلْتُ: أَيْ أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، أَيْ بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ خَلَقَ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَى تِلْكَ السَّاعَةَ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**" أَيْ بُنَيَّ إِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ". (٢)

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤١٩)، وعبد الله بن أحمد في "السنة" (٩٦١)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٩٣١٣)، وابن أبي الدنيا في "الفرج بعد الشدة" (١٥).

(٢) أخرجه الفريابي في "القدر"(٧٢) والآجري في "الشريعة"(١٨٠) والبيهقي في "القضاء والقدر"

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٢٣﴾

عقَّب الله تعالى على هذه الآية مباشرةً بقوله: ﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ**﴾ ما أعظم الله!، هذا قانونٌ ربانيٌ؛ وهو أن سرَّ راحة العبد في الدنيا والآخرة، لو أن العبد ركن إلى الله لاستراح، فلماذا يصاب كثيرٌ من الناس بأمراضٍ نفسيةٍ واجتماعيةٍ هائلة؟، وأحيانـاً يحدث ما لا تُحمد عقباه من الهموم والمشاكل بين الناس، وخاصةً في الأسر؛ لأنه ليس عندنا إيمانٌ بالقدر على الوجه المطلوب.

فلو أن العبد آمن بالقدر كما ينبغي لاستراح من هذه الهموم، وقد مرَّ معنا؛ أنه ما من مصيبةٍ، وما من نقصٍ، وما من شيءٍ يقع في الكون؛ في النفس، في الأرض، في الجو، في البحر، في أي شيءٍ في الكون، إلا في كتابٍ كتبه الله جلَّ جلاله، وذلك قبل أن يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنةٍ، وذلك على الله يسيرٌ.

﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ**﴾ اللام في لكيلا للتعليل، قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: "﴿ **لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ** ﴾ اللام للتعليل، وكي بمعنى أن، أي: لأن لا تأسوا، ومعنى تأسوا تندمواعلى ما فاتكم مما تحبون" (١)، والندم على فوات مطلوب كقول الرجل بعد الفوات لو كنت فعلت كذا كان كذا، لذلك **عن أبي هريرة**

=(٢٠٩).

(١) الشيخ العثيمين في "تفسيره" ـ تفسير سورة الحديد ـ (ص ٤١٤).

رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن القوي، خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خيرٍ احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**(١)، فأهم شيءٍ أن يأخذ العبد بالأسباب المأمور بها شرعـًا ولا يقصِّر، ثم ما يكون بعد ذلك فليحمد لله، ويقول: لو كان فيه خيرٌ لقُدِّر لي، فكم من أناس يهلكون أنفسهم حسرةً على ما فات، وربما مات أحدهم من الصدمة، فهذا مات من صدمته لفوات ما كان، يموت وهذا مات لسماع خبرٍ محزنٍ، ولا شيء يستحق ذلك، فالملك ملك الله عزَّ وجلَّ وكل شيءٍ عنده بمقدارٍ، أهم شيءٍ للعبد أن يحفظ رب العالمين عليه دينه، فإن سَلَّم الله ديننا فالحمد لله الكريم، وسَلَّم معه دنيانا فالحمد لله حمداً كثيراً طيبـًا مباركـًا فيه.

﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ**﴾ لا تغتموا ولا تحزنوا على ما فاتكم، فما أصابك لم يكن ليُخطئك وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وفي الحديث **عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ**

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٦٤)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٣٨٢)، وابن ماجه في " سننه " (٤١٦٨)، وأحمد في " مسنده " (٨٧٩١)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٧٢١).

الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» .[(١)]

﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ وليس المراد هنا منع الحزن والفرح على الإطلاق، قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ:" قَالَ المبرد: ليس المراد من قوله: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ نَفْيَ الْأَسَى وَالْفَرَحِ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ مَعْنَاهُ لَا تَحْزَنُوا حُزْنًا يُخْرِجُكُمْ إِلَى أَنْ تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَعْتَدُّوا بِثَوَابٍ عَلَى فَوَاتِ ما سلب منكم، ولا تفرحوا فرحا شديد يُطْغِيكُمْ حَتَّى تَأْشَرُوا فِيهِ وَتَبْطُرُوا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ**﴾ فَدَلَّ بِهَذَا عَلَى أَنَّهُ ذَمَّ الْفَرَحَ الَّذِي يَخْتَالُ فِيهِ صَاحِبُهُ وَيَبْطُرُ، وَأَمَّا الْفَرَحُ بِنِعْمَةِ اللهِ وَالشُّكْرُ عَلَيْهَا فَغَيْرُ مَذْمُومٍ"[(٢)] ، كما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ قَالَ: «أَلَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَحْزَنُ وَيَفْرَحُ، وَلَكِنْ مَنْ جَعَلَ الْمُصِيبَةَ صَبْرًا، وَجَعَلَ الْفَرَحَ شُكْرًا».[(٣)]

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٥١٦)، وأحمد في " مسنده " (٢٦٦٩)، والحاكم في "المستدرك" (٦٣٠٤)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٣١٤)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٥٣٠٢).

(٢) ينظر " التفسير الكبير" للرازي (٢٩/ ٢٠٨)، و" تفسير القرآن العزيز" لابن أبي زمنين (٤/ ٣٥٤).

(٣) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢/ ٥٢١) وابن أبي شيبة في " مصنفه " (٣٤٧٨٩) والحاكم في " المستدرك " (٣٧٨٩) صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ " وقال الذهبي صحيح.

فإذا حزن الإنسان -خاصةً المسلم العاقل الذي يرجو وجه الله، ويريد الخير ليستعين به على طاعة الله- واغتم لفوات أمرٍ كان يتمناه فليجعل حزنه صبراً لله تعالى، وإذا أنعم الله عليه يجعل فرحه بالنعمة شكراً، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ وقرأت ولا تفرحوا بما آتاكم بمد الألف، وأتاكم بقصر الألف، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿**بِمَا آتَاكُمْ**﴾ إِذَا مُدَّتِ الْأَلِفُ مِنْهَا: بِالَّذِي أَعْطَاكُمْ مِنْهَا رَبُّكُمْ وَمَلَّكَكُمْ وَخَوَّلَكُمْ؛ وَإِذَا قُصِرَتِ الْأَلِفُ، فَمَعْنَاهَا: بِالَّذِي جَاءَكُمْ مِنْهَا." [(١)]، وكلاهما صحيحٌ، لا تفرح بما أعطاك الله، ولا بما جائك من خيرٍ.

قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣**﴾ المختال الفخور الذي إذا أنعم الله عليه اختال على العباد، وافتخر عليهم بما أنعم الله به عليه، فبئس ذاك العبد.

بماذا يفخر ابن آدم؟، أيفخر بشيءٍ آتاه الله إياه؟!، فالله لا يحب مثل هذا الفخور، وقوله تعالى: والله لا يحب، دليلٌ على إثبات صفة المحبة لله، فالله جلَّ جلاله يحب، وهو كذلك لا يحب عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ -نسأل الله أن يجعل هذا الوصف فينا-، وأيضاً قول النبي ﷺ "**لأعطينَّ**

---

(١) الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٤٢٠)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٦٥)

الراية غداً رجلاً يُحب اللهَ ورسولَه ويُحبه اللهُ ورسولهُ"(١)، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا**﴾ فهذا وصف المحبة.

وهذه الآية وَاللهُ لا يُحِبُّ معناها الله يبغض هذا الإنسان، ويمقته، ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣**﴾ يختال في مشيته، أو يختال على عباد الله عزَّ وجلَّ بما آتاه الله، والمَخِيلَةُ محرمةٌ، قال النبي ﷺ "**وإياك وإسبال الإزار فإنها من المَخِيلَة**"(٢)، **عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»**(٣)، هذا الحديث فيه وعيد شديد للذي يلبس بنطالاً أو قميصاً أو إزاراً خيلاء يختال به على عباد الله.

فخور هو الذي يفخر بالأحساب أو بالأنساب، كما قال ﷺ "**أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن، الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء**

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٠٦)، وأبو داود في " سننه" (٤٠٨٧)، والترمذي في " سننه " (١٢١١) والنسائي في " المجتبى " (٢٥٦٣)، و" الكبرى " (٢٣٥٥)، وابن ماجه في " سننه " (٢٢٠٨).

بالنجوم، والنياحة"(١) فمن أعجب ما يكون أن يفخر إنسانٌ أنه ابن فلانٍ، أو يفخر بما يملك من مالٍ، أفبهذا يفخر؟!، والله عزَّ وجلَّ جعل الرفعة والعلو والكرامة عنده بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ**﴾ [الحجرات: ١٣] فالعبد يفخر بأنه يصلي الجماعة، ويفخر بأنه يقرأ القرآن، ويفخر بأن الله يرفعه ويجعله من عباد الله الصالحين، كما قال النبي ﷺ **"إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين"**(٢)، أما الفخر بغير الدين والعبادة، فهذا أمرٌ لا يحبه الله ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ ٢٣**﴾

﴿**ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥**﴾

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٨١٧)، وابن ماجه في " سننه " (٢١٨)، وأحمد في " مسنده " (٢٣٢)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٧٢)، **عن عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجلَّ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين».**

ثم ذكر الله تعالى من صفات هذا المختال الفخور فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ يعصون الله، ويأمرون غيرهم بالمعصية، كما قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: "يفعلون المنكر، ويحضون الناس عليه ".(١)

الذين يبخلون يبخلون بماذا؟، بعض السادة العلماء ذكر قولاً جميلاً، فقال: يبخلون بكل ما يجب ويتعين عليهم أن يبذلوه، من المال والعلم والجاه، فالمال أعظم ما يجب فيه الزكاة الواجبة، ومع ذلك يبخل بالزكاة الواجبة لا يخرجها، وبئس العبد البخيل لا يكون سيداً أبداً في الدنيا.(٢)

ولذلك لما هاجر رسول الله محمدٌ ﷺ من مكة إلى المدينة شرفها الله، لم يرضَ لبني سلمة سيداً بخيلاً، **فعن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟» قُلْنَا: جُدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ، قَالَ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ» ، وَكَانَ عَمْرٌو عَلَى أَصْنَامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يُولِمُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا تَزَوَّجَ".**(٣)

فنفى النبي ﷺ السيادة عنه لبخله، وأعطاها لعمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعمرو بن

---

(١) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٧).

(٢) ينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي ـ تفسير جزء الذاريات

(٣) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (٢٩٦)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٧/ ٣١٧)، و البيهقي في "شعب الإيمان" (١٠٣٦١)، وصححه الألباني في " صحيح الأدب المفرد " (٢٢٧/ ٢٩٦).

الجموح كان رجلاً أعرجاً[١]، فالسيادة درجةٌ عظيمةٌ، وفضلٌ جليلٌ، يؤتيه رب العالمين من شاء من عباده، فالإنسان البخيل لا يسود أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، أما الكريم فقد ساد قومه، وساد من تعامل معه، فهو يملك قلوب العباد بإذن الرحمن الرحيم، لذلك كان أكرم الخلق سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ، وقد ملك قلوب العباد بكرمه وخلقه ﷺ.

والبخل داءٌ عضالٌ، وخلقٌ مذمومٌ، ولذلك **عن أنس بن مالكٍ، قال: كان رسول الله ﷺ، يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والهرم، والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات»**[٢]" فكان ﷺ يستعيذ بالله منه.

---

(١) أخرج البيهقي في " السنن الكبرى " (١٧٨٧٩) وفي " دلائل النبوة " (٣/ ٤٦) **عَنْ أَشْيَاخٍ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ قَالُوا: كَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ أَعْرَجَ شَدِيدَ الْعَرَجِ، وَكَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ بَنُونَ شَبَابٌ يَغْزُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا غَزَا، فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى أُحُدٍ قَالَ لَهُ بَنُوهُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ قَدْ جَعَلَ لَكَ رُخْصَةً، فَلَوْ قَعَدْتَ فَنَحْنُ نَكْفِيكَ، فَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الْجِهَادَ، فَأَتَى عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَنِيَّ هَؤُلَاءِ يَمْنَعُونَنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَكَ، وَوَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنَ أُسْتَشْهَدَ مَعَكَ فَأَطَأُ بِعَرْجَتِي هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الْجِهَادَ» ، وَقَالَ لِبَنِيهِ: «وَمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَدَعُوهُ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ يَرْزُقُهُ الشَّهَادَةَ» ، فَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ الْتَقَى هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، فَلَمَّا اسْتَعْلَاهُ حَنْظَلَةُ رَآهُ شَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ شَعُوبَ، قَدْ عَلَا أَبَا سُفْيَانَ، فَضَرَبَهُ شَدَّادٌ فَقَتَلَهُ"**

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨٢٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٠٦).

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ فهو لا يكتفي ببخل نفسه، وإنما إذا رأى إنسانـاً محسنـاً؛ يُحسن إلى بعض الفقراء، أو إلى بعض الأيتام، يزجره عن النفقة ويخوفه من ضياع ماله، فيقول: أنت أولى بمالك، إذا أخرجت من مالك فمالك ينقص، وهكذا.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ فيبخلون بالمال وكذلك يبخلون بالجاه؛ كأن يكون مسئولاً ذا جاهٍ، سواءً مديراً، وزيراً، رئيسـاً، ويجد مسلمـاً وقعت عليه مظلمةٌ، وتتعين له الشفاعة، ويمكن أن يرفع عنه هذه المظلمة بجاهه؛ ولا يفعل، فمن فعل ذلك فقد بخل بجاهه.

وإنما الواجب على العبد إذا كان له جاهٌ على قدر ما أنعم الله عليه يشفع لإخوانه، كما قال النبي ﷺ **" اشفعوا تؤجروا "**(١)، فهذه الشفاعة فيها أجرٌ، وقال الله: من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها يعني إذا شفعت شفاعةً فلك نصيبٌ من هذا الأجر العظيم، ورسول الله ﷺ شفع وردت شفاعته، فالشافع مأجورٌ على أي حالٍ؛ قُبلت الشفاعة أم لم تقبل، شفع ﷺ في مغيثٍ عند بَرِيرَة، فبريرة كانت أمةً مملوكةً أعتقتها أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت متزوجةً لعبدٍ مملوكٍ يُقال له مغيثٌ؛ وإذا أُعتقت الأمة يصير الأمر بيدها، لأنها صارت أعلى من زوجها، فهي الآن حرةٌ متزوجةٌ

---

(١) **(متفق عليه)؛** أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤٣٢)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٢٧) **عن أبي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ»**

من عبدٍ مملوكٍ، فيصير الأمر بيدها لو شاءت بقيت معه زوجةً، ولو شاءت تُطلق، فاختارت بريرة الفراق من زوجها، والحديث في صحيح البخاري، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيه"**.[1]

فالمقصود: أن العبد لا يبخل أبداً بأي نفعٍ يستطيع أن ينفع به إخوانه المسلمين؛ من مالٍ، من شفاعةٍ، كذلك من علمٍ، وقد نص السادة العلماء على أن قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ**﴾ يدخل فيه البخل بالعلم، فالعالم الذي عنده علمٌ وتتعين عليه الفتيا، أو يتعين بلاغ العلم عليه؛ فيبخل ويمتنع عن تعليم الناس هو داخلٌ في الآية، والعلم من أعظم ما يقرب العبدَ إلى الله عزَّ وجلَّ، لأن العلم إذا كان خالصاً لله بارك الله عزَّ وجلَّ فيه، وجعل فيه بركةً عظيمةً، فينتفع به صاحبه في الدنيا والآخرة.

﴿**وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾**﴾ من يتولى ويبخل عن العمل للدين، ويبخل بماله، ويبخل بجاهه، ويبخل بعلمه، فالله غنيٌ عنه، فالله قال مخاطباً كل الخلق -وليس طائفةً معينةً-: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٢٨٣)، وأبو داود في " سننه " (٢٢٣١)، والترمذي في " سننه " (١١٥٦)، والنسائي في " المجتبى " (٥٤١٧)، و" الكبرى " (٥٩٣٧)، وابن ماجه في " سننه " (٢٠٧٥).

فإن كسلنا أو تكاسلنا عن العمل لدين الله، أو قصرنا في طاعته؛ قصرنا في الصلاة، قصرنا في تعلم العلم، فالله غنيٌ عنَّا، فهو قادرٌ على أن يأتي بغيرنا فيكونون خيراً منَّا، وقد رأينا ذلك؛ فقد كنا نتعجب من أن العرب أهل فصاحةٍ وأهل بلاغةٍ وظننا أن لن يأتي من العجم إنسانٌ يضاهي العربي، ثم رأينا من العجم أناسـًا أثباتـًا علماءً أجلاءً ملؤوا الأرض علمـًا وعملاً، ونصرةً للدين، وصدق رسول الله ﷺ فيما روي **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، **قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الجُمُعَةِ: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حَتَّى سَأَلَ ثَلاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ، وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلاَءِ»**(١)

وقول الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨] فلم يقل مثلكم يعني عندهم كسلٌ في العمل لدين الله، بل يُوجد عبداً يكون عنده همةٌ ورغبةٌ، في البذل والعطاء لهذا الدين الكريم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ فالغنى الكامل لله عزَّ وجلَّ، فما من غنيٍ إلا وله كبوةٌ، فأغنى الناس يُسئل مرةً يفعطي، ثم مرةً ثانيةً يفعطي، وعشرات المرات فيعطي، ولكنه يأتي بعد ذلك فيمنع ولابد، لأن ما يملكه له حدٌ، أما الله الغني جلَّ جلاله الذي قال عن نفسه كما في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلمٌ **عَنْ أَبِي ذَرٍّ** رضي الله عنه، **عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٨٩٧)، ومسلم في "صحيحه " (٢٥٤٦).

عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ، إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ."(١)

وقفةٌ: لو أن الخلائق كلها قامت في مكانٍ واحدٍ، وكل إنسانٍ سأل حاجته التي يحلم بها، فتمنى ما يتمناه وزيادةً، فهذا يتمنى مائة مليونٍ، وهذا يطلب مائة مليارٍ، وهذا يريد هذه الدنيا كلها له، فهذا مفهومٌ من كلام الله، حيث قال: **"فسألوني فأعطيت كل إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر"**

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه " (٢٥٧٧) والبغوي في "شرح السنة" (١٢٩١).

فهل ينقص المخيط شيئـًا من البحر؟ لا شيء، فقطرة الماء التي تعلق به لا تعدُّ شيئـًا بالنسبة للبحر، فربنا غنيٌ جلَّ جلاله، حميدٌ يعني محمودٌ على غناه، يعطي من يشاء ما يشاء، ويرزق من يشاء بغير حسابٍ، ومع ذلك كثيرٌ من الأغنياء لا يحمدون ربهم على إغنائه لهم، بل منهم من قد يعصي الله بغناه، وقد يبخل بهذا المال عن عباد الله المستحقين، أما رب العزة جلَّ جلاله فهو الغني الحميد، فهو الغني كامل الغنى، وكذلك المحمود في غناه جلَّ جلاله، وعز جاهه.

قال ربنا تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾**﴾ هذه آيةٌ عظيمةٌ باهرةٌ

﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ**﴾ الرسل الكرام أرسلهم الله تعالى بالبينات، أي بالحجج الواضحات، والدلائل الباهرات على وحدانية رب الأرض والسماوات.

وما من رسولٍ إلا أرسله الله تعالى وجعل معه كتابـًا، أما الأنبياء فلا يُشترط أن يكون مع كل نبيٍ كتابٌ، لأن النبي أحيانـًا يكون متممـًا أو متبعـًا لشريعة من كان قبله، أما الرسل فلا بد أن ينزل رب العزة عليهم كتابـًا، فهؤلاء الرسل الكرام أرسلهم الله تعالى وأمرهم بالبلاغ، وأنزل معهم بيناتٍ واضحاتٍ تؤيد صدق هذا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولذلك إذا نظرنا إلى أنبياء الله الكرام وجدنا معهم آياتٍ باهراتٍ تدل على صدقهم، وتدل على وحدانية الله عزَّ وجلَّ، فهذا نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ**﴾ تسع آياتٍ بيناتٍ واضحاتٍ لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلها

أولها: العصا، وهي عصا من خشبٍ عاديٍ، وإذا بفرعون يدعو السحرة من كل مدائنه، فجاؤوا لينصروه، وجاؤوا راغبين في عطائه، وجاؤا يريدون أن يُثبتوا مُلكه، وإذا بهم يلقون سحرهم، فأوجس في نفسه خيفة موسى وكذلك الناس الذين حضروا ليروا خافوا جداً، فنبي الله موسى خاف من شدة السحر الذي أُلقي،وهو خوفٌ عاديٌ لا يذم صاحبه، فقال الله تعالى: ﴿**قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ**﴾ [طه: ٦٨-٦٩] ألقى العصا فإذا هي حيةٌ تسعى، آيةٌ باهرةٌ أمام العالم، تلقف؛ تأكل وتتلقف وتبتلع كل هذا السحر العظيم، أمام أعينهم

الآية الثانية: اليد، فقد كان موسى آدم يعني أسمر، فإذا ضم يده تحت إبطه تخرج بيضاء للناظرين من غير سوءٍ، أي بدون برصٍ بل بيضاء نقيةً، آيةً من آيات الله عزَّ وجلَّ

كذلك من الآيات ما أخبر الله تعالى به، حيث قال: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ**﴾ آياتٌ باهراتٌ أرسلها الله على قوم فرعون حتى يرجعوا إلى الله وما رجعوا، أما ضفادع فكان إذا كشف الواحد منهم الإناء يُملؤ بالضفادع، أو طعامـًا يُملؤ بالضفادع أيضـًا -والعياذ بالله-، و كذلك الجراد ملأ البيوت، وملأ أماكنهم، من قصر فرعون إلى كل البيوت، والدم -أيضـًا- فكل ماء يستعمله فرعون أو أحدٌ من قومه تحول دمـًا، آيات مفصلات فاستكبروا

كذلك من الآيات الباهرات، قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾**﴾ قال أصحاب موسى إنا لمدركون أي أن موسى عليه السلام أخذ بني

إسرائيل وهرب من فرعون، فأراد فرعون وجنوده اللحاق بهم، فلما ترائى الجمعان، وفرعون يكاد يدرك موسى ومن معه، قال أصحاب موسى إنا لمدركون، ﴿**قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ٦٢**﴾ [الشعراء: ٦٢] يعني ربي سيدلني على طريق النجاة ﴿**فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ**﴾ آيةٌ عظيمةٌ، فانفلق ﴿**فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ**﴾ كل فرقٍ من الموج، ﴿**كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ٦٣**﴾ الطود هو الجبل العظيم، فيمر موسى ومن معه بين الفرقين على أرضٍ يابسةٍ يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ويُغرق الله فرعون ومن معه أمام أعين الناس، آيةٌ عظيمةٌ جداً،

ومن الآيات الباهرات التي كانت مع نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن من معه من بني إسرائيل كانوا اثني عشر قبيلةً، باثني عشر سبطـًا، وأسباط بني إسرائيل استسقوه، فالله تعالى أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر الأصم فانفجرت منه اثنتا عشرة عينـًا قد علم كل أناس مشربهم

وكذلك نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسله الله تعالى بالبينات الباهرات، فكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، فيكون الميت محمولاً في النعش فيناديه عيسى فيحيا بإذن الله، ويذهب لصاحب القبر يناديه فيحيه الله عزَّ وجلَّ، وهذه لا يقدر أحدٌ عليها أبداً إلا الله عزَّ وجلَّ،

ولذلك قال أهل العلم: كان الأنبياء يأتون بالآيات التي تناسب أقوامهم، قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قال قائلٌ: لماذا خصَّ الله موسى بالعصا وخصَّ عيسى بإحياء الموتى وخلق الطيور؟

قال أهل العلم: إن الله – عز وجلَّ – حكيمٌ يجعل لكل نبيٍ من الآيات ما يناسب الوقت، وحال الناس حتى يُعجزهم، فالسحر ترقَّى إلى حدٍ بعيدٍ في عهد موسى عليه الصلاة والسلام فأراهم الله آيةً يعجزون عنها بالسحر، ولهذا السحرة في قصة موسى العارفون بالسحر ما ملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا، ألقي السحرة ساجدين، كأنهم بغير اختيارٍ، فسجدوا وقالوا إعلانـًا: ﴿**قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢**﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]

وعيسى عليه الصلاة والسلام ترقَّى في عهده الطب ترقيـًا عظيمـًا فأعطاه الله آيةً لا يستطيع الأطباء أن يأتوا بمثلها، أما محمد ﷺ فإنه بُعث في زمن البلاغة العظيمة التي ترقَّت إلى أعلى ما يكون في العرب، واللسان العربي المبين أفصح الألسنة وأدلها على ما في الضمير، فبعثه الله – عز وجلَّ – بقرآنٍ كريمٍ أعجز العرب أن يأتوا بمثله، ولن يأتي أحدٌ بمثله لا الجن ولا الإنس، قال الله – عز وجلَّ -: ﴿**قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨**﴾ [الإسراء: ٨٨] وصدق الله – عز وجلَّ – فالقرآن كلام الله فكما أن الله ليس كمثله شيءٌ، فكلامه ليس مثله كلامٌ،"(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبيٍ إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيـًا أوحى الله إليَّ،

(١) ينظر " تفسير العثيمين" ـ تفسير سورة الحديد ص ٤٢٠

فأرجو أن أكون أكثرهم تابعـاً يوم القيامة»"[١] وقد كانت هذه الأمة أكثر أهل الجنة بفضل الله تبارك وتعالى.

يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ والمقصود بالكتاب جنس الكتب، يعني ما من رسولٍ أرسله الله إلا كان معه كتابٌ، أما الأنبياء كما ذكر أهل العلم فالنبي لا يُشترط أن يكون معه كتابٌ[٢]، ولكن الرسل فكل رسولٍ معه كتابٌ، كصحف إبراهيم وصحف موسى والتوراة والإنجيل والزبور وأعظمها القرآن الكريم،

﴿**وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ**﴾ الميزان ألا وهو العدل والحق، ﴿**لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ**﴾ أي ليقوم الناس فيما بينهم وبين الله جلَّ جلاله، وفيما بين بعضهم لبعضٍ، بالعدل وهو الذي قامت به السماوات والأرض،

تنبيهٌ: قامت السماوات والأرض وقامت الدنيا بتمامها بالعدل، ولذلك من الخطأ الشديد أن يُقال بأن دين الإسلام دين المساواة، فهل ديننا دين المساواة أم دين العدل؟ العدل أحسن وأجمل وأعظم من المساواة، فالله عزَّ وجلَّ لم يسوِ بين المسلم المطيع والفاسق العاصي، ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ**

---

(١) **(متفق عليه)؛** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩٨١)، ومسلم في " صحيحه " (١٥٢).

(٢) قال النسفي رَحِمَهُ اللهُ في " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " (٢/ ٤٤٧) والفرق بينهما أن الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبي من لم ينزل عليه كتاب وإنما أُمر أن يدعو إلى شريعة من قبله.

﴿تَحۡكُمُونَ﴾ فالله تعالى أنزل الكتاب؛ أنزل القرآن وأنزل سائر الكتب، وأنزل الميزان ألا وهو العدل، وأوجبه على عباده، وحرم الظلم على نفسه وجعله بينهم محرمـًا، ولك أن تتأمل مناسبة هذه الآية بعضها لبعض، ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ فالسائر على الكتاب الكريم المبارك الذي أنزله الله عزَّ وجلَّ لا شك أنه سائرٌ على طريقٍ عدلٍ قويمٍ، وهو الطريق المستقيم، وكذلك ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي ليعدلوا فيما بينهم وبين بعضهم بعضـًا، وكذلك يعدلوا فيما بينهم وبين مولاهم، وأعظم العدل فيما بينهم وبين الله، أن يوحدوه لا يشركوا به شيئـًا، والعدل فيما بينهم وبين العباد، فلا يظلم بعضهم بعضـًا، لا يأكل أحدهم مال أخيه بغير حقٍ، ولا يتطاول على عرضه، ولا يظلمه في شيءٍ، لا من ماله ولا من دمه ولا عرضه، **عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانـًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا» ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ «بحسب امرئٍ من الشر أن يُحقِّر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ، دمه، وماله، وعرضه»**[(١)].

وأما العدل؛ قال مجاهد وقتادة وغيرهما "هو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة"[(٢)]،

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٦٤)، وأحمد في "مسنده" (٨٧٢٢)، والبيهقي في " الآداب " (١٢٠)

(٢) ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٧) وينظر "محاسن التأويل" للقاسمي (٩/ ١٥٣)،

ثم لما ذكر الله الميزان والعدل ذكر بعدهما مباشرةً ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فأرسل الله الرسل بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الحديد، الحديد قوةٌ وفيه بطشٌ،

ولذلك قال أهل العلم: أنزل الله الكتاب وكذلك أنزل الحديد، فالقائم على أمر الله من ملكٍ أو رئيسٍ أو أميرٍ، الواجب عليه أن يأخذ بهذين الأمرين، فصلاح العباد بالكتاب والحديد، ولا يصلح حال هذه أمة، ولا حال أي أمةٍ إلا بهذين الأمرين، فالكتاب تَرقُّ به القلوب، وتَصلُح به الأحوال، وتُسدَّد به الفعال، فيصلح الله دين العبد ودنياه باتباعه لكتاب الله، فالقرآن فيه الهدى والنور والبركات، ولكن كثيراً من الناس بعيدون عنه وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، فكثير منهم لا يصلح بالكتاب، وغن كان بعض العباد إذا ذكر بآيةٍ خشع وترك الحرام وانزجر، واستقام على طريقة الرحمن، لكن أكثر العباد لا يجعل لله مراقبةً، وليس لله عنده حقٌ، عنده جرأةٌ على كتاب الله، وجرأةٌ على سنة رسول الله ﷺ ، وجرأةٌ على انتهاك الحرام، فيقع في السرقة، ويختلس، ويقطع الطرق، وينهب، ويزني، و مهما ذكرته بالقرآن لا يتذكر ولا ينزجر، ولكن مثل هذا لو كان سارقًا وأُخذ وقطعت يده فإنه ينزجر، فهكذا كثيرٌ من الناس الذين لا يزجرهم الكتاب يزجرهم الحديد، ولذلك كان هذا شرع الله الرحيم بعباده، الذي هو أرحم بنا من أمهاتنا،

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ ما من عبدٍ من العباد يسلك

=و"التفسير الوسيط" لطنطاوي (١٤/ ٢٢٧).

هذا السبيل ويجمع بين الكتاب والحديد إلا ويوفقه الله عزَّ وجلَّ، وما من عبدٍ من العباد يحيد عن هذا الطريق ويأخذ بجانبٍ دون جانبٍ فإنه لا يوفق أبداً.

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وجعلنا الحديد رادعـًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنةً تُوحى إليه السور المكية، وكلها جدالٌ مع المشركين، وبيانٌ وإيضاحٌ للتوحيد، وتبيانٌ ودلائلُ، فلما قامت الحجة على من خالف؛ شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده."(١)

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " بَيَّنَ اللهُ – جلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا أَنَّ إِقَامَةَ دِينِ الْإِسْلَامِ تَنْبَنِي عَلَى أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا هُوَ مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ: وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِقَامَةَ الْبَرَاهِينِ عَلَى الْحَقِّ، وَبَيَّنَ الْحُجَّةَ وَإِيضَاحَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. فَإِذَا أَصَرَّ الْكُفَّارُ عَلَى الْكُفْرِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ مَعَ ذَلِكَ الْبَيَانِ وَالْإِيضَاحِ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ الْحَدِيدَ، أَيْ: خَلَقَهُ لِبَنِي آدَمَ لِيَرْدَعَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ، وَهُوَ قَتْلُهُمْ إِيَّاهُمْ بِالسُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَالسِّهَامِ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ، تُوَضِّحُهُ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٧)، و"صفوة التفاسير" للصابوني (٣/ ٣١١).

﴿الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، وَالْآيَاتُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ.[١]

فما من حاكمٍ أراد أن يقيم الحق ويقيم الشريعة، إلا ولا بد من الأمرين؛ يُعزَّ أهل العلم ويرفع قدرهم، ويبسط لهم ويفسح لهم المجال ليعلموا الناس العلم، ويبصروا الناس بالتوحيد، والشريعة ويعلموهم دينهم، وكذلك يكون لديه قوةٌ على أهل الفساد، فإذا جاء حاكمٌ أيـًا كان هو وكان هينـًا لينـًا سهلاً عفواً يعفو عن الناس، ويتسامح مع الذين يفسدون في الأرض، ويتسامح مع الذين يتطاولون عليه، فهذا أذانٌ بضياع هيبته وملكه، وفي المقابل إذا رأينا حاكمـًا جباراً؛ لا يجعل للقرآن شأنـًا، ولا للسنة مكانةً، ولا للعلماء قدراً، ويفسد في الأرض، وأي إنسانٍ ينصحه يُقتل أو يُسجن، فلا شك أنه لا يصلح أبداً، ولا بد أن أمره إلى زوالٍ، فهذا خطأٌ وهذا خطأٌ، وكلا طرفي الأمور ذميمٌ، وخير الأمور أوسطها، وخير الهدي هدي رسول الله ﷺ،

وهذه حكمة ذي القرنين في الملك، قال الله تعالى: **﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾** فقد عُرض عليه قومٌ مفسدون؛ إما أن تُعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنـًا، **﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾** هذا هو العدل، من ظلم يُعذَّب، **﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾** فالعذاب الأكبر عند الله عزَّ وجلَّ، وأما من آمن من أهل الصلاح والرشاد، **﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾** هذا عند الله، وأما نحن **﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾** فهذا ما قرره الله في كتابه من الهدي العظيم، وأكثر الخلق في غفلةٍ عن هذا الهدي العظيم.

---

(١) ذكره الشنقيطي في " أضواء البيان " (٧/ ٥٤٩).

وكذلك نبينا محمد ﷺ، كان أرحم هذه الأمة بالأمة، قال الله عنه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ وهو مع هذا الوصف الجليل الذي وصفه الله به بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورغم ذلك **لما سرقت امرأةٌ ليست وضيعةً، بل هي من أشراف قريشٍ، من بني مخزومٍ في فتح مكة، وجيئ بها إلى النبي ﷺ فقال اقطعوا يدها، فعن عائشة، أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يُكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئُ عليه إلا أسامة، حِبُّ رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حدٍ من حدود الله؟» ثم قام فاختطب، فقال: «أيها الناس، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها"**[١]

عندما يرى الناس أن الرسول لا يفرق في إقامة الحد بين ابنته وغيرها، أو بين القريب والغريب، أو بين الشريف والوضيع، فمن سرق تقطع يده، ومن ارتكب حداً أقيم عليه، فلما يرى الناس أن القرآن والسنة على الجميع؛ مهما علا شأن المرء فالقرآن والسنة أعلى، فإنهم حينئذٍ يهابون ويخافون وينزجرون.

وقد ورد في ذلك -أيضاً- **عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ عُكْلٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، كَانُوا فِي الصُّفَّةِ، فَاجْتَوَوْا المَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبْغِنَا رِسْلًا، فَقَالَ: «مَا أَجِدُ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَلْحَقُوا بِإِبِلِ رَسُولِ اللهِ» فَأَتَوْهَا، فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، حَتَّى**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤٧٥)، ومسلم في " صحيحه " (١٦٨٨).

صَحُّوا وَسَمِنُوا وَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَاقُوا النَّوْدَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ الصَّرِيخُ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ، فَمَا تَرَجَّلَ النَّهَارُ حَتَّى أُتِيَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ، فَكَحَلَهُمْ، وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَمَا حَسَمَهُمْ، ثُمَّ أُلْقُوا فِي الحَرَّةِ، يَسْتَسْقُونَ فَمَا سُقُوا حَتَّى مَاتُوا قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: «سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ»[1]، وهو حديثٌ معروفٌ بحديث العرنيين، فمع كون النبي ﷺ أرحم عباد الله الذين خلقهم الله على الإطلاق، لكن هذا لا يتعارض من أن يجازيهم بمثل ما فعلوا، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ، وسمر أعينهم بالمسامير المحماة كما فعلوا في الراعي، وتركهم في الحر لا يسقون حتى ماتوا عن آخرهم،

وهذا عدل، وليس بقسوةٍ مجردةٍ، ولو أنه أقيم مثل هذا في بعض بلاد المسلمين، لانزجر آلافٌ مؤلفةٌ من المفسدين، الذين عكروا على الناس دينهم ودنياهم، ولكن التوفيق بيد الله، وربك يقضي بما يشاء ويختار سبحانه وبحمده.

فالله تعالى يقول: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ**﴾ ومن هدي الأنبياء في الميزان والكتاب، ما ورد أن نبي الله سليمان، كان يقوم متابعـًا لرعيته ومُلكه؛ يتابع الجن، وهم يعملون، قال الله تعالى: ﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ إلى أن قال وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ وكان نبي الله سليمان عليه السلام يتفقد مملكته؛ يتفقد النمل، ويتفقد الطيور، ويتفقد الآدميين، فتفقد الطير فوجد الهدهد غائبـًا ﴿**فَقَالَ مَا لِيَ**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٨٠٤)، ومسلم في " صحيحه " (١٦٧١).

﴿لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ وتقدير العقوبة على حسب الجرم الذي سيتضح لي أنه وقع فيه، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ حتى يخرج بدون عقوبة، فلما جاءه بسلطانٍ مبينٍ عفا عنه، وهو نبيٌ كريمٌ من أنبياء الله عزَّ وجل.

فهذا الهدي العظيم هدي في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ، لما جيئ للنبي ﷺ بامرأةٍ زنت فأقام عليها الحد، وأمر أصحابه أن يقيموا عليها الحد، فرُجمت حتى ماتت[1]، وجيئ إليه بماعزٍ رضي الله عنه، وقد زنى فأمر بإقامة الحد عليه فرُجم حتى مات[2]،

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٦٩٦) وأبو داود في " سننه " (٤٤٤٠) والترمذي في " سننه " (١٤٣٥) والنسائي في " المجتبى " (١٩٥٧) **عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا نبي الله، أصبت حدا، فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها»، ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ، فشكت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟ فقال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟».**

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٦٩٥) وأبو داود في " سننه " (٤٤٤٢) **عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال النبي ﷺ: مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله: «فيم**

وكان ﷺ ألين الناس، وأرفق الناس، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمـًا،

فلو كان هناك حدٌّ يُقام فلا يجوز للحاكم حال ثبوت الحد أن يعفو عن المخطئ، فالعفو حينئذٍ إثمٌ، فهذا ليس ملكـًا له، فإذا رفع الأمر إلى الحاكم وجب إقامة الحد،

فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ عَلَيَّ خَمِيصَةٌ لِي ثَمَنُ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، فَجَاءَ رَجُلٌ فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي، فَأُخِذَ الرَّجُلُ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَمَرَ بِهِ

=أطهرك؟» فقال: من الزنى، فسأل رسول الله ﷺ: «أبه جنون؟» فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: «أشرب خمرا؟» فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر، قال، فقال رسول الله ﷺ: «أزنيت؟» فقال: نعم، فأمر به فرجم، فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: «استغفروا لماعز بن مالك»، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال، فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»، قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله، طهرني، فقال: «ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه» فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك، قال: «وما ذاك؟» قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: «آنت؟» قالت: نعم، فقال لها: «حتى تضعي ما في بطنك»، قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ، فقال: «قد وضعت الغامدية»، فقال: «إذا لا نرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من يرضعه»، فقام رجل من الأنصار، فقال: إلي رضاعه يا نبي الله، قال: فرجمها.

لِيُقْطَعَ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَتَقْطَعُهُ مِنْ أَجْلِ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، أَنَا أَبِيعُهُ وَأُنْسِئُهُ ثَمَنَهَا؟ قَالَ: «فَهَلَّا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ» والحديث ثابتٌ صحيحٌ(١)،

وفي روايةٍ، **أن صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذَا سَرَقَ خَمِيصَةً لِي لِرَجُلٍ مَعَهُ، فَأَمَرَ بِقَطْعِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ وَهَبْتُهَا لَهُ، قَالَ: فَهَلاَّ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ؟.**"(٢)

فقد وقف صفوان مذهولاً تقطع؛ يده في بردة!، فلما رأف بحاله أن تُقطع يده، قال يا رسول الله وهبتها له، قال النبي ﷺ : **"ألا كان ذلك قبل أن تأتيني به؟"**،

فطالما رُفع الحد للحاكم فلابد أن يقيم حد الله عزَّ وجلَّ، هذا دين الله عزَّ وجلَّ، وما أعظمه من دينٍ!، وما أعظمها من شريعةٍ!، ولو أن الناس أقاموا كتاب الله وسنة نبيهم ﷺ فيهم، والله لصلح دينهم ودنياهم.

قال الله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**﴾، ويظهر ذلك في أن عدد ما يصنع من الحديد لربما لا نستطيع إحصاءه، فيصنع منه السيوف والدروع والسهام، ويصنع منه الآن السيارات والطائرات والصواريخ، ويصنع منها أبواب البيوت والمصانع وغير ذلك، عددٌ كبيرٌ جداً فيه منافع للناس، وصدق الله عزَّ وجلَّ فِيهِ بَأْسٌ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٣٩٤)، وابن ماجه في " سننه " (٢٥٩٥)، وأحمد في " مسنده " (١٥٣٠٥)، والبيهقي في "معرفة السنن والآثار" (١٧١٤٩)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٢٣١٧).

(٢) أخرجه النسائي في "السنن الكبرى"(٧٣٣٠)، وأحمد في "مسنده" (٢٧٦٤٠).

شَدِيدٌ يعني في الحروب، فيستخدم الحديد في السيوف والرصاص والمسدسات والصواريخ والطائرات والمدافع وهكذا، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ يتفعون ويقيمون شئون أمورهم؛ فالإبرة من الحديد، وغير ذلك من الدلو والفأس وآلات النجارة، وكل ما فيه صلاحٌ للعباد، ومن تدبر وجد شيئًا كثيراً مما صُنع من الحديد.

يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أنزل الله تعالى الكتاب والحديد، ليعلم الله من يستخدم الحديد لنصرة دينه جلَّ جلاله، فينصر ربه عزَّ وجلَّ،

مسألةٌ: هل العلم في قوله: ليعلم هو العلم بالأشياء قبل وقوعها، أم العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب بعد العمل؟

لا شك أن المقصود هو العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، يعني رب العزة يعلم الأشياء قبل وقوعها، وكتب ذلك في كتابٍ عنده كما ذكرنا قبل ذلك مراراً، ومرَّ معنا الحديث في الصحيح **"كتب الله مقادير العباد وما هو كائن إلى يوم القيامة قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة"**(١)

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: " وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ يقوي هذا التأويل، ومعنى قوله: لِيَعْلَمَ أي ليعلمه موجوداً فالتغيُّر ليس في علم الله، بل في هذا الحدث الذي خرج من العدم إلى الوجود."(٢)

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) ينظر " المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٢٦٩)، و" البحر المحيط " لأبي حيان (٨/ ٢٢٥).

قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد علم الظهور الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، أما علم أنه سيكون، فهذا سابقٌ على إرسال الرسل وإنزال الكتب، لأنه سبحانه لم يزل ولايزال عالمـاً بكل شيءٍ، ولكن لا يُشكل عليك الأمر، لا تقل: إن الله لا يعلم إلا بعد هذا، نقول: العلم علمان: علمٌ بالشيء قبل وجوده، وعلمٌ بالشيء بعد وجوده. والعلم السابق لا يترتب عليه ثوابٌ ولا عقابٌ حتى يمتحن للناس "(١)

فالمراد بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أن الله أمر العباد أن يطبقوا شرعه، ويسيروا على هديه، فمنهم من يطبق، ومنهم من لا يطبق، فمن أقام يظهر ذلك للعباد؛ فيظهر على إثر ذلك الثواب المترتب له، وكذلك العقاب على من خالف هدي المرسلين.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ بعض أهل التفسير قالوا من ينصره أي ينصر الله عزَّ وجل، على ظاهر اللفظ، ومن أهل العلم من فسرها بنصر دين الله، وجمع بينهما الواحدي فقال: "والمفسرون يقولون: وليرى الله من ينصره وينصر دينه، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾"(٢)

ولكن كثيراً من أهل العلم بالتفسير قالوا ينصره أي ينصر دينه، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا إِلَى خَلْقِنَا وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لِيَعْدِلُوا

---

(١) ينظر " تفسير العثيمين" ـ تفسير سورة الحديد ص ٤٢٤

(٢) ينظر " التفسير البسيط " للواحدي (٢١/ ٣١٤)، و" معالم التنزيل " للبغوي (٨/ ٤١)، و" لباب التأويل " للخازن (٧/ ٣٧).

بَيْنَهُمْ، وَلِيَعْلَمَ حِزْبُ اللهِ مَنْ يَنْصُرُ دِينَ اللهِ وَرُسُلَهَ بِالْغَيْبِ مِنْهُ عَنْهُمْ"(١)

وقال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: " ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أَيْ: أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لِيَتَعَامَلَ النَّاسُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ وَلِيَرَى اللهُ ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أَيْ: دِينَهُ"(٢)

وعلل ذلك العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث قال: "﴿ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ ، أي: ينصر دينه، وليس المعنى ينصر نفس الله، لأن الله غنيٌ عن العالمين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤] .

فلو قال قائلٌ: كيف تفسر الآية ينصر دينه والله يقول: ﴿من ينصره﴾ هذا تفسيرٌ مخالفٌ للفظ وأنتم تنكرون على من يفسر القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ، فما الجواب؟

فالجواب: نحن لا ننكر على الناس إذا فسروا القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ إذا كان ذلك بدليلٍ، ولهذا إذا قال قائل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨] المعنى إذا قرأت القرآن أي أردت قراءته، فهذا فسره بخلاف ظاهره، ولكنه تفسيرٌ صحيحٌ، لأن الإنسان يستعيذ بالله إذا أراد أن يقرأ، وليس إذا تم القراءة.

---

(١) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤٢٦).

(٢) ينظر " معالم التنزيل " للبغوي (٨/ ٤١)، و " والوجيز" للواحدي (١٠٧١)، و " اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٨/ ٥٠٠).

بدليل فعل النبي ﷺ، ولأن هذا هو الذي يفيد أن يستعيذ الإنسان بالله قبل أن يقرأ ليقرأ والشيطان بعيدٌ عنه، على كل حالٍ إذا قال لك قائلٌ: كيف تفسر قوله تعالى: ﴿ **مَنْ يَنْصُرُهُ** ﴾ أي من ينصر دينه وأنت تنكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره، فالجواب: أننا لا ننكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره إذا كان في ذلك دليلٌ صحيحٌ، والدليل على أن المراد ينصر دينه قوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ٢٥**﴾ ليس به حاجةٌ، ولا يحتاج إلى أحدٍ، فهو قويٌ عزيزٌ غالبٌ، غالبٌ بقوةٍ، لا يلحقها ضعفٌ."[1]

وهنا في هذه الآية الجليلة يقول النبي ﷺ: **«بُعثت بالسيف حتى يُعبد الله لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رُمحِي، وجُعل الذلة، والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم»**[2]، جاء ﷺ بالدين الكامل المبارك، إن دخل الناس فيه فلله الحمد والمنَّة، وإن أبى أعداء الله عزَّ وجلَّ أن يدخلوا في الإسلام، وأبوا إلا المقاتلة قاتلهم ﷺ، حتى يذعنوا بالحق، وكان الأئمة يعرضون على من يحاربونهم الإسلام أو الجزية أو القتال، فإن أبوا الإسلام دفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فيتركونهم وقد دانوا للإسلام بالجزية، وإن أبوا الجزية يُقاتلوا، وهذا هو هدي الله تبارك وتعالى،

---

(١) ينظر " تفسير العثيمين " ـ تفسير سورة الحديد ص ٤٢٤

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤/ ٤٠) معلقا ، وأخرجه أحمد في " مسنده " (٥١١٤)، وابن أبي شيبة في " مصنفه " (١٩٧٤٧)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (١٢٦٩) عن ابن عمر به.

هل انتشر الإسلام بالسيف؟

إذا نظرنا في سيرة النبي ﷺ، وفي سيرة أصحابه وخلفائه الراشدين الكرام، هل انتشر الإسلام بالسيف، أم أن الرسول ﷺ كان يرسل إلى الملوك وإلى الأمراء أَسْلِم تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرتين؛ كما أرسل إلى هرقل، وأرسل إلى كسرى، وأرسل إلى ملوك اليمن، وأرسل إلى ملوك الشام ، وأرسل إلى مصر وغيرهم ، هذا دين الله عزَّ وجلَّ وأمر الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ۝﴾ [الذاريات: ٥٦] وكان النبي ﷺ إذا أرسل إلى ملكٍ نصرانيٍ يقول له ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّه﴾[(١)]، فالإسلام لا شك أن السيف له مكانةٌ فيه، فلا ننفي هذه المقالة بزعم أننا نُحسِّن صورة الإسلام، فالإسلام لا يحتاج لأحدٍ أن يُحسن صورته، لكن نشر الإسلام لم يستقل بالسيف أسلوبـًا ومنهجـًا وطريقةً، بل يعتمد في أُسِّه وأساسه على الحكمة، والموعظة الحسنة، بالبراهين والحجج العقلية والفطرية، فما من أحدٍ منصفٍ عرف مكانة الإسلام ومنزلته العلية إلا ودخل فيه، أما السيف فلمن كابر؛ كما كابر بعض الفرس أو غيرهم، وكذلك غيرهم من النصارى، فلما كابروا لم يعد بيننا وبينهم إلا هدي الإسلام، وقد أمرنا رسولنا ﷺ أن ندعوهم إلى الدين، ولا نُلزِم أحداً بأن يدخل في الدين، فما من أحدٍ -في تاريخ الأمة من الخلفاء الراشدين، أو قبل ذلك في حياة الرسول - أجبر على الدخول في الإسلام، ولا مرةٍ

---

(١) **(متفق عليه)؛** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧)، ومسلم في "صحيحه " (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واحدةٍ، بأن يخير بين الإسلام أو قطع رقبته، أو يضطهد ليسلم، لا يوجد أبداً، والمستشرقون الذين يبحثون عن أي عوارٍ يُنسب للإسلام؛ لو بحثوا مئات السنين لن يجدوا حالةً واحدةً،

فمن أبى أن يدخل في الإسلام، فإنه لا يُجبر عليه بل يدفع الجزية ونحن نحميه، فمن أبى أن يدفع الجزية فبيننا وبينه السيف، والقتال هذا شرعٌ شرعه الله عزَّ وجلَّ،

أما الغرب الكافر فيروِّجُون للحقد على الإسلام والمسلمين؛ فيقولون: الإسلام دين عنفٍ، ودين سيفٍ، ودين تقطيعٍ، ويستدلون على ذلك ببعض تصرفات بعض من ينتسب إلى الإسلام، من المتشددين أو غير ذلك، وهذا ضلالٌ، وتشويهٌ لصورة الإسلام، فما أعظم الإسلام لمن تدبر أصوله وفروعه وحكمة التشريعات فيه،

وفي المقابل تجد بعض كبار المستشرقين، وكبار مفكري الغرب؛ يقولون: أن الإسلام دينٌ لا يوجد مثله أبداً، ويضعون إحصائياتٍ في بيان آثار الإسلام الإيجابية على الفرد والمجتمع.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ﴾ قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ هذا يدل على أن أول الأنبياء نوحٌ عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ لأن بعض الناس يقولون: إدريس نبيٌ قبل نوحٍ عليه السلام، وهذا خطأٌ وليس بصحيحٍ، ويدل أيضـاً أن آدم لم

يكن رسولاً عليه السلام، إنما كان نبياً لمن معه، قال العثيمين رحمه الله: "وفي هذا دليلٌ على أن آدم ليس برسولٍ، وأن إدريس ليس قبل نوحٍ كما ذكره بعض المؤرخين، وهو خطأٌ مخالفٌ للقرآن الكريم، فليس قبل نوحٍ رسولٌ، وآدم نبيٌ مكلمٌ كلمه الله - عز وجلَّ - بما شاء من وحيه، ثم سار على نهجه بنوه من بعده، فلما انتشر الناس وكثروا صار بينهم اختلافٌ، كما قال - عز وجلَّ -: ﴿**كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ**ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣]."(١)،

﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ**﴾ ونص الله عليهما لأنهما من أولي العزم من الرسل، ولمكانتهما العلية، ولصبرهما في ذات الله جلَّ جلاله، ﴿**وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ**ۖ﴾ اختار الله تعالى نبي الله نوحاً ونبي الله إبراهيم عليهما السلام، وجعل النبوة في ذريتهما، وكذلك الكتب التي نزلت، جعلها الله تعالى في ذرية نوحٍ وفي ذرية إبراهيم، وما من نبيٍ جاء بعد نوحٍ إلا وكان من ذرية نوحٍ، كما قال تعالى: ذرية من حملنا مع نوح إلى أن جاء نبي الله إبراهيم، فما من نبيٍ جاء بعد إبراهيم إلا كان من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فالله تعالى يقول: ﴿**وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ**ۖ﴾

قال بعض علمائنا: لو أن سائلاً سئل فقال لماذا جعل الله النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم وفي ذرية نوح -عليهما السلام- ولم يجعلها في غيرهم من الأنبياء؟

---

(١) ينظر " تفسير العثيمين" - تفسير سورة الحديد ص ٤٢٧

الجواب: أن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، والله أعلم حيث يجعل رسالته[١]، وهي آيةٌ ما أعظمها!

وهذا موقفٌ جليلٌ يظهر عظمة هذه الآية، جاء أعرابي إلى المسجد في المدينة فرأى رجلاً عليه هيبةٌ، ونور الإيمان يفوح منه، وجلالة النبوة تظهر عليه، وليس بنبي، ولكن آثار أتباع النبي تظهر عليه، نور النبوة، نور العمل بالشرع المبارك، بادٍ عليه مع جسامةٍ في بدنه؛ فهو جسيمٌ وسيمٌ مهابٌ، ذكر ذلك ابن أبي حاتم عَنِ ابْنِ أبي حسين قال: أَبْصَرَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَاعَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ. قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ."[٢]

فالله يصطفي ويختار من يكون عالمـًا، ومن يكون طالب علمٍ، من يكون رسولاً، ومن يكون خادمـًا لهذا الدين، هذا اصطفاءٌ من الله عزَّ وجلَّ، ليس لأحدٍ دخلٌ فيه، هو محض اجتباءٍ من الله، وقد مرَّ معنا أن الفضيل بن عياضٍ رَحِمَهُ اللهُ كان قاطعـًا للطريق، وكان فاسقـًا، فشاء الله أن يصطفيه ويجتبيه؛ حتى صار من أئمة المسلمين الكبار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فليس قول الله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ على إطلاقه، ولكن ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ كثيرٌ من ذرية إبراهيم وذرية نوحٍ فاسقون،

---

(١) ينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير سورة الحديد (ص ٥٧٣) للشيخ مصطفى العدوي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في " التفسير " (٤/ ١٣٨٤)، وينظر " الدر المنثور" للسيوطي (٦/ ١٩٥).

حتى يعلم العبد منا أن عليه أسباباً يبذلها، ولكنه مع ذلك يعلم يقيناً أن الهادي هو الله جلَّ جلاله، فالهدى بيد الله، كم يحترق قلب المرء منَّا على بعض أحبابه ليفعلوا خيراً، والله قال لنبيه ﷺ: لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين وقال الله تعالى: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا**﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦] فالهدى بمعنى التوفيق خاصٌ بالله تعالى، فمهما كانت قرابة هذا الإنسان؛ أباً، أو ابناً، أو أخاً، أو زوجةً، فالعبد لا يملك أن يفتح قلبه للهداية، إنما الذي يستطيعه هو إقامة الحجة، والبلاغ، قال الله لنبيه: ﴿**إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ**﴾ [الشورى: ٤٨] عليك البيان الكامل الشافي، والتوفيق من عند الله

فالأنبياء أكمل الناس فهماً، وأعظم الناس علماً، نبي الله إسماعيل يتزوج زوجةً ولا يعلم عنها كبير علمٍ إلى أن جاء أبوه وقال يا بني غَيِّر عتبة بابك، أي طلق هذه المرأة فهي ليست امرأةً صالحةً، بل هي امرأةٌ تشكو زوجها للناس، فطلقها وتزوج أخرى،

وكذلك نبي الله نوحٌ عليه السلام كانت امرأته كافرةً، وكان ابنه كافراً، ونبي الله لوطٌ كانت امرأته كافرةً، وقد قال الله لنبيه محمدٍ ﷺ : إنك لا تهدي من أحببت أبو طالبٍ عم النبي الله محمدٍ ﷺ؛ الذي أحبه حباً عظيماً، وبذل من أجله مالاً لم يبذله أحدٌ، وعادى قريشاً كلها من أجل الرسول ﷺ، ورغم ذلك مات كافراً، ولم يُسلِم لابن أخيه الذي بذل حياته من أجله، ﴿**إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ**﴾ [القصص: ٥٦]

لذلك قال الله تعالى: ﴿**فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ**﴾ أي من ذرية إبراهيم النبي الكريم خليل الله

عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ذرية نبي الله نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ الذي هو أول رسولٍ أرسله الله إلى أهل الأرض، ﴿**وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ**﴿٢٦﴾﴾ سبحانك ربي ما أعظمك،

أيضـًا في قصة إسحاق وإبراهيم، قال تعالى: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾ من ذرية إبراهيم وإسحاق، فالهدى من عند الله، لكن علينا البلاغ والدعاء والبيان، والدعاء يُغيِّر الله به أموراً ما كان يحلم العبد أن تتغير، وهذا أمرٌ مجربٌ، ومن أدمن الدعاء يعرف هذا جيداً،

وقفةٌ: ليس على العبد إلا أن يدعو ويبلغ ويقيم الحجة ويصبر ، ويبرئ نفسه أمام الله، فالعبد يبلغ ولا يمل وليحذر من الضجر، فلا يضجر العبد ويمل فيترك النصيحة، فيقول: أنا نصحته عشرين مرةٍ، مائة مرةٍ، ولم يقبل، بل إن اضطر العبد أن ينصح مليون مرةٍ، أو أكثر فليفعل، وإن استدعى الأمر أن ينصح طوال عمره طالما استطاع، وليتذكر الحديث الذي رواه الإمام مسلمٌ، **عن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، حدَّث " أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلانٍ، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلانٍ، وأحبطت عملك"**(١)

وعند أبي داود، **قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا**

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٢١)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٧١١)، وأبو يعلى في "مسنده" (١٥٢٩)، والطبراني في " المعجم الكبير " (٢/ ١٦٥)، وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (٢/ ٣١٦).

يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ" قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ"(١)

فمثل هذا الإنسان إن لم يتق الله ويعصمه ربه؛ قد يقع في مثل هذا، فمن شدة حرص الداعي على من يدعو إلى الله، وشدة حرصه خاصةً إذا كان المدعو قريباً؛ زوجةً، أو بنتاً، أو ابناً، أو أختاً، أو أماً، أو غير ذلك، فأحياناً إن لم يتق الله ويوفقه ربه ويعصمه؛ فمن الممكن أن يشتد الداعي على المدعو، ويتكلم بكلمةٍ تُوبِقُه -والعياذ بالله-، وتكون سبباً في هلاكه، ولذلك ينبغي على الداعي إلى الله أن يكون رفيقاً حازماً وعليه بالدعاء، وعليه بالبلاغ والبيان ما استطاع، وربنا يهدي من يشاء سبحانه جلَّ جلاله-نسأل الله أن يهدي أحبابنا أجمعين يا رب العالمين-.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٩٠١)، وأحمد في "مسنده" (٨٢٩٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٥٧١٢)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٤٩٠١).

فَٰسِقُونَ﴿٢٧﴾

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ ﴿قَفَّيْنَا﴾ يعني أتبعنا، فالذي يمشي خلفك فهو يمشي في إثر قفاك[1] ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ يعني على آثار نوحٍ، وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ يعني وأتبعنا بعيسى ابن مريم،

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾

شبهةٌ وردها في ثناء الله على النصارى:

بعض الجهلاء يأتي بمثل هذه الآية ويقول: الله يثني على النصارى، وأنتم تكفرونهم!، وربنا بقول: الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً يعني عندهم رأفةٌ وعندهم رحمةٌ، وربنا أيضـاً قال في القرآن في سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى﴾

والجواب: نعم أثبت الله أنهم أقرب للمسلمين، لكن غذا أكملنا الآيات، نجد أن الله قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾[المائدة: ٨٢-٨٣] فهؤلاء الذين

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٢/ ٤٢٧)، و" معاني القرآن وإعرابه " للزجاج (٥/ ١٢٩)، و" تهذيب اللغة " للأزهري (٩/ ٢٤٧)، و" تاج العروس " للزبيدي (٣٩/ ٢٣٩).

اثنى الله عليهم قد أسلموا، فليس هذا وصفـًا للنصارى الموجودين الآن، فالنصارى منذ بعثة الرسول ﷺ إلى يوم القيامة، نحن نتبرأ منهم، وهم عندنا كفارٌ بلا خلافٍ، وسيتبرأ منهم عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة ويكفرهم، أما الوصف المذكور في الآيات فهو وصفٌ للنصارى الذين كانوا على الدين الحق، ولم يُحرِّفوه، ومن عاش منهم إلى بعثة الرسول ﷺ آمن به، كما في الصحيحين، **عن أبي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " ثَلاَثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالعَبْدُ المَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ "، ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ: أَعْطَيْنَاكَهَا بِغَيْرِ شَيْءٍ، قَدْ كَانَ يُرْكَبُ فِيمَا دُونَهَا إِلَى المَدِينَةِ".**(١)

فالله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ جعلنا أي خلقنا، فالله جلَّ جلاله هو الذي جعل الرحمة والرأفة، أن يجعلك الله رؤوفـًا رحيمـًا هذا فضل الله سبحانه، وكذلك الله تعالى يجعل بعض العباد هيِّنـًا ليِّنـًا رؤوفـًا رحيمـًا، وبعض العباد فظـًا غليظـًا، لحكمته تعالى وكل شيءٍ عنده بمقدارٍ.

ولذلك كان رسول الله أرأف عباد الله بعباد الله، والله تعالى هو الذي يقذف هذه الرحمة في قلوب العباد، **فعَنْ أُسَامَةَ رضي الله عنه: أَنَّ بِنْتًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَسَعْدٌ، وَأُبَيٌّ، أَنَّ ابْنِي قَدْ احْتُضِرَ فَاشْهَدْنَا، فَأَرْسَلَ يَقْرَأُ السَّلاَمَ وَيَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَتَحْتَسِبْ»**

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٩٧)، ومسلم في " صحيحه " (١٥٤).

فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ، فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا قَعَدَ رُفِعَ إِلَيْهِ، فَأَقْعَدَهُ فِي حَجْرِهِ، وَنَفْسُ الصَّبِيِّ جُئِّثُ، فَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ يَضَعُهَا اللهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ».(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الأقرع بن حابسٍ، أبصر النبي ﷺ يُقبِّل الحسن فقال: إن لي عشرةً من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرحم لا يُرحم»(٢)،

وعَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها قَالَتْ: "جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»"(٣)، فالله تعالى هو الذي يجعل هذا الخير في قلب العبد.

وربنا تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوا هذه الرهبانية، لم تكن مفروضةً عليهم، لأنها لم تكن في دين النصارى، فما يفعله الراهبان من التفرغ للعبادة وترك الدنيا، أو الذهاب إلى الصوامع والاعتزال فيها، وترك الناس، وترك الزواج، هذا ليس في دين النصارى، بل أحدثه النصارى في دينهم، فهو بدعةٌ ابتدعوها، فجمعوا بين أمرين كل واحدٍ منهما أسوأ من الآخر

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٦٥٥)، ومسلم في " صحيحه " (٩٢٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٩٩٧)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣١٨).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٩٩٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣١٧).

الأمر الأول: إبتدعوا في الدين ما لم يأمرهم به الله، ولم يأتِ به نبيهم عيسى عليه السلام

والأمر الثاني: أنهم لم يَفُوا بما أحدثوه،

فقد أحدثوا الرهبانية؛ فطائفةٌ منهم قالوا نتفرغ في الصوامع لعبادة الله وننقطع عن الناس، وبعضهم قالوا نترك الزواج ولا نتزوج، فهذه رهبانيةٌ قال الله تعالى عنها: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ**﴾ ما فرضناها عليهم، هم الذين أوجبوها على أنفسهم يرجون بذلك رضوان الله، ولكن ربنا قال: فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا يعني ما حافظوا عليها حق المحافظة،

ولذلك أبو أمامة الباهلي صدي ابن عجلان رضي الله عنه قال: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ صِيَامَ رَمَضَانَ، وَلَمْ يَكْتُبْ عَلَيْكُمْ قِيَامَهُ، وَإِنَّمَا الْقِيَامُ شَيْءٌ ابْتَدَعْتُمُوهُ، وَإِنَّ قَوْمًا ابْتَدَعُوا بِدْعَةً لَمْ يَكْتُبْهَا اللهُ عَلَيْهِمْ، ابْتَغَوْا بِهَا رِضْوَانَ اللهِ، فَلَمْ يَرْعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، فَعَابَهُمُ اللهُ بِتَرْكِهَا، فَقَالَ: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾"(١)، وقوله "وَإِنَّمَا الْقِيَامُ شَيْءٌ ابْتَدَعْتُمُوهُ" فالبدعة هاهنا بالمعنى اللغوي

هل قيام رمضان جماعةً بدعةٌ؟

من فضل الله على هذه الأمة، أنهم لما قاموا بشيءٍ يتقربون به إلى الله واتفقت الأمة عليه في زمان الصحابة، وقد كان أول من فعله الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد صلى بالصحابة ثلاث ليالٍ، كما رُوي **عن عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ**

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤٣٣)، والطبراني في " المعجم الأوسط" (٧٤٥٠).

جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى فِي المَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلاَتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ، فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ، فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ المَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَصَلَّوْا بِصَلاَتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ المَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ، فَتَعْجِزُوا عَنْهَا»"(١)، ثم مات النبي ﷺ والأمر على ذلك، فكان الصحابة في رمضان بعد النبي ﷺ يصلي هذا وحده، ويصلي اثنان مع بعضهما، ويصلي الواحد بأربعةٍ وغير ذلك، فجمعهم عمر رضي الله عنه الناس على أبي بن كعبٍ رضي الله عنه فصارت صلاة التراويح منذ ذلك الزمان جماعةً في المسجد، وهذا من السنة التي جاء بها عمر وقد أمرنا باتباع سنته وسائر الخلفاء الراشدين، وقد ذكر البخاري تجميع عمر للناس في صحيحه، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ القَارِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ إِلَى المَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ، يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلاَتِهِ الرَّهْطُ، فَقَالَ عُمَرُ: «إِنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلاَءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ، لَكَانَ أَمْثَلَ» ثُمَّ عَزَمَ، فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ: «نِعْمَ البِدْعَةُ هَذِهِ، وَالَّتِي يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي يَقُومُونَ» يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ"(٢)،

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٩٢٤)، ومسلم في " صحيحه " (٧٦١).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٠١٠)، ومالك في " الموطأ " (١/ ١١٤)، وابن خزيمة في

وهذا من شرف الله تعالى لهذه الأمة، أنها لما قامت بعملٍ تتقرب به إلى الله، وأقره الصحابة، فواظبت عليه الأمة، فبارك الله للأمة في هذه الطاعة؛ حتى صار إقبال الأمة على هذه السنة المباركة -صلاة التراويح- عظيمٌ، أما اليهود والنصارى فبدَّلوا دينهم منذ زمنٍ بعيدٍ ولم يستمروا على شيءٍ من الهدي -نسأل الله العافية والسلامة-.

فقال تعالى: ﴿**وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا**﴾ ويظهر ابن عباسٍ ذلك، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: " كَانَتْ مُلُوكٌ بَعْدَ عِيسَى بَدَّلُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَكَانَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ يَقْرَأُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَقِيلَ لِمَلِكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنْ شَتْمٍ يَشْتُمُنَاهُ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَ ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مَعَ مَا يَعِيبُونَنَا بِهِ فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَأُوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا بِهِ. " قَالَ: " فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ، أَوْ يَتْرُكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ فَدَعُونَا "؛ قَالَ: " فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْفَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا، فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ، وَنَهِيمُ وَنَشْرَبُ كَمَا تَشْرَبُ الْوُحُوشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا بِأَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي، وَنَحْتَفِرُ الْآبَارَ، وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ، فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ، وَلَا نَمُرُّ بِكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُولَئِكَ إِلَّا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ "؛ قَالَ: " فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا**

="صحيحه" (١١٠٠)، وعبد الرزاق في " مصنفه " (٧٧٢٣)، والفريابي في " الصيام " (١٦٤).

كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ الْآخَرُونَ قَالُوا: نَتَعَبَّدُ كَمَا تَعَبَّدَ فُلَانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلَانٌ وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلَانٌ، وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِمْ؛ " قَالَ: " فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، انْحَطَّ رَجُلٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَجَاءَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَجَاءَ صَاحِبُ الدَّارِ مِنْ دَارِهِ، وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، فَقَالَ اللهُ جلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ**﴾ قَالَ: أَجْرَيْنِ لِإِيمَانِهِمْ بِعِيسَى، وَتَصْدِيقِهِمْ بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَصْدِيقِهِمْ بِهِ قَالَ ﴿**وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ**﴾ الْقُرْآنَ، وَاتِّبَاعِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ؛ " وَقَالَ: " ﴿**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ ".(١)

لذلك في الحديث الثابت الصحيح، الذي صححه العلامة الألباني، **عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى»**(٢)،

---

(١) **(حسن)** أخرجه النسائي في " المجتبى " (٥٤٠٠)، وفي " الكبرى " (٥٩٠٨)، والطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤٢٩)، وحسنه الألباني موقوفا في " صحيح سنن النسائي " (١١/ ٤٠٠).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٢٤٨٦)، والحاكم في " المستدرك " (٢٣٩٨)، والطبراني في " المعجم الكبير " (٧٧٦٠)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (٣٩٢٢)، وابن أبي حاتم في " تفسيره " (٦/ ١٨٨٩)، وحسنه الألباني في " صحيح الجامع " (٢٠٩٣)

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سريةٍ من سراياه قال: فمرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيءٌ من ماءٍ، قال: فحدَّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماءٍ ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلى من الدنيا، ثم قال: لو أني أتيت نبي الله ﷺ، فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت، وإلا لم أفعل. فأتاه فقال: يا نبي الله، إني مررت بغارٍ فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا. قال: فقال النبي ﷺ: «إني لم أُبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بُعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمدٍ بيده لغدوةٍ أو روحةٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خيرٌ من صلاته ستين سنةٍ».[1]

قال ربنا جلَّ جلاله: ﴿**مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾**﴾ حتى لا يغتر المسلمين من أهل زماننا بالغرب، فيقولون: أكثر الغرب أناسٌ محترمون، والحق أن المسلم الفاسق الفاجر خيرٌ من ملئ الأرض من الكفرة جميعـًا.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾**﴾

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٢٢٩١)، والطبراني في " المعجم الكبير " (٧٨٦٨)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٩٢٤).

ثم يختتم الله هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ يعني يا من آمنتم بالله ازدادوا إيمانـًا،

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، خَافُوا اللهَ بِأَدَاءِ طَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ"[١]

لكن الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره بيَّن أن هذه الآية تدل على أنها ليست في اليهود والنصارى وإنما هي لهذه الأمة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ يا أيها الذين آمنوا، المراد بهم هذه الأمة، فيكون قوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ يعني اثبتوا على الإيمان، ولا تبدلوا الإيمان، لأن الإيمان قد حصل"[٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ قال الطبري: "﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ يُعْطِكُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ لِإِيمَانِكُمْ بِعِيسَى ﷺ، وَالْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ إِيمَانِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ بُعِثَ نَبِيًّا وَأَصْلُ الْكِفْلِ: الْحَظُّ"[٣]

---

(١) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٢/ ٤٣٤).

(٢) ينظر " تفسير العثيمين" ـ تفسير سورة الحديد ص ٤٢٩

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٢/ ٤٣٥)،و"معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٣٧)،و"الصحاح"

بعض السادة العلماء قال كفلين يعني حسنة وحسنة، ولكن هذا خطأٌ، فإن الدين الكريم جاء بالحسنة بعشر أمثالها، كما قال تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا يعني ضعفين من الأجر

ولذلك قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْحَسَنَةَ إِنَّمَا لَهَا مِنَ الْأَجْرِ مِثْلٌ وَاحِدٌ، فَقَالَ: الْحَسَنَةُ اسْمٌ عَامٌّ يَنْطَلِقُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَيَنْطَلِقُ عَلَى عُمُومِهِ، فَإِذَا انْطَلَقَتِ الْحَسَنَةُ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ فَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهَا مِنَ الثَّوَابِ إِلَّا مِثْلٌ وَاحِدٌ. وَإِنِ انْطَلَقَتْ عَلَى حَسَنَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى نَوْعَيْنِ كَانَ الثَّوَابُ عَلَيْهَا مثلين، بدليل هذه الآية فَإِنَّهُ قَالَ: كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَالْكِفْلُ النَّصِيبُ كَالْمِثْلِ، فَجَعَلَ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ وَآمَنَ بِرَسُولِهِ نَصِيبَيْنِ، نَصِيبًا لِتَقْوَى اللهِ وَنَصِيبًا لِإِيمَانِهِ بِرَسُولِهِ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْحَسَنَةَ الَّتِي جُعِلَ لَهَا عَشْرٌ هِيَ الَّتِي جَمَعَتْ عَشَرَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي جَمَعَ اللهُ تَعَالَى فِي صِفَتِهِ عَشَرَةَ أَنْوَاعٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ الْآيَةَ بِكَمَالِهَا. فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَنْوَاعُ الْعَشَرَةُ الَّتِي هِيَ ثَوَابُهَا أَمْثَالُهَا فَيَكُونُ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا مِثْلٌ. وَهَذَا تَأْوِيلٌ فَاسِدٌ، لِخُرُوجِهِ عَنْ عُمُومِ الظَّاهِرِ، فِي قَوْلُهُ تَعَالَى: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها بِمَا لَا يَحْتَمِلُهُ تَخْصِيصُ الْعُمُومِ، لِأَنَّ مَا جَمَعَ عَشْرَ حَسَنَاتٍ فَلَيْسَ يُجْزَى عَنْ كُلِّ حَسَنَةٍ إِلَّا بِمِثْلِهَا. وَبَطَلَ أَنْ يَكُونَ جَزَاءُ الْحَسَنَةِ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَالْأَخْبَارُ دَالَّةٌ عَلَيْهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا. وَلَوْ كَانَ كَمَا ذُكِرَ لَمَا كَانَ بَيْنَ الْحَسَنَةِ

=للجوهري (٥/ ١٨١٠)،و"تهذيب اللغة" للأزهري(١٠/ ١٤٠)، و"لسان العرب"لابن منظور (١١/ ٥٨٩).

وَالسَّيِّئَةِ فَرْقٌ."[١]

وعندنا بفضل الله تعالى هذا الحديث، **عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ" ، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»**"[٢]، فهذه الأمة يؤتيها ربنا جلَّ جلاله من فضله الكريم

قال تعالى: ﴿**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ**﴾ الكفل النصيب ﴿**وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا**﴾ هذا النور هو القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥**﴾ [المائدة: ١٥] فهو نورٌ يمشي به المؤمن في الدنيا، ينير الله به قلبه وعمله، ويميز به الحق من الباطل، نورٌ يمشي به على الصراط بفضل الله تعالى، ونورٌ له في كل كرباته، ﴿**تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٨**﴾

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ٢٧٧)، و"النكت والعيون" للماوردي (٢/ ١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٢٦٨)، والترمذي في " سننه " (٢٨٧١)، وأحمد في "مسنده" (٤٥٠٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٦٣٩)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (٧٧٣).

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي كي يعلم أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ لا يقدرون على منع خيرٍ أراد الله أن يختص به هذه الأمة، ولا يقدرون على منع ضرٍ أراده الله عزَّ وجلَّ، ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ٢٩﴾ لذلك يعترض أحدٌ لا عطاء الله لأحدٍ أو منعه عن أحدٍ،

فلا يقولنَّ أحدٌ: فلانٌ أعطاه الله مالاً وأنا فقيرٌ!، فلانٌ صحيحٌ وأنا مريضٌ!، فلانٌ عالمٌ جليلٌ وأنا لست بعالمٍ!، فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وربنا أعلم بعباده، فهو أعلم بمن يستحق الخير، وأعلم بمن يستحق الشر.

وصل اللهم على محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة الحديد بفضل الله ومنته

****

﴿فهرس الموضوعات﴾